دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية



ميرالمومنين جلالة الملك الحسن الثاني يقول:

إن الرسالة الإسلامية هي العروة الوثقى التي لا انفصام لها

المغرب متشبث بمذهب الإمام مالك وسيبقى متشبثا به

من توصيات الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة

الملتقى يوصي بجعل المسيرة الخضراء مثالا يحتذى

الملتقى ضد الكيانات المصطنعة

عبان - رمضان المعظم 1407 / أبريل - ماي 1987



المملكة المغربية

وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية

الدروس الحسنية

نص الدروس التي ألقيت أمام أمير المومنين
جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله،
بمناسبة شهر رمضان المبارك لعام 1406 هـ.

1407 هـ - 1987 م



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط. المملكة المغربية



أسسها:
جلالة المغفور لـه
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير:
الهاتف: 623.60

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

الاشتراكات: في المملكة المغربية: 70 درهماً
في العالم: 80 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط
Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

● المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي كاتبيها ولا تلزم المجلة أو الوزارة التي تصدرها ●

فهرس العدد 264

أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني يقول في خطاب العرش:

• إن تاريخ بلادنا يدخل في عداد التواريخ

احتفل الشعب المغربي، يوم ثالث مارس، في جو من البهجة والحبور، بالذكرى السادسة والعشرين لتربع أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني على عرش أسلافه الميامين.

وبهذه المناسبة الغالية وجه أمير المؤمنين - دام علاه - إلى شعبه الوفي نص الخطاب التالي :

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه.

شعبي العزيز،

في مثل هذا اليوم منذ عام مضى حلت الذكرى الخامسة والعشرون لجلوسنا على عرش أجدادنا الميامين، وقد كانت هذه الذكرى مناسبة سعيدة فجرت ينابيع الفرح ثرة غزيرة في رحاب القلوب، وأنارت ملامح الوجوه بوهج الاستبشار والاعتزاز، وأذكت العزائم وعبأتها للمزيد من البذل والعطاء.

لقد جرت عادتك - شعبي العزيز - بأن يكون احتفالك بعيد جلوسنا على عرش أجدادنا المكرمين احتفالا تعرب فيه ألواناً من الإعراب عن المسرة البالغة والاعتزاز العظيم بما بيننا وبينك من أواصر الثقة والمحبة والإخلاص، غير أنك حرصت وكان حرصك أقوى وأشد ما يكون الحرص على أن تكون مظاهر أفراحك ومسراتك بطلعة الذكرى الخامسة والعشرين أبلغ المظاهر وأكثرها دلالة على ما تجيش به نفسك من مشاعر وأقواها ملاءمة لهذا الحدث الكريم الذي نحمد الله نحن وأنت على ما أولانا به من ضافيات العوارف وسوابغ المنن.

فلم تكتف - شعبي العزيز - بيوم أو بضعة أيام تبدي فيها ما يخامر فؤادك من صادق وعميق الابتهاج، وتبرز خلالها ما يختلج فيه من ثابت ومكين المشاعر، بل واصلت الأفراح والمسرات وأتبعت أصناف التعبير والإفصاح بأخواتها من ألوان التصوير والبيان على امتداد عام بأكمله، وكأن هذا كله لم ينقع الصدى ولم يشف الغلة، ولم يبلغ غاية القصد والمراد، فتطلعت همتك في إطار تخليد هذه الذكرى إلى ضم البرهان إلى البرهان ووصل دلائل العاطفة والشعور بآيات الإرادة والعقل والروية والتفكير. وهكذا انطلقت عزيمتك تحقق أعمالا بعد أعمال، وتقدم إسهاما يتلوه إسهام، وجالت مساعيك في ميادين

ذات الشأن النابه والصيت الذائع

مغربنا البلد المتفتح، أرض التسامح والتساكن

مختلفة، وانتشرت جهودك في ساحات شاسعة، فبرزت فعالا مجدا في مجال الاقتصاد مثلما برزت بخصائصك ومزاياك المعروفة في مجال الاجتماع ومجال الثقافة. وعلى هذا النحو أدليت طيلة عام كامل بالدليل القاطع على أن فرحك لا يكون ذلك الفرح الطافح الفياض إلا إذا اقترن بالأعمال التي تضفي على بلادك ما تبتغيه لها من وجه ناضر مشرق وإهاب غض قشيب. وعلى طول عام كامل أعلنت بالطرق الواضحة المبينة أنك شعب تزخر نفسه بإرادة فتية وعزيمة حية، لا تثنيه عقبة عن تحقيق ما يتجه إليه القصد ويشرئب إليه الطموح وتمليه مصالح الوطن والمواطنين.

وها نحن أولا - شعبي العزيز - بعد انصرام عام احتشدت فيه الأفراح الزاهية المتألقة والأعمال الصالحة المثمرة نحتفل من جديد بذكرى ذلك اليوم الميمون الذي ألقى الله إلينا فيه زمام أمورك، نحتفل بها فرحين مغتبطين أوسع وأعمق ما يكون الفرح والاغتباط متآزرين متكاتفين أوثق وأرسخ ما يكون التآزر والتكاتف، حامدين شاكرين لله ما مهد من سبل ويسر من أسباب ووهب لنا من توفيق وتأييد، وأنشأ بيننا وبينك من وطيد الأواصر ومحكم الصلات.

ولا غرو أن يتمكن بيننا وبينك الوفاق ويتأصل الائتلاف وتتحكم العلائق والروابط، ذلك أن وراءنا تاريخا طويلا تجرمت أحقابه وأزمانه حافلة بالمحامد والمكارم والبطولات والأمجاد.

لقد لمس آباؤك وأجدادك خلال هذه العصور البواعث والدواعي التي حركت آباءنا وأجدادنا فعاش أسلافك بما واصله ملوك أسرتنا من جهاد، وما استرخصوه من بذل فصولا كانت كلها مسيرات رعاية وحدب وعطف وبحث لا ينقطع ولا ينتهي عن الأسباب الكفيلة بإقرار الطمأنينة والهناء في حياتك وإنارة جنبات النفوس بنور الرضا والارتياح.

وبعد هذه العهود التي تأرجحت بعض فتراتها بين مد وجزر وإقبال وإدبار، قيض الله والدنا رضي الله عنه وأرضاه لك ولوطنك العاني تحت وطأة الاحتلال، فكان بين جلالة محمد الخامس طيب الله ثراه وبينك شعبي العزيز ذلك اللقاء الذي تم بتدبير من عناية الله، ليكتب المغرب صفحات رائعة، وليقدم البرهان الذي لا ينكر ولا يدفع على أنه بلد الإباء وبلد الحفاظ وبلد التضحية والفداء.

وسار معك - شعبي العزيز - والدنا جلالة محمد الخامس نور الله ضريحه سيرة الأب الرؤوف بأبنائه الحريص على حريتهم واستقلالهم، الغيور على كرامتهم، الجاد في هنائهم وسعادتهم، ووجد فيك الشعب الدائب على حب الخير، المطبوع على الإخلاص والمحبة والوفاء، التواق إلى الرقي الطموح إلى المعالي، فكان لك وكنت له نعم الرفيق والصديق والحبيب، ولم يلتحق بجوار ربه إلا بعد أن كتب الله لأمنيته التي جاهد وضحى من أجلها أن تتحقق وتنعم بها نفوس الخاصة والعامة ونفوس الكبار والصغار، فكانت الحرية وكان الاستقلال وكان الشروع في بناء المغرب الحديث وفق المشيئة الوطنية والاختيار الحر المستعاد.

وألقى الله إلينا بأعباء الأمانة، ووكل إلينا زمام القيادة، ومقاليد التصريف والتدبير، والسهر على كبير شؤونك وصغيرها، فخلفنا جلالة والدنا محمد الخامس أجزل الله له الثواب والغفران في كل ما كان يبتغيه لك من خير، وينشده لك من سعادة، ويتطلع إليه لصالح يومك وغدك، وكان طموحنا عظيما فامتد مجال العمل أمامنا رحبا فسيحا، وتراءى لنا حجم ما كان يجب أن نزاوله من تجديد وإصلاح وتبديل وتحديث وإنشاء وبناء، كان علينا أن ننقل المغرب من حال إلى حال، ونسير به من طور إلى طور، ونحله منزلة بعد منزلة، على طريق طي المراحل والمسافات وتلافي النقص وتدارك ما فات.

فلم تلبث جهودنا وجهودك المتضافرة المتناصرة أن تصدت للعمل الضخم الذي كان يهيب بقلوبنا وعقولنا، فحددنا الغايات القريبة والبعيدة، ورسمنا الأهداف وأعددنا المشاريع، ثم أقبلنا على الإنجاز بهمم طماحة وعزائم وطيدة وإيمان صادق بنبل المقاصد والأغراض وتصميم وإصرار على تذليل العقبات وقهر الصعاب وتمهيد السبل والمسالك، وسرعان ما أخذت جهودنا المتلاحقة الموفقة تؤتي أطيب الثمرات وتدنينا أشواطا بعد أشواط من رغائبنا الملحة وأمانينا المقيمة، ولم تمض إلا بضعة أعوام حتى تحققت بحمد الله جملة صالحة من المطالب التي تعلق بها المراد، وسارت البلاد بخطى ثابتة واسعة في الطريق الذي أوضحته وأنارته الإرادة الصلبة المشتركة والقريحة الخصبة الخلاقة.

وإذا كنا - شعبي العزيز - تصدينا بنجاح لحظ غير يسير من الأهداف فحققنا ما تيسر به تقدم البلاد، وتعززت به وحدة التراب الوطني، فإن آفاق مستقبلنا آهلة بالأهداف والآمال داعية للكد المتصل الطويل مشرقة بالوعود والبشائر، وسنظل شعبي العزيز نحن وأنت إن شاء الله سائرين على النهج القويم، يحفزنا حب الإصلاح والإنشاء والابتكار

وتأمين الرغد للبلاد، وإشاعة الرخاء واليسار، ويستحثنا حرصنا الأكيد المتجدد على أن نبلغ بوطننا المستويات العليا في الرقي والازدهار.

وإن الله الذي ألف بين مشاعرنا ومشاعرك، ووشج بين مصيرنا ومصيرك، وأمدنا فيما طلبناه وابتغيناه بكريم عونه وجميل توفيقه، وكلل أعمالنا بأكاليل الظفر والفوز لهو المسؤول سبحانه أن يوالي لنا نعمة العون والتأييد فيما سنستقبله بحول الله من أعوام وأحقاب، ويكون لجهودنا المزمعة وأمانينا الغالية خير ولي وأعز نصير.

شعبي العزيز،

لقد انطلقنا منذ ناط الله بعهدتنا السهر على شؤونك من اعتقاد راسخ مكين في قرارة نفسنا وفحوى هذا الاعتقاد أن الرعية وديعة الله عند راعيها، ومن ثم كان اهتمامنا الملازم الذي لمست حرارته وتلمسها باستمرار في كل مبادرة نتخذها وفي كل ممارسة نسخر لها قصارى كفايتنا وعنايتنا، لقد منحنا مصالحك في جميع الظروف كامل رعايتنا، وآثرناها بالأولية والتقديم قياما منا بالواجب المتحتم، وحرصا منا على تأمين وتوفير رخاء العيش وطيب الحياة والازدهار والرفاهية والأمن والاطمئنان لأجيالك المعاصر وللأجيال اللاحقة الواردة من ذريتك وأعقابك.

ولكي يتأتى لنا أن نحقق أمنياتنا على الوجه الذي يرتضيه طموحنا، ونسير بالخطى الحازمة الواسعة التي تقتضيها ملابسة ومداخلة عالم حاضرنا وما سيتمخض عنه من عوالم، فإن علينا أن نتخذ الوسائل ونمد الأسباب الصالحة الكفيلة بانتظام وطننا في صف الدول الغربية المتقدمة التي لا يعرض لتقدمها توقف ولا وناء.

وأن من أجدى وأنجح هذه الوسائل والأدوات أن نقدم على تفاعل أعمق وأقوى، ونأخذ ونعطي كأنداد أكفاء مساوين مضارعين.

إن العالم يمر في الوقت الراهن بتحولات كبيرة ناتجة عن الجهود الفكرية والجهود العلمية التي يستفرغها المفكرون والعلماء في سبيل غزو المجاهل وتبديد سجوفها وظلماتها، وفي سبيل تحقيق الفتوح التي تنعكس آثارها على المجتمعات والحضارات.

إن طموحنا لا يقنع ـ شعبي العزيز ـ بأن تنفذ أشعة المعارف الإنسانية إلى أطراف بلادنا وأقطارها، ولكن طموحنا يترامى إلى أن نسهم بكفاءات مشهود لها بالضلاعة والتبريز في جهود المفكرين والعلماء، ونشارك بالنصيب الملحوظ في إخصاب الثقافة العالمية وإغناء الحضارة البشرية، ولتوفير أكبر فرص النجاح لتطلعنا هذا فلا مناص من إرعاء بعض المعطيات والمتطلبات كامل الاستبصار والاعتبار.

لامراء - شعبي العزيز - في أن تاريخ بلادنا يدخل في أعداد التواريخ ذات الشأن النابه والصيت الذائع، وإذا كان هذا التاريخ قد امتلأ من المفاخر بما أضفى عليه هذه الذكر المرموق، فإن الحقيقة تقتضينا أن نعترف بأن فترات منه لم تخل طوال عصوره الممتدة من جلبة واصطخاب، ولم تسلم من شغب واضطراب.

إن لبلادنا موقعا جغرافيا فريدا، وهذا الموقع الممتاز إن كان قد أثار الأطماع وألهبها ونصبنا غرضا لها وهدفا بصورة مستمرة، فقد أتاح لنا أن نحمل حضارتنا وننقل عبقريتنا إلى مواطن نائية عن حدود ترابنا.

وفي غمرة الصراع الذي دفعنا إلى خوضه في بعض الأحيان والشدائد التي جشمتنا بذل الدماء دفاعا عن هويتنا وشخصيتنا استطعنا أن نصنع ونصوغ وحدتنا الوطنية، كما استطعنا أن نحافظ على خصوصياتنا وعلى الصفات التي تمتاز وتنفرد بها مقوماتنا.

إن المغرب - شعبي العزيز - لم يجنح في عصر من عصور تاريخه باستثناء أحقاب نادرة إلى الانطواء على النفس، ولم يلذ قط بالانزواء والعزلة، بل أن تاريخه وموقعه الجغرافي تضافرا فجعلا منه بلداً متفتحا على أقطار العالم.

لقد أفدنا فوائد جمة من العلائق التي وصلت بين بلادنا والبلاد الأجنبية، إذ كانت هذه العلائق عوامل خصب كبير وغنى غزير، ولا جدال في أن طائفة من شمائل أمتنا ومزاياها التي أصبحت من سماتها الثابتة مردها إلى هذه العوامل.

وخلافا لما يمكن أن يتبادر إلى بعض الأذهان فإن وحدتنا الترابية لم يلحقها قط من هذا التفتح أي سوء أو أي أذى، بل إن هذه الوحدة بفضل ما أوتي المغاربة من عبقرية وخاصة بفضل ما قام به ملوكنا من أعمال لا تكل ولا تسأم لم يزدها توالي القرون إلا قوة ومتانة.

لا جرم أننا منينا كما منيت جميع الأمم بظروف خبا فيها إشعاعنا وتوهجنا، ولكن هذه الظروف كانت أعمارها وجيزة قصيرة، لم تدم إلا كما تدوم الأقواس، تفتح وسرعان ما توصد.

لقد عرض في تاريخ بلادنا حادث قريب العهد وهذا الحادث يوضح بصورة دقيقة ذلك التوافق وذلك الاتحاد بين ما للمغاربة من حرص على الوحدة الوطنية وبين ما لملكهم من إصرار على صيانتها ووقايتها من كل ضرر يراد بها ومن كل تهديد يصب عليها.

لقد كان الاستعمار يتجه أول ما يتجه حيثما كان يستقر إلى تقوض شخصية الشعب المصاب بشره، وإذا كان المغرب قد استطاع في أثناء الحماية أن يصون شخصيته على رغم المحاولات التدميرية التي اقترفتها هذه الحماية، فإن ذلك راجع بالحظ الوافر الجزيل إلى الملكية وإلى عبقرية جلالة محمد الخامس قدس الله روحه المؤتمن الساهر على سيادتنا، لقد يسر الله لملك البلاد أن يحمي أصالتنا ويحفظها تامة سليمة وهي الأصالة التي تمثلت فيه وكان رمزاً لها وعنواناً.

ولذلك فإن الاعتداء عليه بالنفي والإبعاد في 20 غشت 1953 قد عده الشعب المغربي بأمره اعتداء على السيادة الوطنية، وضربة موجهة إلى التلاحم الوثيق بين الملك والأمة وإلى قداسة روابط البيعة.

وإن المغرب الوفي لنفسه ولتقاليده التي تمتد جذورها بعيدا في أعماق التاريخ سيظل إلى جانب ذلك وفيا للاتجاه الطبيعي الذي تمليه الجغرافية والتاريخ على حد سواء.

والمغرب عازم على أن يبقى بلدا متفتحا ومندمجا في تيار المبادلات التي تستمد منها الأمم الكبرى في الظروف الراهنة ثراءها ومجدها.

ومغربنا البلد المتفتح هو إلى هذا وبحكم الضرورة أرض التسامح والتساكن.

وطبيعي - شعبي العزيز - أن يملي اختيارنا الأول هذا وهو اختيار أساسي لجميع اختياراتنا الأخرى..

ففي مجال التعليم يتعين علينا أن نكون ونعد مواطنا قادرا على الصمود للمواجهة بنجاح، وعلى الإسهام بصورة بناءة وإيجابية في إيجاد المجموعة الدولية مجموعة القرن الواحد والعشرين.

وفي هذا الصدد إذا كنا نحرص أقوى الحرص على أن نؤكد من جديد ما لنا من عناية خاصة برجال التعليم فإننا نرى أن الفرصة مواتية الآن أكثر من أي وقت آخر للتصريح بأن نوعية التعليم المبذول رهينة بما للمعلمين من كفاءات، وهذا مهما كان حظ جميع إصلاحات التعليم من الجودة البالغة.

وإن عدد إعادة سنة الدراسة تكرارا مرتين أو ثلاث مرات وخاصة في التعليم العالي يبيح لنا الاعتقاد أن نوعية تعليما يجب أن يتناولها التحسين استقبالا وأن مستواها يجب أن يباشر السعي لرفعه.

وكثيرا ما نجد أنفسنا من جراء الحالة الراهنة في وضع حرج يعسر النفاذ منه.

ذلك أن مدرجات كلياتنا وهي غير قابلة للاتساع والامتداد إلى مالا نهاية له لا تستطيع في أكثر الأحيان استقبال الطلبة الجدد الوافدين على التعليم العالي لأن المقاعد يحتلها الذين يعيدون السنة الدراسية مكررين مرة ثانية أو ثالثة.

وعلى هذا فإنه يبدو جليا أن نوعية التعليم وعدد الطلبة مرتبطان ارتباطا وثيقا.

ولتحطيم هذه الحلقة المفرغة واعتبارا للمجهود الذي نعتزم من الآن فصاعدا مطالبة المعلمين والأساتذة ببذله قررنا اتخاذ عدة تدابير لصالح المعلمين والأساتذة.

تذكر - شعبي العزيز - أثناء استقبالنا هؤلاء المعلمين والأساتذة منذ عامين صدرت منا لهم وعود بتحسين أوضاعهم، أما هم فقد التزموا من جهتهم بالمزيد من الجهد وبالزيادة في الحصص وقد أثلج صدرنا وفاؤهم بعهدهم والتزامهم.

وانطلاقا من هذا كله قررنا أن نستمر في حدبنا وعطفنا على أسرة التعليم، وذلك بمنحها ما تستحقه من مراعاة تتلاءم وكرامة مهنتهم، دون أن يكون في ذلك إرهاق لمالية الدولة. وستدرج إن شاء الله هذه التدابير في القانون المالي للسنة المقبلة.

وفيما يتصل بنظامنا الاقتصادي والاجتماعي فإن علينا أن نتصوره ونعده ونصوغه إعداداً وصياغة تسمحان للمواطن المغربي بأن يندمج غير متعرض لضرر في المجتمع الحالي مجتمع المزاحمة والمنافسة الحرة.

ولنا اليقين بأن هذه الاختيارات الجوهرية لن تسيء في شيء إلى شخصيتنا، بل ستمنح هويتنا على نقيض ذلك بعدها الصحيح.

لقد كان بلدنا وسيظل بلداً إفريقياً وعربياً ومسلماً وإذا كنا متمسكين بخصائصنا الذاتية في جميع الأحوال فإننا نرى أن السياسة التي نعتزم نهجها على أساس المبادئ التي ذكرناها آنفاً لن يكون من آثارها إلا إغناء مجموعتنا بصفاتها الثلاث العربية والإفريقية والإسلامية.

شعبي العزيز :

يتيح لنا احتفالنا بذكرى جلوسنا على عرش أجدادنا الأمجاد، كما يتيح لنا خطابنا هذا الذي نحييك فيه ونحيي ما بيننا وبينك من صلة ماسة أن نتجه بقلوبنا وأفكارنا في هذا اليوم الأبلج الوضاح إلى روح جلالة والدنا محمد الخامس رحمه الله رحمة شاملة ونؤكد باللسان بعد الجنان ما يعمر نفوسنا من عواطف الإجلال والتعظيم لما أسداه إلى وطنه وشعبه من أياد بيضاء ومنن مشرقة غراء.

لقد كان جلالة محمد الخامس رضوان الله عليه رائد كفاحنا الوطني وقائد جهادنا وزعيم تحريرنا ومحطم الأغلال التي طالما أنّت تحت وطأتها كرامتنا وسيادتنا.

وقد كان العلم الشامخ الذي سما بين أقطاب تاريخنا وأعلامه، وكان المنارة المتلائمة الوهاجة التي أضاءت آفاق الأفئدة والألباب وأنارت السبل والمسالك ودلت على جميل الأهداف وغر المقاصد.

لقد كان النسيم الذي هب فأحيا النفوس والعرف النافح الذي بسط الأمل ونشر ألوية التفاؤل والاستبشار، أشاع - أكرم الله مثواه - في شعبه كافة بأقواله ومواقفه توجيهه الحصيف وهدايته التي هذبت الأرواح ولقنت الصبر على المكاره والشجاعة عند الخطوب وهونت الاستماتة وعلمت كيف تكون التضحية وأنّى يستحب الفداء.

وكان من آثار هذا الإحياء وهذه التوعية وهذه الدروس أن ظفرت البلاد - شعبي العزيز - بأنفس مبتغاها، فنالت حقها وافياً في الحرية والسيادة والاستقلال، وتيسر لها بفضل الله ذي الحول والطول، وبفضل الملك الشهم الهمام، أن تتصرف من جديد في مصيرها لا تشكو التضييق ولا ترسف في القيود.

واستمداداً من مدرسة جلالة والدنا المرحوم بكرم الله واستلهاماً لرؤاه السياسية التي كانت تؤثر الحوار بالاختيار والتفضيل، فإننا غير غافلين عن رعايانا الأوفياء القاطنين في مدينتينا سبتة ومليلية وما جاورهما من جزر ولذا اقترحنا على حكومة إسبانيا جارتنا وصديقتنا تشكيل خلية للتفكير تنكب على بحث مشكل الجيوب الذي يجب إيجاد حل له في إطار الحفاظ على حقوق المغرب التي لا تقبل التفويت، وعلىالمصالح الحيوية لإسبانيا في المنطقة.

شعبي العزيز..

إن في أقل الذي جاد به والدنا على وطنه وشعبه لما يفعم القلب ويجري اللسان بالحمد الذي لا يغيض معينه وبالثناء المحض الذي لا تجف ألفاظه ولا تصوح معانيه.

رحم الله جلالة والدنا محمد الخامس وجازاه أجمل وأعظم جزاء وأثابه أوفى وأكرم ثواب على ما أعطى لبلاده بسخاء. وأسدى إلى شعبه بغير حساب وتغمده الله بواسع غفرانه ووافر رضوانه، وبوأه دار الخلد في فسيح جنانه (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولائك رفيقا).

نغتنم شعبي العزيز احتفالنا بذكرنا عيدنا الوطني هذا لنتجه بأخلص مشاعرنا صوب قواتنا المسلحة الملكية وقوات الدرك والأمن والقوات المساعدة المرابطة في صحرائنا الغربية.

إننا نغتنم هذه المناسبة السعيدة لنبعث إلى هذه القوات عبارات رضانا عنها وارتياحنا إلى قيامها بالواجب وثقتنا الكاملة في سهرها وجدها وحزمها. وإننا إذ نعرب لها عن عواطفنا الأبوية المشفوعة بآيات تقديرنا وإكبارنا لنعرب باسمك عما تكنه لها من محبة مكينة وتقدير فائق وإعجاب كبير وإجلال وفي دائم.

لقد برهنت قواتنا بما وقفته من مواقف واسترخصته من تضحيات وأظهرته من شجاعة نادرة وبطولة ضربت بها الأمثال على أنها مخلصة لمقدسات البلاد مستميتة من أجلها ومن أجل التراب الوطني وقيم المغرب الروحية والحضارية.

إن هذه القوات ساهرة منذ أعوام عديدة بيقظة لا تفتر حاضرة متأهبة في كل لحظة للدفاع عن صحرائنا وصد كل اعتداء يراد به هذا الجزء الغالي من أرضنا.

لقد حاول الأعداء مرات بعد مرات أن يستغفلوا حراستها، ويفتوا بما والوه من غارات في قوة شكيمتها، ولكنهم ارتدوا كل مرة على أعقابهم خاسرين.

وإن قواتنا المتفانية في الاضطلاع بمهامها الشريفة الدائبة على تسخير فضائل الإيثار والإقدام والتضحية وعلى استخدام ألوان المهارة والإحكام لجديرة بكل ثناء وكل إشادة وتنويه.

نضرع إلى الله شعبي العزيز في هذا اليوم المبارك أن يديم عليها نعمة عونه وتأييده، ويجعل التوفيق أليفها والنصر حليفها ما تلاحق الليل والنهار، وهو المسؤول سبحانه أن يمن بواسع رحمته وغفرانه على شهدائنا الأبرار الذين سقطوا في ساحة الشرف دفاعاً عن تراث الآباء والأجداد ويحلهم من جانبه أعلى المنازل والدرجات.

شعبي العزيز

عرضنا منذ قليل معطيات بلادنا التاريخية والجغرافية واتجاه بلادنا الطبيعي الذي هو وليد هذه المعطيات، كما عرضنا مبادئ واختيارات جوهرية استقر عزمنا على اعتمادها في سياستنا التعليمية وفي سياستنا الاقتصادية والاجتماعية.

وأحطناك علماً - شعبي العزيز - بأن اتجاه بلادنا هذا لا يترتب عليه أي سوء ولا يلحق وحدتنا الوطنية أو شخصيتنا منه أي أذى، بل إننا أحرياء أن نجني منه المنافع الكثيرة والفوائد الجليلة.

وأنت تعلم - شعبي العزيز - إلى هذا أن ملوك أسرتنا الذين تعاقبوا على عرش بلادك كان حرصهم شديداً على أن تصان وحدة وطننا وتحفظ شخصيتنا وأصالتنا من كل خطر أو مكروه.

ولما من الله علينا بأن اخترنا لقيادة سفينتك والسهر على مصالحك ورعاية كل ما يمت إلى حاضرك ومستقبلك بصلة أو سبب كان أحد اهتماماتنا الكبرى أن تسلم وتتوطد وحدتنا الوطنية وتقوى وتتعزز وحدتنا الترابية، وتحاط شخصيتنا وأصالتنا بسياج يقيهما كل اعتداء يمكن أن يتطاول إليهما. ولم نقف عند هذا الحد بل بذلنا لشخصيتنا وأصالتنا الكثير الذي أغنى ما لهما من خصائص ومميزات، وإذا كان اهتمامنا بذاتيتنا وأصالتنا يرقى إلى هذا المستوى ويبلغ هذا المدى، فإن اهتمامنا بأصلهما ومصدرهما الأساسي هو اهتمام بالليل والنهار واليوم والغد، وهو الاهتمام بالعلق النفيس والكنز المصون الذي إن ضاع - لا قدر الله - فقدنا بفقده جذورنا العريقة وأصبحنا هباء منثورا أو هشيما تذروه الرياح. ذلك الأصل وذلك المصدر أن هما إلا كتاب الله المجيد وسنة رسوله الغراء.

• إن الرسالة الإسلامية هي العروة الوثقى التي لا انفصام لها.

لقد وصلت الرسالة الإسلامية إلى المغرب مع الفتح الإسلامي، وكان وصولها إيذاناً بانطلاق الحضارة وانتشارها وتألقها في هذه الديار، فلما تأسست الملكية فوق أرضنا بتدبير من إدريس الأول ـ رضي الله عنه ـ لم تأخذ نفسها بحماية الديار فحسب وإنما أخذتها كذلك بصيانة الرسالة المحمدية ومساندة ما حملته من قيم دينية وأخلاقية وحضارية.

ومنذ ذلك العهد ما تم لأسرة أو قبيل ملك المغرب إلا كان اهتمام الملوك مصروفا إلى نصر الملة الحنيفية السمحة. لقد كانت الملكية في الماضي البعيد والماضي القريب حصن الإسلام ودرعه الواقي، ولولا الملكية التي ذادت عن حرمات الإسلام، وأقرت الالتزام بالمذهب المالكي لتغير مجرى تاريخ هذا الوطن، ولأنهكت ساكنيه ومزقتهم التيارات المتضاربة والنحل والمذاهب المتصارعة، وستظل الملكية المغربية بحول الله وعونه حاملة لواء الدفاع عن الإسلام، وزعيمة صيانته وحمايته من جميع الشوائب والعوادي.

إن الرسالة الإسلامية هي العروة الوثقى التي لا انفصام لها، وهي التي عصمت بلدنا وشعبنا من شنيع الآفات فيما خلا من العصور، وتعصمها الآن وستعصمها ما تطاولت الأزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

إن من نعم الله علينا وعليك شعبي العزيز أنك كنت وما زلت متمسكا بحبل الله المتين معتصما بركنه الركين سالكاً لمحجته البيضاء وسبيله المبين ﴿ومن يعتصم بحبل الله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾.

أسأل الله أن يجعل أعيادنا كلها مقرونة بالأفراح والمسرات، ويبقيها دالة على العمل الصالح والسعي الناجح، ويديم الأواصر الواصلة بيننا وبينك وثيقة لا تنفصل ولا تنفصم، كما أسأله أن يدخلنا وإياك في زمرة المجاهدين الذين قال فيهم وهو أبلغ القائلين :

﴿والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾.

صدق الله العظيم. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني يقول :

المغرب متشبث بمذهب الإمام مالك وسيبقى متشبثاً به

بعد اختتام أشغال الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة، شرف أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني المشاركين في هذا الملتقى، باستقبالهم في قصر الرياض بعاصمة مملكته السعيدة، بحضور سمو ولي العهد الأمير الجليل سيدي محمد، وشقيقه الأمير السعيد مولاي رشيد وأعضاء الحكومة ومستشاري جلالته، وقد ألقى جلالته فيهم الخطاب التالي :

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه،

حضرات العلماء،

قبل كل شيء أريد أن أجلس أمامكم - وليس بدعة - على كرسي الاعتراف.

الاعتراف الأول : وهو ما حبانا الله سبحانه وتعالى به من شرف وفرح وسرور وغبطة حيث أنه قدر سبحانه وتعالى، لهذا البلد المسلم السني، أن يجتمع في رحابه، ولأول مرة في تاريخ الإسلام، المرشدون الناهون، الواعظون، العارفون بكتاب الله والحافظون لسنة رسوله ﷺ، والتابعون لما جاءت به جماعة المسلمين وما جاء به التابعون وتابعو التابعين.

الاعتراف الثاني : وهو لأول مرة، وبكل تواضع أحس بخجل لأنصب نفسي خطيبا أمام الخطباء. ولكن اسمحوا لي أن لا أسمي كلمتي هاته خطبة، بل سأسميها محاضرة، أو سأسميها مجموعة طريفة ومتواضعة من نظريات ملك تعلم ما تيسر وما وجب عليه أن يعلم حتى تمكن من أن يخدم بلده وشعبه وكافة المسلمين.

حضرات العلماء :

لقد تتبعنا باهتمام بالغ المواضيع التي تطرقت إليها ندوتكم، وليس لا في إمكاننا ولا في طموحنا أن نلم بجميع هذه المواضيع حتى نذكرها أمامكم واحدة تلو الأخرى. ولكن ارتأينا أن نأخذ منها باقة لنستخرج منها ما نعتبره الأهم، وما

نعتبره الضروري وما نعتبره المسلك والمنهج الذي يجب أن يبقى دائما العمود الفقري لنشاطكم في المجتمع الإسلامي.

من مشاكل المجتمع الإسلامي أن جميع المسلمين لا يعرفون اللغة العربية، وكان تدخلنا لدى المؤتمر الإسلامي بالدار البيضاء تدخلا ركزنا فيه على وجوب تعليم اللغة العربية وإعطائها ولو القليل من الحصص في المدارس الابتدائية والثانوية والعليا حتى يتمكن المسلمون من شيئين.

أولا : أن يخاطبوا الله سبحانه وتعالى سرا وعلانية في جميع أحوالهم.

وثانيا : حتى لا يخلقوا بالضرورة، طبقة من الناس تحول دونهم ودون عبادتهم اليومية وحتى لا يصبحوا يخلقون الرهبانية، تلك الرهبانية التي قال فيها النبي ﷺ ونفاها نفيا باتا لا في المكان ولا في الزمان : لا رهبانية في الإسلام...

وهذا الجانب فعلا جانب مهم وحيوي جدا، وعندي في هذا المضمار تجربة خاصة أريد أن أذكرها لكم لأن - ذكر الحبيب حبيب - وهي قصة واقعية وقعت لي مع والدي رحمة الله عليه طيلة سنتين، كان رحمة الله عليه يصلي الجمعة مع جماعة المسلمين الذين كانوا قلة في - أونتسيرابي - وكان أكثرهم هنودا وقُمَرِيين، وكان رحمة الله عليه يريد أن يعرف ما هي الخطبة التي سيلقيها الخطيب يوم الجمعة، علما منه أن الخطيب لا يعرف العربية، والخطيب الذي كان رجلا تقيا محترما جدا حيث أنه لم يكن يتقن اللغة العربية التجأ إلى المصنفات والكتب التي تتضمن خطبا لا تطابق في غالب الأحيان لا المناسبات ولا الأحداث ولكن اجتهد وأصاب حيث أن ذلك الخطيب، إن كان ميتا فرحمة الله عليه وإن كان على قيد الحياة أرجو له حياة طيبة له ولأهله - اجتهد فأصاب حيث أنه كان يخطب بالعربية ولو لم يكن يفهم العربية.

وهناك كان والدي رحمة الله عليه يطلب منه الخطبة كل يوم خميس في الصباح تكون مكتوبة باللغة العربية فيراها ويتصفحها وبعد ذلك ينادي علي فيقول لي. ترجمها إلى اللغة الفرنسية واطبعها على الآلة الكاتبة.

فهذه اليد التي ترجو رحمة الله وعونه وتسديده ترجمت لمدة سنتين وكل جمعة الخطبة التي كان يلقيها الخطيب بالعربية ترجمتها على قدر الاستطاعة إلى الفرنسية.

وحينما كنا نأتي المسجد وقبل الآذان ينادي والدي رحمة الله عليه واحدا من المصلين ممن كان يتقن الفرنسية أحسن من الآخرين. وكان يعطيه النص بالفرنسية ويقول له اقرأ ما سيقوله لكم الخطيب باللغة العربية. وإذا وقع لكم إشكال يمكن المذاكرة فيه من بعد. فكان المقرئ أو الراوي يقرأ الخطبة بالفرنسية، وبعد ذلك يؤذن المؤذن فيصعد الخطيب إلى المنبر ويصلي بنا.

هذا إن دل على شيء يدل على حصافة الرأي الذي أبديتموه في مؤتمركم والذي يتعلق بهذه النقطة الأساسية : أن المخاطب يوم الجمعة يجب أن يكون فاهما ومتفهما للخطبة.

وبهذه المناسبة سأتطرق إلى موضوع آخر له صلة بالشيء الذي ذكرت، ففي يوم من الأيام سألت والدي قلت له : ولماذا لا تخطب فيهم ؟ وكان رحمة الله عليه أعرف الناس بالرموز فقال :لست مقيما، يعني أن إقامته لم تكن إقامة اختيارية، بل كانت إقامة اجبارية، هذا تفسير متفق معه تمام الاتفاق فيما يخص الظرف الذي كنا نعيش فيه، وإذا كانت قضية الاقامة عندي شخصيا فيها نظر فالعلماء والمؤرخون يفسرون أن شرط الإقامة من شأنه أن يجعل الناس يتطلعون ويتعرفون على

ذلك الرجل الذي يصلي وراءه الناس والذي يفسر لهم كلام الله وسنة رسوله والذي والذي...

الآن الأحوال تغيرت فقبل أن يصلنا الخطيب نعرفه من رأسه إلى رجله جيدا، ونعرف حالته وأحواله. فأظن أن شرط الإقامة هو قبل كل شيء أن يتعرف هو على مشاكل القرية أو البلد الذي عليه أن يعظ الناس فيه. فمثلا إذا كان آتيا من المشرق وكان حنفي المذهب وجاء ليخطب في المغرب عليه أن يعلم قبل كل شيء أن المغرب مالكي وأنه يجب أن يتحاشى في خطبته الخلاف العالي الذي يمكن أن يؤدي إلى شيء ما من الانزعاج بالنسبة للمنصتين، والعكس كذلك إذا ذهب من عندنا خطيب مغربي عليه أن يتعرف على البلد وعلى المذهب وعلى المستحسنات حتى لا يكون هناك اصطدام بين المبلغ والمبلغ إليه. وإن كنت شخصيا أعتبر في هذا الباب ونظرا لتطور الأحداث وتطور المجتمع الإسلامي وترابط العالم الإسلامي بعضه ببعض شمالا وجنوبا وشرقا وغربا أن مسألة المذاهب أصبحت مسألة ثانوية لأن خطبة الجمعة اليوم يجب أن تتعدى العبادات، يجب أن تتعدى المعاملات. يجب على الخطباء أن ينظروا إلى مصير مجموعتهم في بلدهم وفي قارتهم وفي العالم الإسلامي.

فبالنسبة للمشاكل العليا التي تعترضنا، والتي تحكم علينا حكما صارما بأن ندلي برأينا، وبأن نقف موقفنا، وبأن نتخذ مسؤوليتنا في الرأي وفي الحكم، يجب على جميع المسلمين كيفما كانت مذاهبهم أن تكون وقفتهم واحدة أمام الخطر النووي. أمام خطر المخدرات... أمام الجوع. أمام عدم التكافل بين الأغنياء وبين الفقراء. يجب أن يكون نظرهم واحدا، فيما يخص الحوار الشمالي الجنوبي، عليهم أن يكون موقفهم موقفا واحدا بالنسبة للغزو الإيديولوجي الذي يحاول أن يفتت لا أعصابنا فقط بل هياكلنا.

وأعطيكم المثل... من كان يظن ولو قبل خمسين سنة أن انجلترا ستصل إلى ما وصلت إليه. في حديث عن النبي ﷺ أو كما قال : «لا تقوم الساعة حتى يخسف بطائفة من أمتي. قالوا... متى يا رسول الله... قال إذا لبسوا الحرير». أظن أننا نلبس الحرير جميعا ليست هذه مشكلة، واتخذوا القينات وتكافل الرجال بالرجال والنساء بالنساء - فمن كان يظن أن انجلترا اليوم تقنن - والمشروع موضوع أمام البرلمان - لأن يمكن للرجل أن يتزوج بالرجل وللمرأة بأن تتزوج بالمرأة - وهذه الأفكار والنبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، فالموبقات كثيرة ولم ذكر هذه ؟ المهم أنه ﷺ هل في يقظته أم في منامه... هل أسرى بجسده أو بروحه... المهم رأى ما رأى وعلم ما علم. ومن ثَمّ تخوف على مجتمعه وتخوف على البشرية كلها حيث أنه رسول رب العالمين لكافة العالمين.

فأظن إذن أن المذهبية هنا لا تمت بقرابة ولا بصلة إلا للمعاملات وللعبادات. فعلى كل واحد أن يتشبث بمذهبه، والمغرب ولله الحمد متشبث بمذهب الإمام مالك ويجب أن يبقى متشبثا به وسيبقى متشبثا به، حتى لايكون عرضة لتيارات دائما متقمصة قميص الإسلام وفي داخلها الدمار والضلال. ولكن أمام المشاكل الموضوعة أمامنا كدول وكأنظمة هنا لي اليقين أنه لو بعث الله سبحانه وتعالى الأئمة الأربعة لكانوا قالوا كلمة واحدة أمام المشاكل العالمية التي سردتها أمامكم. وفي هذا الميدان يمكن أن يقول الإنسان الكثير والكثير.

ولكن لنرجع إلى النطاق العادي للخطيب ألا وهو المدينة أو الإقليم، لأن الخطيب يمكن أن

يخطب يوما في هذا المسجد من إقليمه وفي مسجد آخر من إقليمـــه. على الخطيب إذا أراد أن يخرج عن طريق الوعظ والإرشاد وأن يتطرق إلى ما يعيشه يوميا أو أسبوعيا من مشاكل المجتمع أو المشاكل السياسية. وهنا أتكلم باسم المغرب لا أريد أن أسطو على دول أخرى، أنا أتكلم على المغرب مثلا : يجب على الخطيب أن يكون نزيها مترفعا كل الترفع عن السياسة السياسية المحترفة، وذلك لأن الخطيب حينما يكون فوق المنبر لا معارضة له. نحن نسمع هنا في المغرب حينما يروي الراوي الحديث يقول : «قال إمامنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت، ويزيد، وفي حديث آخر ـ ومن لغا فلا جمعة له ـ ففيما إذا لغا أحد المصلين فصلاته باطلة. وفضل صلاة الجمعة معروف عند الجميع. فمن ثَمّ ـ السيف ذو حدين ـ يجب على الخطيب أن يكون في خطبتـــه غير متحيز لجانب دون جانب وغير مثير لمشكلة حزبية أو مشكلة طائفية أو لمشكلة اختيار جماعة قروية اختيارا جبائيا مثلا دون اختيار آخر، وإلا فإن اللعبة لن تبقى جارية. والقواعد تكون قد انتهكت. أصبح الخطيب دكتاتوريا لا معارضة له. وقد وقع مرارا في مساجدنا قديما وحديثا وأخيرا وفي مساجد الدول الإسلامية أن بعض الناس عندما سمعوا من بعض الخطباء كلاما أغضبهم أو لم يشف غليلهم أو ظهر لهم كأنه كلام متحيز منقول عن صحيفة أو مذهبية أو إيديولوجية خرجوا وهم يقولون : «اللهم إن هذا منكر» ومنهم من أبطل صلاته.

من هنـــا نصل إلى نتيجـــة أخرى أن دور الخطيب يجب أن يكون دور المهدئ للأعصاب حينما يقرر بلد ما أن يختار نظام الحوار. الحوار الشرعي وأن يجعل من ذلك الحوار الشرعي والمشروع دستورا يتيح للجميع أن يبدي رأيه في إطار القانون والأمن العام. أصبح آنذاك في هذا المجتمع رواد وقواد فكريون عليهم كلما أضرمت نار أن يطفئوها بلباقة وعلم وحنكة وآيات من كتاب الله وأحاديث من سنة رسوله. فعلى الخطباء كذلك أن يكونوا على علم بالاختيارات المطروحة ـ باستثناء الاختيارات التي لا نزاع فيها بالطبع كالنظام المختار من لدن الدولة والشعب ـ التي أصبحت اختيارات تفرض نفسها نظرا للمجال الحر والمفتوح أمامها.

فعلى الخطباء إذن أن يكونوا عناصر للتهدئة وألا يكونوا عناصر لا أقول مباشرة ولكن لا يكونوا عناصر يروى عنهم ما يؤدي للفتنة. نية الخطباء عادة تكون دائما صالحة، ولكن هناك من يحرف الكلام ويحرف المعنى ويستبدل المفعول بالفاعل، ويصبح كلام ذلك الرجل الذي كان كلاما وسطا متعقلا كلاما يدفع الناس إلى ما لا تحمد عقباه.

أظن شخصيا ـ حضرات العلماء المحترمين ـ أنه ليس في إمكاني أن أقول أو أن أزيد في كلمتي هاته. لأن كل علم محدود، وعلمي في هذا الباب محدود جدا، حاولت أن أتطرق إليه من باب المواطن الذي يكون جالسا أمام المحراب ينصت إلى الخطيب. أن أتطرق إليه من زاوية المواطن الذي يرى في العالم وفي الخطيب المرشد والمصلح، ومن زاوية المسؤول مسؤولية أمير المؤمنين في هذا البلد الأمين لأعطي نظري وأشرح فكرتي ومذهبيتي. وبكل تواضع أن أدلي بنصيحتي.

ويجب أن يكون خطابي هذا مثل ما يستحسن من خطبكم. وهو أن يكون قصيرا وألا يكون طويلا حتى لا نكون فتانين لا في تراويحنا ولا في صلاتنا ولا في خطبنا. خير الكلام ما قل ودل.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يثيبنا كل واحد منا على قدر اجتهاده وحسن نيته وغيرته على ديننا. لأن ديننا ليس دينا فقط. ديننا دين وفضيلة وسلوك وتعايش وأخلاق ومثال. مثال التسامح والتساكن والرحمة والضيافة والأخذ بيد الضعيف. ولتجنب القهر والجبروت. علينا أن نبقى أولائك المسلمين كما أراد الله سبحانه وتعالى أن نبقى وكما علمنا نبيه ﷺ أن نبقى.

ومرة أخرى أريد أن أقول لكم : إنني أحس أكثر من غيري بهذه الحظوة التي حبانا بها الله في المغرب حيث إن أول اجتماع لكم كان هذا الاجتماع في بلدكم. وهو كجميع الأعمال بذرة، والبلد الصالح الطيب يؤتي أكله بإذن الله، والله يبارك لمن يشاء.

والسلام عليكم ورحمة الله.



أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني أثناء حفل استقبال المشاركين في الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة، يحف بجلالته خطيبا الحرمين الشريفين

برقية ولاء وإخلاص إلى أمير المومنين

رفع وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الأستاذ عبد الكبير العلوي المدغري، برقية ولاء وإخلاص إلى أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني - أيده الله ونصره - باسم المشاركين في الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة، وهذا نص البرقية.

مولاي صاحب الجلالة والمهابة أمد الله في عمركم وأجرى الأقدار بالتوفيق والنجاح لكل أعمالكم.

لقد شرفني أعضاء الملتقى العالمي لخطباء الجمعة بأن أرفع لمقامكم السامي البرقية التالية :

صاحب الجلالة، أمير المؤمنين، الحسن الثاني، حفظه الله.

نحن رؤساء وأعضاء وفود العالم الإسلامي المشاركة في الملتقى الأول لخطباء الجمعة المنعقد في مدينة فاس بمبادرة رائدة وتوجيه كريم من جلالتكم، نرفع إلى مقامكم السامي أجل آيات الشكر والتقدير على هذه المبادرة المغربية الفريدة التي تجسد طموحات الأمة الإسلامية لجمع كلمتها وتوحيد صفها ونبذ الخلافات بين أبنائها لتتحقق فيها معنى العظمة التي أرادها الله عز وجل من خلال قوله سبحانه وتعالى : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾.

ومما لاشك فيه أن خطبة الجمعة تبرز هذا المعنى الجليل الذي تطمح إليه مبادرتكم الخيرة الداعية إلى جمع شمل الإسلام واستعادة عظمته لتكون الأمة الإسلامية الوسط شاهدة على سائر أمم الأرض تحقيقا لقول الله عز وجل : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾.

يا صاحب الجلالة :

إنه مما يثلج صدورنا ويبعث الاعتزاز في نفوسنا تلك الإرادة الحكيمة والتسيير الواعي لجلسات هذا الملتقى المبارك استجابة لتوجيهاتكم السامية وتنفيذا لأمركم الكريم عناية بالمؤتمرين وتقديرا لخطباء الجمعة في العالم الإسلامي.

جلالة الملك المبجل:

إن جميع وفود العالم الإسلامي التي أمت بلدكم العظيم رأت فيه معلمة الإسلام خالدة تطاول الزمن، وتنطق بأن أمة الإسلام مازالت قادرة على استرجاع أمجادها باستشراف مستقبل باهر تتجلى فيه عظمة الإسلام وعالميته، وسيبقى هذا الملتقى شاهدا على دور جلالتكم العظيم في خدمة قضايا الأمة الإسلامية ورفعة شأنها وجمع كلمة أبنائها والذود عن حماها بحكمة وأمانة وتبصر.

وبمبادرة من جلالتكم العظيمة احتضن بلدكم العظيم المضياف أول مؤتمر عالمي عقده ملوك ورؤساء الدول الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها بعد إحراق المسجد الأقصى، وبتوفيق من الله وبما حباكم الله به من عبقرية فذة وحكمة بالغة وسديد في الرأي وغزير في العلم تم تأسيس لجنة القدس الشريف برئاستكم الواعية.

وها أنتم يا صاحب الجلالة توجتم جلائل أعمالكم وصالح مسعاكم بهذا اللقاء الفريد من نوعه في تاريخ أمتنا الإسلامية ليبقى مطبوعا في ذاكرة التاريخ، وعلماء الأمة شاهدون لكم بجزيل الذكر وكرم الضيافة وموفور العناية التي شملتم بها أعضاء الملتقى الإسلامي.

وإزاء ذلك كله فإن من واجب كل فرد منا نيابة عن الأمة الإسلامية أن يوجو لجلالتكم خالص الشكر وجميل الذكر على استضافتكم الكريمة لنا وأقر عينكم بولي عهدكم وجميع أفراد أسرتكم الكريمة وبشعبكم المغربي الأبي وأبقاكم ذخرا للإسلام والمسلمين، إنه سميع مجيب والسلام على مقامكم الكريم.

• الملتقى يوصي بجعل المسيرة الخضراء مثالا يحتذى

- دعوة الأمة الإسلامية إلى الاهتداء بهدي الإسلام وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام في جهادها المتواصل باعتماد جانب القوة الروحية المعنوية القائمة على سلاح الايمان والقرآن، كمنطلق اساسي لاسترجاع الحقوق المهضومة، والوصول الى المكتسبات المشروعة، على غرار ما قام به المغرب من المسيرة الخضراء القرآنية التي استكمل بها وحدته الترابية، وحرر بها صحراءه المغربية بقيادة أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله، وكانت مستمدة من فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة المكرمة.

• الملتقى ضد الكيانات المصطنعة

- يستنكر الملتقى محاولة خلق كيانات صغيرة مصطنعة في الوطن الاسلامي من شأنها أن تضعف قوة المسلمين وتنال من وحدتهم واعتصامهم بحبل الله المتين.

كلمة الافتتاح

للسيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
في الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة في العالم

بسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله أحمده كما ينبغي لكرم وجهه، وعز جلاله، وأستعينه استعانة من لا حول له ولا قوة إلا به، وأستهديه بهداه الذي لا يضل من أنعم به عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه.

- أصحاب المعالي الوزراء :
- أصحاب السعادة السفراء :
- السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم فاس :
- أصحاب الفضيلة العلماء والخطباء :
- ضيوفنا الكرام :

أحييكم بتحية الإسلام : السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد، فإنه لشرف عظيم وسعادة لبلدي المملكة المغربية أن تحتضن هذا الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة الذي ينعقد بمبادرة كريمة من أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني الذي ما فتئ حفظه الله يولي لهذه اللقاءات الإسلامية كامل عنايته ويشملها بسابغ رعايته.

وإنه لمن حسن الصدف وطالع اليمن وبشير الخير أن ينعقد هذا الملتقى الإسلامي الكبير والمغرب يحتفل من أقصاه إلى أقصاه بالذكرى السادسة والعشرين لتربع جلالته على عرش أسلافه المنعمين، هذا العرش الذي أسس على تقوى من الله ورضوان منذ عهد المولى إدريس الأكبر، واستمر قلعة من قلاع الإسلام، وحصنا حصينا من حصون الإيمان، ورباط فتوح وجهاد من أجل إعلاء كلمة الله، والذي سيبقى بإذن الله تعالى وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها متفانيا في خدمة الإسلام، ساعيا إلى جمع كلمة المسلمين، داعيا إلى العمل البناء المخلص الهادف إلى ما فيه قوتهم وعزتهم ومنعتهم وتقدمهم ومجدهم وازدهارهم.

- حضرات السادة الأفاضل :

إن خطبة الجمعة وسيلة من أهم الوسائل للدعوة إلى الله وشرح مكارم الإسلام ومحاسنه وإرشاد الناس إلى ما يصلح أحوالهم ويزكي أقوالهم وأفعالهم وينير السبل أمامهم بنور الكتاب المبين وهدي خاتم الأنبياء والمرسلين.

كما أنها أقوم سبيل لإصلاح المجتمعات وتقويم اعوجاجها والتنبيه على أدوائها ودوائها ونشر الفضيلة فيها وتركيز روح التكافل الاجتماعي والتضامن بين أفرادها.

وهي لقاء أسبوعي بين المؤمنين في رحاب بيوت الله يتزودون فيه بشحنة إيمانية وطاقة روحية، ويتخففون فيه من أعباء الحياة وصراعها وهمومها ومشاكلها بما يستمعون إليه من توجيه يثبت الإقدام ويصحح العزائم وينهض الهمم وينير البصائر.

وهي بعد ذلك مناسبة وفرصة لتلقين الأحكام الشرعية ونشر الأحاديث النبوية الصحيحة واستعراض نماذج القدوة في بناء الإنسان من سيرة الرسول ﷺ والسلف

الصالح من أمته، واستخلاص الدروس والعبر من تاريخ الإسلام وسيرة الرسل والأنبياء عليهم السلام.

ولما كانت لخطبة الجمعة هذه المكانة ولمفعولها هذه الخطورة كان من اللازم أن يقع الاهتمام بها فيجتمع أهلها لتدارس أمرها وأحوالها، وينكب العلماء على بحث مناهجها وطرائقها وأساليبها، واستعراض تاريخها واستجلاء مستقبلها، والتعمق في فهم كيفية تأثرها بالمجتمع وتأثيرها فيه، واستمدادها من التراث وإمدادها للفكر والروح بالغذاء الملائم، والنظر في شروط القائمين عليها وما ينبغي أن يسلكوه من المسالك في هذا الظرف العصيب الذي تجتازه الأمة الإسلامية، وما ينبغي أن يجتنبوه من المزالق حتى لا تتقاذفهم رياح الأغراض والمصالح.

ولقد بذلت جهود كثيرة في هذا المجال، ولكنها كانت جهودا فردية مشتتة تجلت في عدة تآليف وأبحاث ودراسات قام بها أفراد وجهات مختلفة، ونحن نريد بهذا الملتقى أن نحقق نقلة في مسيرة هذا العمل المبارك تنقله من العمل الفردي المبعثر إلى العمل الجماعي المنظم، وتخرج به من إطار الإقليمية والجهوية إلى الشمولية العالمية التي يلتقي فيها خطيب المملكة المغربية بخطيب الاتحاد السوفياتي، وخطيب غينيا بخطيب الولايات المتحدة الأمريكية، وخطيب الخليج بخطيب الصين الشعبية، وهكذا، ولاشك في أن ماستهم به مختلف الوفود من أبحاث ودراسات وعروض سيكون له أثره الفعال ومردوده الإيجابي إن شاء الله.

- حضرات السادة الأفاضل :

لقد أصبحت مهمة خطيب الجمعة صعبة ودقيقة في هذه الظروف التي تجتازها المجتمعات الإسلامية، فالصراعات الداخلية والتيارات المختلفة التي تهز مجتمعاتنا، وتقلبات الأفراد والجماعات داخل خضم الإيديولوجيات والمذاهب والأفكار المتضاربة، بالإضافة إلى ما طرأ من بوادر الصحوة الإسلامية واختلاطها بالتطرف الديني، وظهور جيل جديد من الدعاة المتسيين : كل ذلك جعل خطيب الجمعة يعاني حرجا شديدا كلما ارتقى المنبر لإلقاء خطبته.

ولقد مرت الأمة الإسلامية خلال تاريخها الطويل بظروف وأحوال أشد حرجا وأكثر حساسية، ولكن الخطيب كان يمارس مهمته رغم ذلك كله بنوع من الاطمئنان وراحة البال.

ولعل السبب في ذلك أن مجتمعنا الإسلامي كان يضع خطيب الجمعة في المكان الذي حدده له الشرع.

ذلك أن خطيب الجمعة في الإسلام هو نائب عن الإمام أمير المؤمنين الذي يخلف رسول الله ﷺ في هداية المسلمين وإرشادهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر والذي هو خطيب الجمعة الأول ﷺ.

ومن ثم كان الاتجاه الذي يسير فيه الخطيب واضحا، والطريق بينا، فهو بحكم نيابته عن أمير المؤمنين لابد أن يسير على أثره لا يخالفه ولا يعارضه، بل يؤلف القلوب حول دولته ويغرس حبها في النفوس وينوه بأعمالها الخيرة ويلتمس الأعذار وينبه التنبيه اللطيف الخفيف إذا وقع خطأ أو إهمال، وفي نفس الوقت يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون أن يدعو إلى فتنة أو يسلك مسالك التهييج وتحريك مشاعر الناس ودفعهم إلى السخط على أحوالهم والضيق بحكامهم والاستسلام إلى الحمية والحماس حتى يقع ما يعد ضرره أكبر من نفعه وشره أكثر من خيره.

ولقد كانت خطبة الجمعة في هذا النظام الإسلامي المتكامل أداة بناء لا أداة هدم، ووسيلة جمع للكلمة وتوحيد للصفوف وعنصرا من عناصر استتباب الأمن والاستقرار واستمرار الهناء والاطمئنان، ولجاما يلجم كل طائش متنطع أو طامع متطلع أو صاحب فتنة أو صاحب بدعة وضلالة.

وعندما وقع التفريط في هذا النظام الإسلامي في بعض البلدان الإسلامية أصبح خطيب الجمعة لا ينوب عن رئيس الدولة، وأصبح المسجد لا يخدم أهداف الدولة، والدولة لا تخدم أهداف المسجد، ودخل على المجتمعات الإسلامية من ذلك شر كثير.



وزير الأوقاف يترأس حفلة الافتتاح، وعلى يمينه وزير الحج والأوقاف السعودي ووزير الشؤون الدينية الغيني وخطيب المسجد الحرام بمكة المكرمة. وعلى يساره الأمين العام للمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، وخطيب المسجد النبوي بالمدينة المنورة. والسيد الكاتب العام لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

ـ حضرات السادة الأفاضل :

إن من أعظم الآفاق التي قد تصيب بعض الدعاة والخطباء آفة الافتتان بالجمهور. ذلك أن خطيب الجمعة قد يمتحنه الله تعالى بحب الرياء والسمعة، ويصيبه العجب بكثرة ما يسمع من الثناء على غيرته الدينية وحميته الإسلامية وحماسته وقوته وصلابته وشدته، فيندفع اندفاعا أهوج ويسلك الطريق الأعوج، ويبالغ في الانتقاد مبالغة زائدة على الحد، وهذا فيه ما فيه من إغراء الجمهور واشتهار الخطيب حتى أصبح بعضهم في بعض البلدان كمشاهير النجوم يزدحم الجمهور في مساجدهم ويحيطهم بالمئين من آلات التسجيل، وتباع شرائط خطبهم في الأزقة والدروب، وتنقلب الحال إلى عملية تجارية ومنافسة في السوق الداخلية والخارجية، وهذه ظاهرة جديرة بالدراسة من الناحية الشرعية حتى لا تتحول خطبة الجمعة إلى سلعة تباع في الأسواق.

وإلى جانب هؤلاء : هناك خطباء أفرغوا الخطبة من محتواها وجعلوها باردة لا دفء فيها، فلم يبق في مساجدهم من خطبة الجمعة إلا رسمها، فنفر الناس منها فلا يستمعون إليها إلا لكونها لابد أن تلقى عليهم.

وبين هؤلاء وهؤلاء ضاعت الفائدة المرجوة من خطبة الجمعة في كثير من المساجد، وإننا لنرجو أن يوفق هذا المؤتمر إلى تدارك هذا الأمر وإعطاء التوجيه الصحيح لجميع خطباء الجمعة في العالم، وأن تنبثق عنه لجنة أو منظمة دائمة للنظر في أحوال الخطبة والخطباء، وتصحيح المسار ووضع معالم واضحة في الطريق، حتى نبلغ بالخطبة ما نريده لها من المستوى الرفيع.

إننا نريد لخطبة الجمعة أن تكون استمرارا لمنهج الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين والسلف الصالح من خطباء هذه الأمة، تطبعها تقوى الله تعالى وتهيمن عليها مراقبة وجهه الكريم، ويشع منها الصدق والإخلاص، وتعبر عن ذلك الضمير الديني النقي الذي يفيض رقراقا من منبع الكتاب والسنة.

نريدها صوتا يوقظ الأمة من سباتها، ويفجر فيها طاقة العمل والإنتاج والخلق والإبداع، ويحثها على المنافسة الشريفة النزيهة في حلبة المدنية والحضارة والتقدم العلمي.

نريدها لسانا يغرس في الأمة ثقتها في نفسها، ويبشرها بمستقبلها، ويشعرها بالرضا والاطمئنان ويركب بها الجواد السبّاق الإيجابي.

نريدها خطبة حية نشيطة خفيفة على النفس والقلب، فيها روح الشباب وحكمة الشيوخ ورائحة الجنة وشيء قليل جدا من لهيب جهنم. **﴿وإذا جاءك الذين يومنون بآياتنا فقل سلام عليكم. كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم﴾.**

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم﴾.

نريدها خطبة يفهمها الأميون ويدرك معانيها الأطفال والنساء والعجزة، ويستفيد منها الصانع والفلاح والأجير ورب العمل، وينتفع بها من لا يفهم اللغة العربية انتفاع من يفهمها، ويستطيب الاستماع إليها شبابنا الذي تثقف ثقافة غربية أو تغلب في فكره جانب العلوم التكنولوجية والتجريبية، وذلك بمواكبتها للعصر ومسايرتها لركب التقدم والتطور.

- حضرات السادة الأفاضل :

إن هذا اليوم لا كالأيام، اجتمع فيه خطباء الجمعة من جميع أنحاء الدنيا وفي مقدمتهم خطيبا الحرمين الشريفين مكة والمدينة وخطيب أولى القبلتين وثالث الحرمين القدس الشريف، بدعوة من حفيد رسول الله ﷺ أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني، وإنني مهما عبرت عن البهجة والسرور والفرح والحبور والاعتزاز والافتخار فلن أبلغ مما أحس به شيئا قليلا ولا كثيرا، وفي هذا الموقف يكتفي المؤمن بحمد الله تعالى الذي قدر فهدى، وأعان ووفق ويسر، نحمده حمدا يليق بجلاله عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشة ومداد كلماته، ونسأله سبحانه وتعالى أن يتمم علينا نعمته فيوفق هذا الملتقى الفريد من نوعه، ويبارك في أعماله حتى يحقق الآمال المعلقة عليه، ويكون فاتحة خير وبشير يمن لجمع كلمة المسلمين على كتابه المبين وسنة رسوله الأمين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

وإن مما يزيد في سعادتنا واعتزازنا أن يولي بعض ملوك ورؤساء الدول الإسلامية هذا الملتقى ما هو أهل له من عنايتهم وكريم رعايتهم فيوفدوا وزراءهم في الأوقاف والشؤون الإسلامية لحضوره بمبادرة كريمة منهم، جزاهم الله أحسن الجزاء.

وبهذه المناسبة أرحب بأخي وزميلي وزير الحج والأوقاف بالمملكة العربية السعودية العلامة الشيخ أحمد عبد الوهاب عبد الواسع، كما أرحب بأخي وزميلي وزير الشؤون الدينية بجمهورية غينيا الأستاذ العالم الشاعر عبد الرحمن باه، وأؤكد لهم أن المؤتمر يعتز بالغ الاعتزاز بحضورهم.

كما أنني أرحب بجميع الضيوف الأكارم، وأشكرهم بالغ الشكر على تفضلهم بقبول دعوتنا وتكرمهم بزيارة هذا البلد الذي هو بلدهم والمشاركة في هذا الملتقى الإسلامي الكبير الذي نسأل الله تعالى أن يكلل أعماله بالنجاح.

اللهم أنت الحميد الرب المجيد الفعال لما تريد قد أوجبت كون ما أردته فينا ومنا ولا نسألك دفع ما تريد، ولكن نسألك التأييد بروح من عندك في ما تريد، كما أيدت أنبياءك ورسلك وخاصة الصديقين من خلقك، إنك على كل شيء قدير.

كلمة الاختتام

للسيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

بعد خمسة أيام متوالية من المداولة والبحث والنقاش والدراسة أقيم حفل لاختتام الملتقى تلا خلاله المقرر العام الأستاذ أحمد أفزاز نص البيان العام والتوصيات التي أعدتها اللجان المتفرعة عن الملتقى، وبعد الموافقة عليها ألقى وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية كلمة الاختتام.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

□ □ □

- أصحاب الفضيلة الخطباء :
- خطيب الحرم المكي الشريف.
- خطيب الحرم المدني الشريف.
- خطيب المسجد الأقصى الشريف.
- خطيب جامع القرويين العريق.
- أصحاب الفضيلة الخطباء والسادة العلماء الأجلاء :
- السيد ممثل عامل صاحب الجلالة على إقليم فاس.
- السيد رئيس المجلس البلدي لإقليم فاس.
- السيد رئيس المجلس العلمي الإقليمي بفاس.

☆ ☆ ☆

جرت العادة أن يتناول رئيس المؤتمر الكلمة في الختام ولكنني لست رئيسا وإنما أنا خادم لهذا المؤتمر الذي جمع أقطاب العلماء ونخبة الخطباء وصفوة الأصفياء وورثة الأنبياء.

وإنني أشكر الله الذي جعلني في خدمتهم وأكرمني بصحبتهم وفقني في تحمل أمانة تسيير مؤتمرهم وتنظيم أعماله. على أنني لم أكن وحيدا في هذا الأمر وإنما كانت معي جماعة من الرجال المخلصين الذين لولاهم لما كان لعملي أثر أو ظهر لـه خبر وهم أطر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وفي مقدمتهم الكاتب العام للوزارة وللمؤتمر الأستاذ الحاج محمد المرابط الذين أستسمحكم في تقديم آيات الشكر لهم والتقدير لجهودهم والتنويه بأعمالهم.

كما أشكر طاقم الترجمة ومندوبي الإذاعة والتلفزة المغربية الذين قاموا بتغطية كاملة للمؤتمر وأشكر السلطة المحلية وعلى رأسها سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم فاس مولاي المهدي العلوي الأمراني والمجلس البلدي لمدينة فاس وعلى رأسه الدكتور الفلالي ووزارة السياحة

ووزارة البريد والمواصلات من أعان أو أسهم في نجاح هذا المؤتمر.

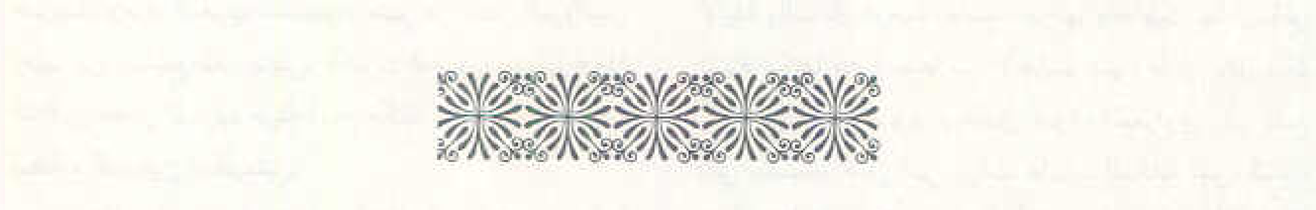
وأما خلاصة الشكر وجوهر الثناء فأرفعه بعد الله تعالى إلى أمير المؤمنين المحفوظ بالسبع المثاني مولانا الحسن الثاني الذي أسأل الله تعالى أن ينصره نصراً عزيزا مؤزرا تعلو به راية الإسلام وينتظم به أمر الخاص والعام وأن يجعله قبسا من نور جده ﷺ يكشف الظلمات ونبراسا من سراج المصطفى ينير المدلهمات وأن يعينه ويأخذ بيده في جهوده الهادفة إلى جمع كلمة المسلمين وأعماله الخيرة الرامية إلى تجديد أمر هذا الدين فإنه ولله الحمد لا يدخر جهدا في سبيل إعلاء كلمة الله وخدمة دينه.

وهذا الملتقى العظيم شاهد صدق على ذلك وهو الذي دعا إليه وأشرف عليه وأحاطه بما يستحق من عنايته ورعايته حتى تم بحمد الله على الوجه الذي يرضي الله ورسوله. كما نسأل الله تعالى أن يوفق جميع ملوك ورؤساء المسلمين ويوحد كلمتهم وينصر ألويتهم ويهزم أعداءهم ويحقق على أيديهم كل خير لهذه الأمة الإسلامية.

ـ حضرات السادة الأكارم :

إن أعمال البشر لا تخلو من نقص وتقصير والكمال لله وحده، فمعذرة إن قصرنا في خدمتكم أو تساهلنا في شيء من حقوقكم علينا، والرجاء أن تنظروا إلى أعمالنا بعين الفضل لا بعين العدل. وحسبكم أن مؤتمركم أثمر ثماره الطيبة وأعطى نتائجه المرجوة وحقق الآمال المعلقة عليه وأدى الأمانة الموكولة إليه، وما ذلك إلا بفضل الله تعالى الحنان المنان الكريم الوهاب وبتوفيق منه سبحانه وبفضل إيمانكم وصبركم وإخلاصكم.

أدام الله علينا نعمة وجودكم وأسعدنا بطول بقائكم ولا جعله الله آخر العهد بكم، والسلام عليكم ورحمة الله.



الحركة العلمية بالمغرب أيام دولة مغراوة

للأستاذ محمد الفاسي

قامت بعد دولة الأدارسة بفاس دولة هي باسم العصابة أولى، لما كان لملوكها من حب سفك الدماء والتخريب، وتلك دولة مكناسة التي أسسها موسى ابن أبي العافية، ولم يحفظ التاريخ لأحد منهم مأثرة تذكر، بل كانوا سببا في إيقاف حركة النهضة وانتشار الحضارة العربية، وزاد في هذا التدهور ما قام في المغرب من الفتن بسبب تطاحن الدولتين المروانية بالأندلس والعبيدية بإفريقية على المغرب الأقصى، إذ كانت كل واحدة منهما تحاول الاستيلاء على المغرب، وتوجه الجيوش إثر الجيوش وكل يعضد حزبا، وأمراء المغرب منقسمون منهم من ينصر المروانيين ومنهم من يتشيع للعبيديين، فكثرت الحروب بسبب هذا التنافس وصار المغرب طيلة أيام مكناسة ميدانا فسيحا لمطامع الدولتين العظيمتين.

وخلف بني موسى بن أبي العافية بالمغرب دولتا مغراوة وبني يفرن الزناتيتان. كان التغلب تارة لهذه وتارة لتلك، إلا أن أيام المغراوة بفاس كانت أكثر استتبابا ولو أن الظروف كانت واتية بقيت لهم آثار جليلة، إذ كانوا على خلاف المكناسيين أصحاب عقول راجحة، فكان حمامة المغراوي مثلا وهو ابن المعز بن عطية من أكابر ملوكهم، ولي بعد وفاة ابن عمه المعز بن زيري بن عطية سنة سبع عشرة وأربعمائة فقام بأعباء الملك خير قيام ووحد الكلمة، ويذكر المؤرخون أن الوفود كانت تقصده من الأمراء والعلماء وأن الشعراء كانوا يمدحونه إلا أن التاريخ لم يحفظ لنا اسم شاعر واحد منهم بالأقل فيما وقفت عليه. وكان دوناس ولده وقد بويع بعد وفاته سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة (على الخلاف المعروف) ملكا جليلا انتشر الأمن في أيامه وقد دامت إمارته إحدى وعشرين سنة إلى وفاته سنة اثنتين وخمسين أربعمائة، وعظمت فاس أيام إمارته وكثرت خيراتها وبني بها المساجد الكثيرة والحمامات الأنيقة والفنادق الرحبة. فاتسع عمرانها وأحاطت بها أرباض كثيرة سكنها من قصدها من الأجانب عنها. فأدار بكل ذلك الأمير دوناس السور. وبفضل هؤلاء المغراويين لم تضع فاس ـ بسبب الفتن التي توالت عليها ـ المكانة التي كانت حصلت عليها منذ تأسيسها، بل أن مميزاتها كحضارة البلاد المغربية زادت تمكنا وزاد إقبال طلبة المغرب الأقصى على علمائها. وإن كان التاريخ لم يحفظ لنا أسماء أدباء هذه الدولة ـ فلا نعرف أحدا من وزرائها ولا من كتابها ولا من شعرائها سوى شاعر واحد ذكره صاحب كتاب بيوتات فاس في القديم عند كلامه على بيت بني حنين بفتح الحاء وتسكين النون كما ضبطه قال : «ومنهم الفقيه الشاعر أبو

الطبيب سعد بن حنين توفي بفاس سنة ثلاث وستين وأربعمائة ودفن بداره».

ـ نقول إذا كان التاريخ لم يحفظ لنا أسماء أدبائها فقد حافظ لنا على ترجمة أحد علمائها الفقهاء كان له صيت كبير في العالم الإسلامي وهو أبو عمران الفاسي، وعلى تراجم أو أسماء عدة من قضاتها وعلمائها المدرسين.

أما الأول فسنتكلم عنه بعد حين لأنه الحلقة التي تربط عصر المغراويين بعصر المرابطين، وأما القضاة فمنهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن محسود الهواري كان قاضيا بفاس أيام الأمير دوناس وتوفي سنة إحدى وأربعمائة فخلفه أبو عبد الله محمد بن أبي شعيب وقد طالت مدة قضائه.

ومنهم عبد الملك ابن الودون. كان قاضيا في أول دولة مغراوة وهو من بني الودون الزاوغين وهم الذين كانوا يملكون مع أبناء عمهم بني الخير موضع فاس الأندلس فاشتراه منهم المولى إدريس رضي الله عنه. وولي أيضا القضاء ابنه أبو عبد الله محمد بن عبد الملك ابن الودون وقد ذكرهما صاحب كتاب بيوتات فاس في القديم، ونسب لابن عبد الملك هذا كتابا سماه **تاريخ الأدارسة**. ولو كان هذا المؤلف بقي محفوظا لكنا اطلعنا على كثير من الأخبار المتعلقة بالحركة العلمية والأدبية أيام الأدارسة.

ومن قضاة فاس على عهد الدولة المغراوية أبو عبد الله محمد بن إدريس من بني دجانة البرابرة. كان مفتيا مدرسا وبيته بيت علم من بيوتات فاس القديمة التي انقرضت قبل القرن الثامن.

ومنهم بنو الولي المغراويون أبناء عم ملوك مغراوة كان منهم بفاس أيام الدولة المغراوية قاضي القضاة وقال صاحب كتاب بيوتات فاس في القديم : «وسبعة قضاة منهم في سائر بلاد المغرب في دولتهم في زمان واحد». وهذا ما يدل على أن الدولة المغراوية لم تكن تكتفي بتشجيع الإقبال على العلم بل كان أفرادها يقبلون على تعاطيه حتى أمكن أن ينبغ منهم في وقت واحد ثمانية قضاة من بينهم قاضي القضاة بالحاضرة الشيء الذي لم ير في عصور المغرب إلا لعائلات قليلة كانت لا تشتغل إلا بالعلم ونبغ فيها مثل هذا العدد من العلماء المدرسين والمؤلفين في زمان واحد.

ومن العلماء الفقهاء المدرسين الذين كانوا أيام الدولة المغراوية عبد الرحيم بن عزوز. كان عالما مدرسا مفتيا بفاس وهو من بيت علم من البربر كان مشهورا في القديم.

ومنهم يوسف بن عيسى بن الملجوم. كان من أهل الفتوى والشورى، قال صاحب بيوتات فاس في القديم : وهو الذي استفتاه أمير المومنين (كذا) يوسف بن تاشفين اللمتوني لما أراد الجواز إلى الأندلس».

ومنهم عبد المومن بن العجوز. كان أيضا من الفقهاء المدرسين من بيت علم أيضا توفي سنة سبع عشرة وأربعمائة.

وأما أبو عمران الفاسي فهو أشهر علماء الفقه المالكي في المغرب الأقصى وإفريقية بعد أبي ميمونة دراس بن إسماعيل الفاسي المتوفى بفاس سنة اثنتين وستين وثلاثمائة على أحد القولين أيام الفتن التي تقدمت استيلاء مغراوة على ملك المغرب. وهو أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي عرف بأبي عمران الفاسي. ولد بفاس في النصف الثاني من القرن الرابع. وبنو غفجوم الذين ينتسب إليهم برابرة وهم فخذ من زناتة. وكانت عائلته المنقرضة الآن من أكبر بيوتات فاس في القديم وإليها ينسب الزقاق الذي لازال يسمى إلى الآن «درب أبو حاج» بفاس.

درس أبو عمران بفاس وربما أدرك أبا ميمونة وأخذ يقينا عن تلاميذه. وأبو ميمونة دراس بن إسماعيل هو أول من أدخل مدونة الإمام سحنون مدينة فاس، وهو الذي نشر مذهب الإمام مالك رضي الله عنه بالمغرب إذ كان الغالب على أهل المغرب قبله اتباع مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه.

ثم رحل أبو عمران في طلب العلم فدخل الأندلس ودرس بقرطبة على الإمام الأصيلي وغيره، ثم قصد القيروان فأخذ عن أعلامها وارتحل إلى المشرق ودخل بغداد وقرأ على مشاهيرها، ثم رجع إلى المغرب واستقر أخيرا بالقيروان فاشتهر فيها بالعلم والفضل وصارت إليه الرحلة في الحديث والفقه. فكان يقصده الطلبة من المغرب الأقصى لاتباع دروسه. ومن قصد الحج من أفاضل المغرب يمر بالقيروان لزيارته. فكان ممن قصده في إحدى السنين الأمير يحيى بن عمر بن إبراهيم اللمتوني مع جماعة من أهل قبيلته. فطلب منه أن يرسل معه أحد تلاميذه ليفقه قومه في الدين لأنهم كانوا في الجهالة يعمهون. فلم يرد أحد من تلامذة الشيخ أن يذهب إلى صحاري لمتونة لصعوبة تلك البلاد فأشار أبو عمران على الأمير يحيى بن عمر بن إبراهيم أن يقصد الفقيه وكَّاكَ بن زلوا اللمطي من أهل سوس الأقصى بمدينة نفيس وقد كان قرأ عليه بفاس قبل ارتحاله عنها. وأعطاه هذه الرسالة التي حافظ لنا عليها المؤرخون ونصها :

«سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد، إذا وصلك حامل كتابي هذا وهو يحيى بن إبراهيم كَدالي فابعث معه إلى بلده من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في دينهم ولك وله في ذلك الثواب والأجر العظيم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا والسلام».

فكان الشخص الذي وقع عليه اختيار الفقيه وكَّاكَ بن زلوا هو عبد الله بن ياسين مهدي المرابطين على حد تعبير أحد المؤرخين.

وتوفي أبو عمران الفاسي بالقيروان سنة ثلاثين وأربعمائة وقد ألف تآليف في الفقه وغيره منها فهرسة ولكن لم يصلنا شيء من ذلك. وضريحه بالقيروان معروف إلى الآن ومزارته مقصودة، وقد زرته وهو في زقاق يعرف باسمه منذ أكثر من ألف سنة كما هو الشأن بفاس.

يظهر من هذه النظرة الوجيزة التي ألقيناها على عصر الفترة وهو العصر الذي يقع بين أيام الأدارسة وابتداء الدولة المرابطية أن المغرب أيام الدولة المغراوية أقبل بكليته على الفقه وعلى الفقه المالكي بالخصوص ونبذ غيره. وفي هذا العدد الجم من الفقهاء والقضاة الذين حافظ لنا التاريخ على تراجمهم أو على مجرد أسمائهم دليل على ذلك، خصوصا إذا لاحظنا أنه في الوقت نفسه لم يحفظ لنا التاريخ شيئا عن الحياة الأدبية المحضة في ذلك الزمان وهو متأخر عن عصر الأدارسة الذي أمكننا أن نعرف عنه الشيء الكثير من هذه الناحية.

وهذه الملاحظة تعيننا على تفهم أحوال العصر المرابطي إذ كل «يعلم أن المرابطين كان اهتمامهم الوحيد فيما يرجع لشؤون الثقافة بالفقه المالكي وبالفروع بوجه خاص. فيكون من أسباب هذا الإقبال العجيب من لدى ملوك لمتونة على الفقه أولا : كون زعيم حركتهم الأول كان فقيها وهو عبد الله بن ياسين الذي قام بالدعوة الإسلامية في قبائل لمتونة أولا ثم في كل بلاد المغرب ثانيا فحارب البرغواطيين ووحد كلمة الدين إلى أن لاقى ربه شهيدا بالمحل المسمى كريفلة إلى الآن وهو يبعد عن الرباط باثنين وأربعين كيلومترا في الطريق القاصدة إلى الرماني وبه قبره وكانت وفاته سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (451).

ثم ثانيا : لأنهم وجدوا أهل المغرب مقبلين على الفقه معظمين أهله لا يصدرون إلا عن رأيهم. فقرر ذلك المرابطون وأعانوا عليه. فنفقت سوق الفقه في أيامهم وصارت للفقهاء المكانة الأولى في الدولة. وهذه أوضح ميزة للعصر المرابطي وقد كان لهذا الإقبال على الفقه الأثر العميق في المغرب إذ من ذلك العصر اصطبغت الثقافة المغربية بهذه الصبغة الفقهية التي لم تفارقها إلى يومنا هذا حتى أننا نراها بارزة واضحة في آثار أدباء أزهى العصور الأدبية بالمغرب وهو العصر المريني.

وقائع أندلسية

في نوازل القاضي عياض

للدكتور محمد بنشريفة

ـ يؤلف التراث الفقهي قسماً كبيراً في التراث الثقافي بالغرب الإسلامي، ويشغل حيزا مهما في المكتبة المغربية.

وإن كثرة هذا التراث، وتداوله الشائع، وانتشاره الواسع، لدليل على عناية الأندلسيين والمغاربة بالفقه، واهتمامهم الخاص به، وفي نظري أن هذه العناية تعكس نزعة عملية، وسمة واقعية ـ هما في الغالب ـ من مميزات الذهنية الأندلسية والمغربية.

وذلك لأن الفقه ـ سواء فيه العبادات أو المعاملات ـ كان شديد الارتباط بوقائعهم الجارية، ومشكلاتهم الناشئة، وأقضيتهم الطارئة، وباختصار فقد كان الفقه مدار حياتهم اليومية.

وقد نهض الأندلسيون والمغاربة بالفقه المالكي، منذ أن اختاروه مذهبا رسميا لهم، حتى إن جل ما أُلف في فقه هذا المذهب هو من وضعهم؛ من مدونة سحنون إلى مدونة الأحوال الشخصية المغربية، وقد كانت مدونة سحنون، على كبرها وكثرة مسائلها، من محفوظات فقهاء الأندلس والمغرب؛

وما أكثر الفقهاء الذين يذكر في كتب التراجم أنهم كانوا يحفظونها عن ظهر قلب، واكتفي منهم ـ على سبيل المثال ـ بأبي الأصبغ عيسى بن سهل وأبي المطرف الشعبي وأبي الحسن الصغير وأبي الحسن علي بن عشرين، ولهذا الأخير مع المدونة قصة طريفة. ذلك أنه لما أحرق، الموحدون المدونة، وجاءت دولة المرينيين، كتب فقهاء فاس المدونة من حفظ أبي الحسن ابن عشرين هذا، ثم أرسلوا إلى الأندلس من أتاهم بنسخ منها، ولما قابلوها مع نسختهم لم يجدوا خلافا إلا في فاء أو واو. ومثل المدونة في هذا غيرها من أمهات كتب المذهب كالواضحة والعُتْبية والموازية وغيرها.

ولقد كثرت مؤلفات الفقه المالكي في الأندلس والمغرب كثرة بلغت حدّ التراكم، ما بين مطولات، ومختصرات، وبعض هذه المؤلفات تشبه أن تكون موسوعات فقهية، مثل المعيار المعرب للونشريسي، والبيان والتحصيل لابن رشد اللذين نشرا في المدة الأخيرة.

وكان الأندلسيون والمغاربة هم أول من استعمل النظم التعليمي في الفقه بحفظه وتقريبه من الدّارسين، بتحفة ابن عاصم ولامية الزقاق وغيرهما من المتون الفقهية التي كانت من محفوظات طلبة التعليم الأصيل في جيلنا.

وثمة فروع في الفقه برز الأندلسيون والمغاربة فيها، وكتبوا فيها عشرات أو مآت المؤلفات، وذلك شأن الفرائض

والمواريث، ويكفي أن أشير إلى أن فقيها أندلسيا هو أحمد الحوفي الإشبيلي ألف تصانيف متنوعة في هذا الفرع، منها الكبير ومنها المتوسط، ومنها الصغير، وقد ابتكر جداول عجيبة، حصر فيها حالات الوارثين، كما أن فقهاء آخرين نظموا في هذا الفرع أراجيز متعددة، كرجز الشران، ورجز أبي إسحاق التلمساني، ورجز أبي بكر بن جزي، ورجز صالح بن شريف الرندي الشاعر المعروف وغيرها.

ومثل كتب الشروط والوثائق، ومن أقدمها وأشهرها وثائق ابن العطار الذي اعتنى بتحقيقه ونشره الأستاذان شالميتا وكورينتي، ووثائق ابن أبي زمنين، والبونتي، وابن مغيث، والجزيري، والمتيطي والأقليشي، وابن الهندي، وابن كوثر، وابن عفيون، والقنطري وابن سلمون وغيرهم.

ومثل كتب الحسبة والسوق ولفقهاء الغرب الإسلامي فيها سلسلة طويلة متصلة الحلقات، من يوسف بن عمر، إلى يومنا هذا، وقد بلغوا مبلغا عاليا ودرجة كبيرة في دقة التقنين والتشريع.

وكان من تجذر تقاليد الحسبة وتأصل نظمها في الأندلس الإسلامية، أنها استمرت مؤثرة في الحياة الإسبانية، كما كشف عن ذلك الأستاذ الدكتور شالميتا في أطروحته الهائلة : صاحب السوق : ومن هذه الفروع أوضاعهم النظمية والنثرية؛ فيما جرى به العمل في قرطبة أو في فاس.

وثمة فرع آخر برز فيه الفقهاء الأندلسيون والمغاربة وهو «النوازل» التي تدعى كتبها أيضا بكتب «الفتاوي» وكتب «الأحكام» وكتب «المسائل»...

وقد استمر الأندلسيون يؤلفون في هذا الفرع إلى سقوط مملكة غرناطة، ولعل نوازل «ابن طرْكاط» هي آخر مجموع وصل إلينا من تراث «النوازل» الأندلسي الضخم.

أما في المغرب فلدينا قائمة يصعب حصرها، وهي تمتد من أقدم كتاب ألف في أوئل القرن السادس، إلى أشهر كتاب ألف في عصرنا، وهو نوازل سيدي المهدي الوزاني المطبوع على الحجر ويدعى «بالمعيار الصغير» تمييزا له من «المعيار الكبير» للونشريسي.

وإلى هذا النوع الأخير ينتمي كتاب «**مذاهب الحكام، في نوازل الأحكام**» وأصله بطائق أو جذاذات للقاضي عياض السبتي، جمعها بعد وفاته ولده القاضي أبو عبد الله محمد.

والكتاب مخطوط فريد في الخزانة الملكية بالرباط، وقد قمت بتحقيقه وستنشره وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وقد سبق لي أن تحدثت عن جامع هذا الكتاب وعرفت به في المقدمة التي وضعتها بين يدي كتابه التعريف بالقاضي عياض، وهو الكتاب الذي حققته ونشرته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية منذ خمس عشرة سنة تقريبا كما كتبت حول «مذاهب الحكام» نفسه مقالة بعنوان : «من الامية هذا وقد سبق لي أن تحدثت عن جامع هذا الكتاب وعرفت به في المقدمة التي وضعتها بين يدي كتابه التعريف بالقاضي عياض، وهو الكتاب الذي حققته ونشرته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية منذ خمسة عشرة سنة تقريبا كما كتبت حول «مذاهب الحكام» نفسه مقالة بعنوان : «من أصداء الحياة اليومية في سبتة المرابطية» عالجت فيها بعض المعطيات التاريخية والاجتماعية التي يقدمها هذا الكتاب حول سبتة في عصر المرابطين.

وقبل الشروع في استعراض هذه المادة أحب أن أذكر بعلاقات عياض وولده جامع هذه النوازل بالأندلس، فعياض كما هو معروف مغربي سبتي، ذو جذور أندلسية، إذ أن أصله البعيد من مدينة بسطة، كما أنه زار الأندلس في شبابه، ولقي شيوخها، وعرف بهم في فهرسته «الغنية» وقد ولي قضاء غرناطة، وكانت له أملاك في مالقة.

أما ولده محمد فقد كان قاضيا في دانية وغرناطة، ثم إن أحفاد عياض بسبب ما وقع لجدهم ـ فيما يبدو ـ قد استقروا في غرناطة ومالقة، وباختصار كان عياض وبنوه يضعون رجلا في المغرب وأخرى في الأندلس.

تعتبر نوازل عياض هذه أقدم ما ألفه المغاربة ـ أو أقدم ما وصل إلينا مما ألفوه في موضوع النوازل، وهي احدى خمس مجموعات مشهورة في النوازل ترجع إلى عهد المرابطين، ونسوقها حسب التسلسل التاريخي :

1) **نـوازل ابن سهـل المعروفـة بـالأحكـام الكبرى.** وابن سهـل هـذا ـ مثـل القـاضي عيـاض ـ مـارس القضـاء والأحكـام في المغرب والأنـدلس على عهـد المرابطين.

وقد ظلت هذه النوازل مرجعا فقهيا، وأفاد منها بعض المؤرخين المحدثين، ويعنى بدراستها وإخراجها مجزأة الكتور محمد عبد الوهاب خلاف.

2) **نـوازل ابن رشـد الجـد :** وقـد رواهـا عنـه وجمعها تلميذه ابن الوزّان. وقد أفاد من هذه النوازل وكتب عنها عـدد من الأسـاتـذة، منهم : عبـد العـزيـز الأهـواني، وبرونشفيغ، وإحسان عباس، وغيرهم، ولعلها كـانت موضوع رسائل جامعية، ولكنهالم تنشر بعد.

3) **نـوازل ابن الحـاج القـاضي الشهيـد،** وتنقـل عنها كتب النوازل المتقدمة والمتأخرة، ولا أعرف ما إذا كانت موجودة.

4) **نـوازل أبي المطرف عبـد الرحمن الشعبي المالقي،** وينقل عنها ولد القاضي عياض، والقاضي النباهي، ووصفها بأنها مجموعة نبيلة.

5) **نوازل عياض،** موضوع هذا العرض. وهي أصغر حجما من نـوازل أبي الأصبغ، بن سهـل، وأبي الـوليـد ابن رشـد، ولكنهـا لاتقـل عنهمـا فـائـدة وقيمـة، وتتميـز عنهمـا بطبعها المزدوج، أي أنها نوازل مغربية أندلسية.

إن ظهور هـذه النوازل في عصر وحـد وزمن متقـارب يـدل على حركـة الفقـه ورواجـه في عصر المرابطين الـذي كـان عصر الفقهـاء أو عصر «قـال مـالـك» كمـا عبر الشـاعـر الأعمى التطيلي في كـافيتـه التي يشكـو فيهـا من كـسـاد بضاعة الشعر ونفاق سوق الفقه.

☆ ☆ ☆

تتـألف النسخـة الوحيـدة التي وصلت إلينـا من نوازل عياض، والمحفوظـة بـالخزانـة الحسنيـة بـالربـاط تحت رقم 4042 من 78 ورقـة، وهي منتسخـة سنـة 1081 هـ، وبهـا بياضـات في مواضع متعـددة، وخطهـا ليس بـالجيـد، وفيهـا كثير من التحريف واللحن. وتشتمـل على نـوازل في خمسين بابا من أبواب الفقه مرتبة كما يلي :

الأقضيـة، الشهـادات، الـدعـاوي والأيمـان، الحـدود، الجنـايـات، نفي الضرر، الميـاه، الغـائب، المريض، الـسفـه، المديان، المفلس، السمـار، الغصب، الاستحقـاق، الوصـايـا، الأحبـاس، الصدقـات، الهبـات، النحلـة، المتعـة، العمرى الإسكـان، النفقـة، الوديعـة، الرهون، الحمـالـة، الـوكـالات، المزارعـة، الشركـة، القسمـة، الشفعـة، الصلح، العتـق، المدبّر، أمهات الأولاد، النكـاح، العـدة، الطلاق، الأيمـان بـالطلاق، الخلع، اللعان، الجنائز، كتاب الصلاة.

ها كما نرى باستثناء الباب الأخير في فقه المعاملات والأحوال الشخصية.

وتتميز هذه النوازل التي جمعها ولـد القـاضي عيـاض بأنها تشتمل على أجوبـة تمثل الفتوى في الغرب الإسلامي على عهـد عيـاض، ونجـد فيهـا أسماء عـدد من المفتين المعروفين في الجناح الغربي من العالم الإسلامي :

فمن أهل الأندلس ابن رشد، وابن الحاج وجلّ الفتاوي الموجـودة في هـذه النـوازل هي لهـذين الفقهين القرطبيين الكبيرين، وذلك أن القاضي عياضا على جلالـة قـدره كـان يرجع أثناء توليه القضاء إلى شيخيه المذكورين ويكـاتبهمـا فيما يعرض عليه من أقضية تكون محل اختلاف بين الفقهاء المحليين مستنجدا برأيهما ومهتديا بهديهما وكانت فتاويهما تأتي مؤكدة لأحكامه.

ثم إن ابن رشـد كـان يـومئـذ رئيس الإفتـاء وزعيم الفقهـاء ويتبين ذلـك من نـوازلـه التي جمعهـا تلميـذه ابن الـوزان، ففيهـا نرى الأسئلـة ترد عليـه من مختلف جهـات الأندلس والمغرب، من إشبيلية وجيان ومالقة وباغـه ولوشة وبيـاسـة وغرنـاطـة والأشبـونـة وبلنسيـة وبطليـوس وشلب والمرية وسبتة وفاس ومراكش، وقـد كـان يستفتى من أمير المسلمين فمن دونـه، ومن القضـاة والفقهـاء الـذين نجـدهم يستفتونه، عدا القـاضي عيـاض أبو المطرف الشعبي المـالقي صـاحب النـوازل، وأبـو مروان ابن مسرة، وأبـو القـاسم ابن الإمام الإشبيلي ـ وهـذا من كبـار المفتين في ذلـك العصر ـ

وأبو بحر سفيان بن خلف الأسدي الذي استفتاه في نازلة أخيه المقتول بمربيطر، وموسى بن حماد قاضي الجماعة بمراكش وغيرهم.

ولما توفي ابن رشد عام 520 هـ خلفه ابن الحاج الشهيد فصرف إليه علي بن يوسف قضايا الأندلس الكبار «واعتمد على فتواه بعد وفاة ابن رشد صاحبه».

أما أهل أفريقية الذين نصادف أقوالهم وفتاويهم في نوازل عياض فمنهم أحمد بن نصر الداودي الطرابلسي وابن أبي زيد القيرواني، وأبو الحسن القابسي، ونرى ولد عياض جامع هذه النوازل ينقل كثيرا عن «نوازل القرويين» أي القيروانيين.

وإذا كان الفقه المالكي قد ازدهر في إفريقية والأندلس منذ وقت مبكر على يد تلاميذ الإمام مالك نفسه، فإن المغرب ظل غائبا عن هذه الحركة، ولم يظهر الفقه المالكي بالمغرب الأقصى إلا في القرن الرابع الهجري، ويذكر المؤرخون أن أول من أدخله هو الفقيه دراس بن إسماعيل الفاسي المتوفى عام 357 هـ، ولعل هذا ما يفسر لنا قلة الأسماء المغربية في ترتيب المدارك لعياض، فمن بين ما يقرب من 1600 فقيه في هذا الكتاب لا نجد بينهم من المغاربة إلا نحو الأربعين أو دونها بقليل، ومع ذلك فإن نوازل عياض تشهد بنبوغهم السريع في الفقه ويتجلى ذلك في مظهرين.

أولهما : وجود قضاة مغاربة في عهد المرابطين بالأندلس نفسها، مثل عياض، وموسى بن حماد، وخلوف بن خلف الله الصنهاجي، وعبد الله بن أبي عرجون التلمساني، ومحمد بن داود المكي، والقضاة بني سجون الطنجيين وغيرهم، وتراجمهم في غنية عياض، وصلة ابن بشكوال، وتكملة ابن الأبار، وصلة ابن الزبير، وذيل ابن عبد الملك المراكشي.

أما المظهر الثاني : فيتجلى في مشاركتهم في الإفتاء، وفي نوازل عياض نماذج من فتاويهم، ومنهم عبد الله بن محمد ابن منصور النكوري، ومنصور بن أبي فوناس الزرهوني، وحسن ابن زكون نزيل فاس وحسن ابن وردوش الفاسي، ومحمد بن حسون الفاسي وآخرون، وتراجم هؤلاء في الغنية والذيل والتكملة وجذوة الاقتباس.

وقد كان وجود القاضي أبي الأصبغ ابن سهل بسبتة عاملا من عوامل نشاط الحركة الفقهية في سبتة، إذ تخرج بـه عدد من السبتيين، منهم إبراهيم بن أحمد البصري، وإبراهيم بن جعفر المعروف بابن الفاسي، وعبد الله بن أحمد بن خلوف الأزدي، وعبد الله ابن منصور اللخمي، (راجع الغنية).

وفي آخر كتاب المدارك، ذيلٌ لتلميذه ابن حماد السبتي خاص بفقهاء سبتة.

ونعود بعد هذا إلى تقييم نوازل عياض، فنقول : إن لها قيمتين :

قيمة فقهية عرفها الفقهاء والنوازليون الأقدمون الذين نقلوا عنها واستفادوا منها، ومن هؤلاء الونشريسي الذي أدرج كثيرا من فقراتها في مجموعه الكبير «المعيار».

والقيمة الثانية تاريخية، وسنلخص الكلام عنها في قسمين :

قسم يتعلق بسبتة، كالنوازل التي يرد فيها ذكر بعض المعالم والخطط في هذه المدينة كأسماء بعض الأزقة والأبواب والمساجد والحمامات والمقابر والأسواق والأرحي والبساتين، وكأسماء بعض الأسر والأعلام المشهورة في سبتة، وهذه الإشارات سابقة بزمن طويل على كتاب الأنصاري المعروف «اختصار الأخبار».

ومثل النوازل الدالة على الحالة الفلاحية في قرى سبتة ولا سيما قرية بليونش التي كانت تمد سبتة بالخضر والفواكه.

ومثل النوازل التي تتصل بالبيئة البحرية السبتية كالصيد البحري، والملاحة التجارية، اللذين اشتهرت بهما سبتة.

وسأنتقي من هذه النوازل السبتية الواقعية سبع نوازل على سبيل المثال :

الأولى واردة في كتاب الدعاوي والأيمان، ومؤداها أن يحيى بن تمام، وهو فقيه سبتي معروف له ترجمة في

المدارك 7 : 113 اشترى حصة حمام كان لابن اللونكه من عائلة سبتية معروفة، توجد ترجمة لأحد أفرادها في المدارك 8 : 172 أيضا، وقد خاف الفقيه المذكور من الشفعة، فطلب من البائع أن يشهد له بالصدقة لا بالبيع، ولكن ابن اللونكه قام بالشفعة، فترافعا إلى قاضي سبتة سليمان القباعي فأفتى هو وفقهاء سبتة أن لا شفعة في الصدقة فقال ابن اللونكه : لا أرضى إلا بفتوى فقهاء قرطبة واستفتاهم مبتدئا بأبي عمر ابن المكوي فأفتى بأن ما فعله الفقيه يحيى ابن تمام من حيل الفجار وأن الشفعة واجبة.

والثانية تتعلق بالمياه. وخلاصتها أن أحد المتنفذين في سبتة وهو عبد السلام الذي كان من أصحاب «سكوت البرغواطي» حاكم سبتة، جلب ماء السياح الجاري من بليونش إلى جنانه عبر طريق عمومية وظل الأمر كذلك أكثر من عشرين سنة إلى أن زالت دولة البرغواطي وجاء المرابطون فقام أهل سبتة على عبد السلام المذكور وشكوه إلى عبود بن سعيد التنوخي الذي عينه يوسف بن تاشفين قاضيا على سبتة فحكم بقطع الماء من الطريق العمومي لضرره بالمارة، ولأنه لم يكن جاريا من قبل.

ولهذه النازلة نظائر في «نوازل عياض» إذ كان النزاع لا ينتهي حول السواقي وترع المياه التي تسقى بها الجنات والبساتين، وتدور بقوتها الأرحي والطواحين.

والثالثة تتعلق بشحنة قمح وشعير شحنت من مرسى مازيغن إلى سبتة والمتنازعون فيها هم سفيان ابن يعقوب الأنصاري وسليمان الصنهاجي ومحمد بن عبد الله الأنصاري وقد تراقعوا إلى القاضي عياض ثم إلى القاضي بعده حسن بن علي ابن سهل، وكان حكمهما في النازلة واحدا.

وتدل هذه النازلة على حركة التجارة البحرية بين المراسي المغربية الأطلسية والمتوسطية وعلى شهرة إقليم دكالة بإنتاج الحبوب، وشهرة مازيغن المبكرة بالوسق، وقد ذكر ابن سعيد في «بسط الأرض» أنها «فرضة مشهورة تحمل منها المراكب القمح إلى سبتة وغيرها» وأغلب الظن أن هذا القمح كان يعاد تصديره من سبتة إلى بعض الموانئ المتوسطية المسيحية التي كانت لسبتة معها علاقات تجارية كبيرة.

والرابعة تتعلق بأحباس أسرة كبيرة في سبتة هي أسرة محمود بن أبي مسلم الصدفي وفيها إحصاء لهذه الأحباس المؤلفة من دور وحوانيت وأفران بحدودها مع تسمية من لهم الحق في هذه الأحباس من أبناء الأسرة المذكورة وقد أفتى في هذه النازلة كل من ابن رشد وابن الحاج.

وفيها أسماء أعلام وأماكن شرحناها في نصها المنشور في مجلة «المناهل».

ومما يلفت النظر في نوازل كتب الوصايا والأحباس والصدقات والهبات في هذا المجموع شيوع الوصية بالثلث على المساكين وتحبيس المرافق والمنافع على المحتاجين مثل «جنان المساكين» و«حانوت أحباس المساكين» مما يعكس روح الخير والإحسان في ذلك المجتمع السبتي الإسلامي الذي كان يوجد فيه كذلك أهل الطمع والجشع كما نرى في النازلة الخامسة.

وهي نازلة طويلة تصور نزاعا بين فاطمة بنت عطية ابن غازي ومعها أخوها لأبيها الفقيه محمد بن عطية ابن غازي من جانب وأحمد بن حسون أخي زوجها المتوفى الحاج الفقيه محمد بن حسون الفاسي (وله ترجمة في الذيل والتكملة) وهي نازلة طويلة - كما قلنا - رفعت إلى القاضي عياض، وتشتمل على فوائد تاريخية، كما تصور ثراء أسرة بني غازي السبتية، واتخاذ الأسر السبتية الغنية مربيات من عجم الأندلس، وتفضح تصرفات بعض الوكلاء، وتعسفات نوع من المشرفين والأوصياء، وقد نشرناها مع تعليقات عليها في مجلة المناهل.

والسادسة تمثل ما كان يقع - وما يزال يقع أحيانا - من ظلم للمرأة حتى من أقرب أقربائها واهتضام لحقوقها واستغلال لسذاجتها يومئذ كما تقدم من جهة ثانية صورة ناصعة لإنصاف الفتوى وصرامتها في الحق، وفي هذه الفتوى - كما في الفتاوي المتعلقة بالمرأة من هذا المجموع - حرص بالغ على رفع الضرر عنها، كما يتجلى

ذلك أيضا في نوازل الحضانة التي ألف فيها القاضي عياض تأليفا مستقلا له فيه كلام جميل في معنى الأهلية فيها وكل ما يتعلق بها.

والسابعة والأخيرة من هذه النوازل السبتية التي انتقيتها لكم من نوازل عياض عبارة عن وصية أوصى بها محمد بن أحمد المعروف بابن الخشية (؟) وقد كان صهرا لعائلة الصدفيين التي تقدم ذكرها، وفي هذه الوصية يقر المذكور بدين لابنته أم العلو كما يوصي بكمية من القمح تفرق على المساكين وأهل الستر والعفاف على أن تتولى ذلك زوجه فاطمة بنت محمد بن أبي مسلم الصدفي إن كانت حية أو ابنته أم العلو المذكورة.

وهذه النازلة تصور كيف كان السبتيون يجتهدون في حصر ميراثهم في ذريتهم ـ ولا سيما إذا كانت الذرية من البنات ـ خشية أن يشركهم الورثة ويدخل معهم العصبة.

وقد أفتى ابن رشد وغيره ببطلان الإقرار بالدين المذكور واعتباره من جملة الميراث وجواز الوصية بالثلث فقط فيما عداه.

☆ ☆ ☆

وأما القسم الثاني من هذه النوازل ذات القيمة التاريخية فتتعلق بالأندلس، واختار منها كذلك سبع نوازل :

أولاها ـ نازلة صاحب دار السكة للجزيرة الخضراء وغرناطة في عهد المرابطين المسمى سعد وخصمه السبتي المدعو الرميلي، فقد ادعى هذا أنه دفع للأول شيئا يضربه له في دار السكة فلم يسلمه جميع ما ضربه، وقال سعد صاحب دار السكة أنه دفع لخصمه الرميلي أكثر مما كان له عنده.

فتحاكما إلى قاض أندلسي كنيته أبو سعيد فحكم بحكم لم يرضه الرميلي، وبلغ الأمر إلى الأمير المرابطي بقرطبة فأحال القضية على القاضي عياض الذي كان له ولابن رشد وابن الحاج ومحمد بن إسماعيل اجتهادات مختلفة في النازلة (جواب ابن رشد في نوازله : 161) والنازلة برمتها منقولة في المعيار (10 : 159 ـ 165) بعضها يحكم على صاحب السكة وبعضها يحكم له ومما جاء في إحدى هذه الفتاوي :

«ولا حجة لسعد صاحب السكة أن يقول إنما أنا أمين مصدق أدفع إلى الصناع وهم الضامنون والمطالبون بالبراءة فيما يدفعون لأنه كمسألة القصار يقبض المتاع ويدفع إلى الصناع والأجراء فإن عملوا في بيته وبحضرته وبين يديه فهو الضامن دونهم وإن نقلوا المتاع وغابوا عليه ضمنوا له وضمن هو لصاحبه لأنه صانع دفع إلى صانع كان ذلك بأجر أو بغير أجر إذا انتصبوا للصناعة».

ويمكن استنتاج عدة فوائد من هذه النازلة وخصوصا ما يرجع إلى ضوابط السكة ودورها في عصر المرابطين.

وثانيتها ـ نازلة رجل غاب عنه بقره عند ما ضرب عليهم العدو، فادعى به على أهل قرية معينة وشكى إلى حاكم الجهة، فوجه فيهم، فأتي بمن أمكن منهم، فأقر بعضهم، وغرموا بعض العدة وأنكر الباقون، فسجنوا وطال سجنهم نحو العشرين وهما أخوان من أهل العافية لا يعرف لهم مثل هذا وأبى صاحب البقر أن يخرجهما حتى يغرموا.

وقد أفتى.

إذا كانا إنما سجنا بتهمة عامة أهل القرية وهما كما وصفت حلفا وأطلقا» (13).

والثالثة ـ في رجلين تشاتما فقال أحدهما للآخر حتى تثبت حريتك، وفحوى الكلام يقتضي أنه شتمه بالعبودية والرق، والمقول له هذا ينتسب هو وأبوه وجده وآله بأموى، وقد حازوا هذا النسب على مر الأيام فهل يكلف هذا القائل إثبات أنه من الموالي وأبناء العبيد أم يكلف المقول له إثبات أنه من أنفس أمية دون مواليهم وحينئذ يُحَدُّ القائل وكيف إن كان الحاكم قد رأى هو ومن حضره من أهل العلم إقامة الحدّ على القائل دون أن يكلف المقول له إثبات أنه قرشي.

وقد أجاب عن هذه النازلة التي ربما وقعت بغرناطة القاضي موسى بن حماد وعبد الحق بن عطية وعبد الحق بن

معيشة ومحمد بن أسود وكلهم من قضاة الأندلس المعروفين المترجمين.(15).

والرابعة ـ تشتمل على عقدين وسؤال ومضمنها أن فاطمة بنت سليمان الفلاني أشهدت بأنها إذا ماتت فإن الوصي على حفيدتها مريم بنت إبراهيم الفلاني هو يوسف بن خلف الفلاني واعلم بثبوت العقد الفقيه القاضي أبو عمر فلان بن فلان أيام قضائه بالجزيرة الخضراء.

وقام زوج مريم المذكورة على وصيها يوسف المذكور ذاهبا لفسخ وصايته وطلب منه أخذ نسخة العقد الأول والثاني وقال له أن بينتك قد سقطت من أجل أن العقد الأول قد نطق بأن الأب إبراهيم المذكور قد أوصى بابنته مريم إلى فاطمة المذكورة وهو لم يوص بها إليها وإنما أوصى بها إبراهيم الأب المذكور إلى زوجه أمها حبيبة وأوصت بها أمها حبيبة المذكورة إلى أخيها وأوصى الأخ بها إلى أخته فاطمة المذكورة.

ورفعت النازلة إلى القاضي عياض فأفتى فيها (43 ـ 144).

والخامسة ـ في رجل أشهد على نفسه وهو عليل الجسم ثابت العقل والذهن أن جميع ما ابتاعه باسمه من أملاك قديما وحديثا داخل سور مالقة وخارجها من دور وأرضين بياضا ومشجرة بأشجار التين وسائر الثمار عامرة وغامرة وغير ذلك مما يقع عليه اسم ملك من الرجل بكورة ريه إلى أقصى أحواز المدينة المذكورة ومنتهى أقطارها هي مشتركة بينه وبين فلانة وفلانة وفلانة بنات أخيه فلان، نصفها له في خاصيته، والنصف الثاني مشترك بين بنات أخيه المذكورات، سواء بينهن، وبعد هذا سؤال موجه إلى القاضي عياض حول قيمة هذا الإشهاد وهل هو هو نافذ ؟ فأفتى بالإيجاب.

والسادسة ـ عبارة عن عقد ورد في كتاب الغصب هذا نصه : (41) «يشهد من سمى أسفله هذا الكتاب من الشهداء أنهم يعرفون المعز بن يوسف الرحوي بعينه واسمه إلى أن توفي عفا الله عن وعنه فأحاط بميراثه في علمهم ابناه يخلف ومدونه لا وارث له في علمهم غيرهما.

ويعرفون له المجشر المعروف بمنزل عطية بنظر مدينة ابن السليم من عمل إشبيلية حرسها الله مالا من ماله وملكا من أملاكه لم يفوته بوجه من وجوه الفوت في علمهم إلى أن توفي وأورثه ابنيه المذكورين، ولا يعرفون يخلف ومدونه المذكورين فوتا شيئا من المجشر المذكور المنجر إليهما بالميراث من أبيهما المذكور بوجه من وجوه التفويت في علمهم إلى الآن».

وبعد هذا العقد سؤال موجه إلى عياض عن أحد ولاة تلك أراد أن يغصب أرض المجشر وحرثها فرفع أصحاب المجشر شكواهم إلى الأمير وقد أجاب القاضي عياض بأن الوالي غاصب تجب عقوبته وتغريمه.

والسابعة ـ عبارة عن خبر ورد في كتاب الطلاق (73) هذا نصه :

«وحكي أن الفقيه محمد بن عبد الله المعروف بابن القوق بلغه أن أن ابن مريم يفتي بالرخصة في طلاق الثلاث، فرفعه إلى القاضي فأنكر ابن مريم ذلك، فأمر به القاضي إلى السجن، فقال ابن القوق «السجن فقط ! اقتُله ودمه في عنقي».

ثم توفي القاضي المذكور وولي بعده غيره، فبعث إلى دار ابن مريم أعوانا أخذوا جميع كتبه، ثم أتوا بها، فلم يدخلها القاضي داره، وأمر بها إلى الجامع، ثم خرج وأرسل في أهل العلم، فرأو أن يخرج منها موطأ مالك والمدونة، وأن تقطع كتب الشافعي وغيره، فقال شيخ منهم بل تقطع كلها على باب المسجد خيفة أن يقول الناس أخذوا ما أحبوا، وقطعوا ما لم يحبوا».

ولعلّه يبدو من هذه النماذج القيمة الثمينة لهذا الكتاب سواء من الناحية الفقهية، أو من النواحي التاريخية والاجتماعية والاقتصادية.

وسيقدم عندما ينشر قريبا هو ونوازل أبى الأصبغ ونوازل ابن رشد وغيرها من كتب النوازل القديمة مادة خصبة وثروة لا تقدر للفقهاء والمؤرخين.

مشاهدات دبلوماسي مغربي في فرنسا عام 1845/1846 في عهد المولى عبد الرحمن بن هشام

(القسم الثاني)

الأستاذ محمد العربي الخطابي

مقام الوفد السلطاني في باريس.

يخبرنا محمد الصفّار أن الوفد السلطاني المغربي أقام في عاصمة فرنسا خمسين يوماً، من 28 ذي الحجة 1261 هـ إلى 19 صفر عام 1262 هـ، ويقدم لنا الكاتب صورةً ملونة عن نشاط الوفد وزياراته الرسمية والخصوصية، وعمّا شاهده في باريس من قصور ومتاحف ومدارس، وما حضره من سهرات مسرحية وحفلات.

ولما كان الوفد السلطاني حريصاً على أن يظهر طوال مدّة إقامته في باريس بالمظهر اللائق، وأن ينهج سلوكاً يحفظ عليه هيبته ويصون سمعة المملكة الإسلامية التي يمثلها، فإن الصفّار قد رأى من المناسب أن يسجل هذا الإيضاح : «ومع قلّة مدة إقامتنا بها [أي باريس] فما كنا نخرج من المحل الذي كنا نازلين فيه إلا في بعض الأوقات حين يدعوننا ويعزمون علينا في الذهاب إلى موضعٍ من مواضعهم أو لضيافةٍ أو فرجة... فكان خروجنا قليلاً، وكان في ذلك حفظ لحرمتنا... فكنا - والحمد لله - في أعينهم عظاماً، ينظرون إلينا دائماً بعين الاحترام والتعظيم، ولو كنا مبتذلين نكثر الدخول والخروج لكنا بخلاف ذلك، قال أردشير لابنه «لا تمكن الناس من نفسك فإن أجرأ الناس على الأسد أكثرهم له معاينة»، وقال الشاعر :

كما يخلق الثوب الجديد ابتذاله
كذا تخلق المرء العيون اللوامح

هذا ونعرف من كلام الصفار أن الوفد لم يكن يخرج من محل إقامته إلا في صحبة مرافق فرنسي يتولى مهمة الترجمة.

ويصف الكاتب بعد ذلك الدار التي خصصت لإقامة الوفد السلطاني في باريس فيقول :

«ولما دخلنا هذه المدينة أنزلونا في دار كانوا أعدوها لنا بالمحل المعروف عندهم بالشمزليزي... ومعنى هذه الكلمة : رياض الجنة[1]، وهو من متنزهاتهم ومحال فرجاتهم وتماشيهم، وبه أشجار حسنة الشكل والترتيب والتصفيف، وأحد جانبيه متصل بالنهر، وابتداؤه من رياض السلطان وانتهاؤه إلى قوس عال هناك كان بناه بونابارط، طوله ما

---

1) المقصود هو الشارع الفسيح المسمى Champs - Elysée، يمتد من ميدان لاكونكورد La Concorde إلى ميدان النجمة Place de l'Etoile حيث يقوم قوس النصر، ومعنى Champs - Elysée جنة عدن، وكان أصحاب الميثولوجيا يطلقون لفظ إليزي على مكانٍ في جهنم يقيم فيه الأبطال والنبهاء بعد موتهم، وقد أطلقه هوميروس اليوناني وفيرجيل الروماني على مقام السعداء.

يزيد على ستة آلاف خطوة[2]، ومع طول مسافة هذا الشارع فإنك إذا وقفت في ابتدائه ترى انتهاءه قبالة عينيك في غاية من الاستقامة والاستواء، فاختاروا لنا الدار في هذا المحل لأنه من أشرف محالهم، فإذا كان يوم مشمس - خصوصاً إذا كان يوم الأحد، فهو يوم بطالتهم - فلا يبقى أحد في المدينة إلا جاء لهذا الموضع يتماشى فيه ويستريح مع من يليق به من رفاقه... ويرى فيه وقتئذ من بنات الروم ما يلهي ويدهي».

«ولما دخلنا لهذه الدار ألفيناها قد هيئوها لنا بأحسن ما عندهم وقصروها علينا لا يدخلها إلا نحن وخدمنا... وجعلوا بها من الفرش الرفيعة والمواكن النفيسة (ساعات الحائط) والثريات المضيئة والخدم المطيعة ما ينبئ عن عظيم منزلتنا عندهم، وأجروا علينا سائر ما نحتاج إليه من مأكول وغيره حتى الأكداش هيأوها لنا لنركب فيها إذا خرجنا، ومتى احتجناها كانت حاضرة، وكانوا ينفقون علينا كل يوم في الأكل وغيره نحو مائتي ريال (أي ألف فرنك)، وجعلوا لنا من الخدمة نحو عشرين، كل له شغل خاص، وانتخبوا لرئيسنا بيتا هو أرفعها وأنفسها أثاثاً، وجعلوا لنا بيتا للاجتماع...».

عاهل فرنسا يستقبل السفير السلطاني.

وفي اليوم التالي من وصول الوفد إلى باريس استقبل عاهل فرنسا لوي فليب الأول دورليان سفير السلطان المنعم المولى عبد الرحمن، وتحدد موعد المقابلة في الساعة العاشرة صباحاً، فلنترك الكاتب يصف لنا بأسلوبه مراسيم الاستقبال واستعداد الوفد السلطاني لذلك :

«ومن الغد بعث لنا سلطانهم لنأتيه في عاشرة النهار فتهيأنا لملاقاته... بعث لنا قائد مشوره [رئيس التشريفات] ومعه جلنار [جنرال]، وبعث إلينا بأربعة أكداش... أكبرها تجره عشرة من الخيل... فركب كل منا كدشيه وسرنا، وسمعوا بنا فامتلأت الطرق والشوارع لرؤيتنا حتى بلغنا إلى دار السلطان فخصنا بالدخول من قوس لا يدخل منها إلا هو وأهله إكراما لنا فخرجنا منه إلى رحبة واسعة فألفينا فيها من العسكر صفوفاً بعضها خلف بعض على عادتهم في الاصطفاف... وبمجرد وصولنا تكلمت الموسيقى فنزلنا ودخلنا الدار فأتونا بيسير من الطعام ثم استدعونا للصعود في الدرج فصعدنا، فإذا هو قصر من القصور المشيدة ذو بناء عجيب وتزويق غريب وقباب مشيدة وفرش ممهدة، والتماثيل البديعة والأواني الرفيعة والمرايا الصافية والزخارف البادية، قصر من قصور الملوك... ثم أخذنا في الدخول من صالة إلى صالة حتى انتهينا إلى الصالة التي بها السلطان، وهي أعظم زخرفة وأكمل بهجة مما قبلها، فألفيناه قاعدا على كرسي مملكته وحوله عظماء دولته، والكرسي له ثلاثة أدرج، يدور به ضربوز، وكل ذلك مموه بالذهب وعليه ستور من الحرير غير مسدولة، وتتدلى منه مجاديل وهدب من الذهب، وكسوة السلطان مثل كسوة غيره من العظماء الواقفين حوله، لم يتميز عنهم بشيء، وعليه سيفه، وبرنيطته على رأسه، وأما من حوله فكاشفو رءوسهم إذ لا يقفون أمام عظمائهم إلا كذلك».

«ومن عادتهم في اللقاء [أي في الاستقبال الرسمي] أن ينتخب الوافد كلاماً... يكتبه في ورقة ويسرده عند ملاقاة السلطان، ويجيبه السلطان بمثل ذلك، فهيأ رئيسنا كلاماً وكتبه في ورقة ولما واجهه أخرج ورقته وسردها بالعربية، مضمنها - بعد الحمد والثناء - مدح أمير المسلمين - نصره الله - وذكره بخير إذ بعثه إلى هذا السلطان، وذكره أيضاً [أي ملك فرنسا] بما يليق به مما فيه مداراته، وذكر جنسه ورعيته بما فيه لهم مدح من الأمور الدنيوية ومن الآداب الحضرية، وذكر ما وصل إليه من إحسانه والفرح به منذ حل ببلاده ودخل في ولايته... وبعد فراغه من سردها فسّرها الترجمان، ثم أخرج السلطان لوي فليب من جيبه

---

2) يقصد قوس النصر المقام في ميدان النجمة Arc de Triomphe de l'Etoile، من أبرز معالم باريس، أمر بتشييده نابليون الأول عقب معركة أوسترليتس الشهيرة، وذلك في 12 فبراير عام 1806، ووضع تصميم هذه القوس المهندس شالكَران Chalgrin، ووقع تدشينه عام 1836. يبلغ طول القوس 44,82 متراً وسمكه 22,21 متراً، وتزينه منحوتات ونقوش، ويوجد تحت القوس شاهد قبر الجندي المجهول الذي دفن فيه عام 1920.

ورقةً أيضاً جواباً لذلك مضنها أنه يحمد الله على ما تجدد من المهادنة والمحبة والمودة بينه وبين دولة سلطان المغرب وأنه لا يصدر منه مع دولة مراكش والمغرب إلا ما يجري على مقتضى ذلك، سردها بعجميته ثم قرّها الترّجمان بالعربية، ثم ناوله [السفير] كتاب أميرنا ـ نصره الله ـ[3] فقبضه قبض تعظيم، ثم انصرفنا من عنده فلقينا بناته وزوجته وقريباته فتأدبن معنا ولاطفننا بأطيب كلام، ثم رجعنا».

مأدبة عشاء في القصر الملكي.

«وبعد وصولنا لمحلنا قدمت علينا من عنده بطاقات يطلب منّا أن نشرفه بالقدوم إليه ليلاً لنتعشى عنده، فلما كان الليل ذهبنا إليه فدخلنا تلك الصالات فألفيناها قد أوقد فيها الشموع في ثريات عظيمة من البلور يخطف شعاعها البصر، وفي جوانب الصالات وصدرها مرايا كبيرة عظيمة أطول من قامة الإنسان تنطبع عليها تلك الثريات بشموعها... فيخيل للناظر أنها صالات أخرى... فألفيناه قد أحضر جميع وزرائه وعظماء دولته ونسائه وبناته وسائر أولاده ونساء أولاده، فكان الجميع نحواً من سبعين نفساً، فأدخلنا لصالة الأكل فألفينا فيها طبلة كبيرة تسع العدد المذكور، وهي مستطيلة... قد صفت عليها أواني الفواكه والحلاوات وفي وسطها صفان متقابلان من حسك[4] الشموع، كل حسكة بأفواه عديدة، ستة أو سبعة، وبين الصفين صف آخر من أواني النوار والأزهار، وكل حسكة منزلة على طبلة مذهبة، وفوق الطبلة على طول الصالة ثريات من البلّور تضيء بالشموع وفي جوانبها ثريات صغار بالشموع أيضا، فكان جملة ما في تلك الصالة من شموع ثلاثمائة وثلاثين، وكل ما يدور على تلك الطبلة من الأواني فهو من الذهب والفضة، وكل الجالسين عليها لابسون الذهب على ثيابهم وسيوفهم، فكان في ذلك منظر رائق وجمال فائق من شعاع الشموع ولمعان الأواني ولباس الجالسين وصفاء المرايا والثّريات، وما على النساء من فاخر الدر ونفيس الأحجار وبريق الخدود يكاد يسلب فؤاد الحواري، وأحضر مع ذلك من فاخر الأطعمة ولذيذ الفواكه وطيب الحلاوى ما يباح ويستحسن، حتى إذا فرغنا قمنا وقام معنا هو وجميع من حضر وخرجنا لصالة أخرى وبقينا وقوفاً لا يجلس منا أحد ـ كما هي عادتهم ـ إلا النساء، وجعل سلطانهم يتحدّث مع كل واحد منا ويباسطه بما تيسر من الكلام ويسأله عن أحواله ويؤنسه بطيب الكلام، وكذلك فعلت زوجته... وبناتها وسائر من معها، وليس تحدث النساء مع الرجال عندهم عيباً ولا مخلاً بالمروءة، بل ذلك هو المطلوب عندهم لكن مع عفة وصيانة... فبقينا معهم نحو ساعة بعد العشاء ثم انصرفنا».

حفل استقبال بمناسبة حلول السنة الجديدة.

انهمك السفير عبد القادر أشعاش يومي الثلاثاء والأربعاء (30 ـ 31 ديسمبر 1845) في استقبال سفراء الدول الأجنبية في باريس الذين توافدوا على مقر إقامته لتحيته كما تقتضي الأعراف الدبلوماسية.

وبمناسبة حلول السنة الميلادية الجديدة 1846، استقبل عاهل فرنسا لوي فليب الوفود الوطنية والأجنبية التي تقاطرت على القصر لتهنئته، وكان الوفد السلطاني المغربيّ من بينها، ولنترك الكاتب محمد الصفّار يصف لنا مراسيم هذا الحفل :

«وكان من عادتهم أنه في هذا اليوم، الذي هو أول يوم من العام، لا يبقى كبير في مدينة باريز من أهلها إلا جاء لعند السلطان، لأنه عيد من أعيادهم، فلم يكن لنا بدّ من الذهاب إليه، فسرنا إليه في وقت العصر ودخلنا داره فالفينا فيها من الكبراء والباشدورات ما لا يحصى، كلهم مزينون بأحسن زينتهم يفخر بعضهم على بعض».

---

3) سنأتي بالنص الكامل للكتاب السلطاني إلى ملك الفرنسيين لوي فليب الأول.

4) تطلق الحسكة في بعض نواحي المغرب على محمل الشموع الذي يسمى بالشمعدان في بعض البلاد العربية، وغالباً ما تكون الحسكة من نحاس ولا تحمل عليها إلا شمعة واحدة، والحسكة في اللغة (واحدة الحسك) : صنف من النبات له ثمرة خشنة تتعلق بأصواف الغنم، والحسك من الحديد ما يعمل على مثال هذا الصنف من النبات فيلقى حول العسكر أو يبث في مذاهب الخيل فينشب في حوافرها.

«وممن وافقنا هناك من المسلمين سبعة من أهل مصر منهم إثنان هما حفيدا محمد بن علي باشا [والي] مصر، وإثنان ولدا ربيبه إبراهيم باشا[5] وآخر من خواص محمد بن علي اسمه سامي باشا وإثنان من خدامهما، ومعهم هنالك غيرهم، وجملتهم نحو ستين أرسلهم محمد بن علي لهنالك لتعلّم العلوم التي لا توجد إلا عند هؤلاء القوم[6]، وكان على هؤلاء المصريين من اللباس ما ليس على النصارى، عليهم غلائل لا يرى ثوبها لما نسج فوق الثوب من طرازات الذهب مسلكة بالأحجار والجواهر، وأقفالها كلها جوهر، وعليهم حزم مثقلة بالذهب ويجرون أسيافاً لا توصف حليتها، فكانوا أحسن زياً وأجمل منظراً من النصارى بكثير، وكان هنالك أيضاً باشدور من عند السلطان العثماني».

«فلما اجتمعنا في صالة من صالاتهم خرج عليها سلطانهم فوقف أولاً مع الباشدور المبعوث من عند كبير روما التي هي أصل ديانتهم وبها باباهم الكبير الذي ينقادون له في أمور دينهم... فتكلم أولاً الباشدور المذكور بكلام [مدون] في ورقة ـ كما هي عادتهم ـ فأجاب السلطان بقوله : الله يجعل فيكم البركة ويجازيكم خيراً على هذا الدعاء[7]... ثم أخذ يسلم على كل واحد... حتى أتى على جميع من كان حاضراً هنالك، ثم انصرفنا».

مأدبة عشاء يقيمها وزير الخارجية.

وفي يوم الثلاثاء سابع محرم (سابع يناير 1846) دعي الوفد السلطاني إلى مأدبة عشاء أقامها على شرفه وزير الخارجية الفرنسي كَيزو[8]، وبهذه المناسبة يعطينا الصفار كعادته صورة مفصلة بديعة عن دار المضيف وما فيها من أثاث وتحف، ومن ذلك قوله في وصف قاعة من قاعات القصر الكبرى، وقد سماها قبة :

«فسار بنا إلى قبة حسنة المنظر بديعة الشكل مبهجة مرونقة قد علق في وسطها ثريا كبيرة من البلور واحتف بها روض من النوار والأزهار منقول في الصناديق والأواني مركب أحسن تركيب، لا ترى أوانيه وإنما يرى النور وحده فتظن أن ذاك منبته، وفي أركان القبة من كل جوانبها سواري منقوشة مذهبة، على كل سارية ثريا صغيرة، كل ذلك يوقد بالشموع، وقد نصب فيها كثير من الكراسي، وبداخلها قبة أخرى مشتملة على آلات الموسيقى، وهي كمنجات طوال قدر قامة الإنسان، وربابات وغير ذلك من آلاتهم، ومن عادتهم أن غناءهم إنما يقولونه من الكواغيد، ينصبون كراسي أمامهم ويجعلون عليها أوراقاً فيها ذلك الغناء، كل واحد أمامه كتابه. فبعد أن فرغنا من عشائنا...خرجنا من بيت الأكل ودخلنا القبة المذكورة فجعل الناس يدخلون أفواجاً، رجالاً ونساء، ومنادٍ واقف بالباب، كلما دخل شخص نادى عليه : فلان جاء ! فيأتي الواحد منهم بامرأته أو بنته أو تأتي المرأة وحدها، حتى امتلأت القبة، ولا يجلس إلا النساء وكلهن مزينات بأحسن زينتهن لابسات أفخر ثيابهن على اختلاف ألوانها : أبيض وأحمر وأزرق، وحدّ الستر في لباسهن الشديان، فهما مستوران وما فوقهما من الصدر والظهر والرقبة مكشوف باد، ويسترن بعض العضد إلى نصف الساعد بأكمام ضيقة على قدر العضد وقد لا يبلغ المرفق، ويحتزمن على الخصر تحت ذلك الثوب بحزام ضيق لرقة خصورهن، قيل إنهم يربينها كذلك من حين الصغر... ويجعلن الثوب الذي على الخصر ضيقاً على قدره حتى يكون الخصر بادياً ظاهراً في رقته ولطافته، ويرخين الثوب فيما سفل من ذلك حتى

5) الظاهر أنه يقصد إبراهيم باشا الابن الأكبر لمحمد علي والي مصر (1789 ـ 1848م)، كان قائداً عسكرياً، وعين قبيل وفاته نائباً عن أبيه في حكم مصر.

6) يشير الكاتب هنا إلى الطلبة المصريين الذين بعثوا إلى فرنسا للدراسة بها في عهد محمد علي (1769 ـ 1849م)، وكان مع هؤلاء الطلبة المربي والمصلح الاجتماعي الشهير رفاعة الطهطاوي الذي رافق البعثة بوصفه إماماً ومرشداً دينياً، وتوفي عام 1873.

7) نقل الصفار في كتابه ترجمة كلمة المبعوث البابوي وجواب عاهل الفرنسيين عليها.

8) هو فرانسوا كَيزو F. Guizot (1787 ـ 1874)، مؤرخ وأستاذ جامعي ورجل دولة تقلب في عدد من المناصب السامية، فكان وزيراً للتعليم ثم للشؤون الداخلية، ثم للشؤون الخارجية فرئيساً للحكومة، وكان على رأس الدبلوماسية الفرنسية في وقت سفارة أشعاش. ولكَيزو هذا مؤلفات عديدة في التاريخ والحضارة.

يعظم به الردف، ولعله بشيء يجعلنه تحته[9] فتصير كما قال الشاعر :

أسيلات أبدانٍ رقاقٌ خصورها
وثيرات ما التفت عليه المآزر

وتسدل ذلك الثوب حتى يستر بنانها فلا يظهر من أسفلها شيء... فإذا أقبلت عليك تشتهي أن تمسكها من ذلك الخصر... وأما شعرها فإنها تعمد إليه أولاً فتسرحه جيداً ثم تقسمه من مقدم رأسها قسمين حتى تترك ساقيةً بيضاء بينهما ثم تضفره ثم تلوى تلك الضفيرة على مؤخّر رأسها بصنعة بديعة فتكون دائرة مستقيمة تشبه في الشكل فم الرمانة إلا أنها أوسع منه، ثم تركز في وسط الدائرة مشطة من الصدف أو ما يشبهه مرصعة بأحجار اليامنض (الماس)، وربما تلوي مع تلك الذؤابة حبلاً من الجوهر، وقد تجعل حبلاً من الجواهر والأحجار دائراً مع جملة الرأس، وبعضهن يجعلن على رؤوسهن خماراً رقيقاً من الحرير قد علقت بأطرافه أحجار وجواهر، وهذا إنما تفعله العجائز، وأما الشابات فيتركن رأسهن مكشوفاً في أحسن منظر، وبإحكام تسريح الشعر وعطفه على جانبي الناصية تبقى الجبهة كأنها القمر، وتجعل على جانبي رأسها وردتين مصنوعتين، معهما شيء من النور، وتلصق ذلك مع الشعر، ويجعلن في عنقهن قلادة من فاخر الدر النفيس الصافي المحكم الاستدارة، ثمن الحبة الواحدة منه نحو ستين ريالاً، وتجعل على صدرها صفيحة مرصعة بالأحجار مع خيوط من الجوهر، وغالب أحجارهن اليامنض الفاخر النفيس الصافي الذي يخطف شعاعه الأبصار... وهذه اللبسة إنما هي عندهن في مثل هذا الموضع حيث يجتمعن للفرجة، وأما في الأزقة والطرقات فإنهن يسترن جميع بدنهن حتى الكفين يجعلن لهما غلافين، وإنما يتركن مكشوفاً وجههن فقط».

سهرة موسيقية بعد العشاء.

«ثم بعد أن اجتمعوا في القبة المذكورة حضر أصحاب الآلات والموسيقى، فتصدر صف من البنات لابساتٍ ثياباً بيضاء جالسات على كراسيهن، بيد كل واحدة كتابها، وجلس خلفهن الرجال وبيد كل واحدٍ آلته، فأخذوا في الطرب والغناء بلغتهم يتقدمهم شيخ كبير بيده قضيب يشير لهم به إلى إخفاء الصوت أو إجهاره، ويضربون في آلاتهم قليلاً ثم يسكتون ويجعلون ينظرون في تلك الأوراق التي أمامهم... وغناؤهم لا يطربنا ولا يهزنا فبقينا معهم هنيهة ثم انصرفنا عنهم وتركناهم».

سهرة مسرحية.

وفي ثامن يناير دعي الوفد السلطاني لمشاهدة مسرحية في التياترو ـ كما سماه الصفار وهو المسرح ـ وقد سبق له أن وصف كيف يكون التمثيل وكيف يتم تشخيص الروايات المسرحية، ولهذا فإنه لم يطل الوصف هنا، وانتقل إلى ذكر مأدبه إقامها وزير الوزراء صلت[10] ـ كما سماه ـ وقال عنه إنه شيخ كبير السن «ولم يكن عنده غناء ولا طرب إلا موسيقى أصحاب الأبواق والطبول... ثم تتابعت علينا الضيافات من وزرائهم، ولم تكن نذهب إلا لعند من يكون من ناحية السلطان وأهل الدولة».

سهرة في القصر الملكي.

ينتقل الصفّار إلى وصف حفلة ساهرة أقيمت بالقصر الملكي فيصورها لنا تصويراً بديعاً إذ يقول :

«وفي يوم الأربعاء خامس عشر من الشهر دعانا السلطان لليلة رقصٍ يعملها كلّ عام في داره في ذلك الوقت، فذهبنا إليه فإذا تلك القصور كلّها قد امتلأت ببنات

9) لم يخطئ الصفار في ملاحظته هذه، فقد كانت النساء في ذلك العصر يحطن أردافهن فيما يلي الخصر بلباس يسمونه Jupon ينفتح فوقه المئزر فتبدو المرأة دقيقة الخصر واسعة الردف، وكن أيضاً يتحايلن منذ صغرهن على ترقيق خصورهن بمناطق خاصة اصطنعنها لذلك.

10) هو نيقولا سولت، دوق دالمتي Nicolas Soult, Duc Dalmatie (1769 ـ 1851)، مارشال من ألمع القادة العسكريين، شهد عدداً من المعارك التي قادها نابليون كمعركة أوسترليتس عام 1804، تقلب في عدة مناصب سامية فكان وزيراً للحرب عدة مرات وأصبح رئيساً لمجلس الوزراء في عهد لوي فليب، إلا أنه لم يكن يملك من السلطة شيئاً سوى الاسم، إذ كان زمام الأمور بيد وزير الخارجية القوي كَيزو، وكان سولت عريض الثراء.

الروم البارعات الحسن والجمال متجرّدات الأجياد والنحور، رقاق الخصور، ثقال الأرداف، عراض الصدور، يخجلن بحسنهن الشموس والبدور، عليهن من الحلي والحلل ما لا يصفه واصف ولا يضبطه عارف، قد شمرن عن أذرع كأنهن البرق الخاطف يبهرن العقول بلماهن المعسول ورشاقة القدود وحمرة الخدود، وتثني الغصون... ومعهن أضعافهن من الرجال، لكن النساء معتزلات على حدة، بعضهن جالسات وبعضهن وقوف... وبعد اجتماع الناس تكلمت الموسيقي وأخذوا في الرقص رجالاً ونساءً، يأخذ الرجل بيد المرأة ويجعلان يرقصان رقصاً عجيباً... ومن أبلغ أنواع الرقص عندهن أن يمسكها الرجل من خصرها ويضمها لعنده بلطافة بحيث لا يعصرها، ويجعل يرقص معها، ورقصهم إنما هو بالدوران والإشارة بالقدمين، يرقص النساء وحدهن والرجال وحدهم، وتارة يمسك رجلان امرأة ويرقصان معها وليس ذلك عندهم عيباً ولا مخلا بالمروءة، فترقص المرأة بحضور زوجها مع غيره، وإذا ترادف عليها الرجال بحيث يطلقها هذا ويمسكها هذا رغبة منهم في الرقص معها،فإنها تنشط لذلك وتفرح له... وقد رأيت السلطان بنفسه واقفاً وأولاده ونساء أولاده وبناته يرقصون بعضهم مع بعض ومع غيرهم، وهو يفرح لذلك ويضحك. والحاصل، هذا عندهم من الفرح الكبير والزهو العجيب... حتى إذا فرغوا من الرقص واستقصوا فيه جهدهم أمسكوا عنه فنصبت موائد الأطعمة... بل كانت تهيأ من أول الليل... قيل إن جملة من حضر هذه الليلة من الرجال والنساء أربعة آلاف... وذكر أن جملة ما يصرفه السلطان على هذه الليلة عشرون ألف ريال».

زيارة المؤسسات الثقافية والمنشآت العمومية.

نظمت الحكومة الفرنسية برنامجاً حافلاً مكن الوفد السلطاني من الاطلاع على مختلف أوجه النشاط الثقافي والاقتصادي والاجتماعي في عاصمة البلاد. فمن المؤسسات التي زارها الوفد :

1) **دار الكتب السلطانية**[11]. وصفها الصفار بقوله : «إنها دار كبيرة لها أربع طبقات في كل طبقة خمسة أو ستة بيوت كبار عالية جدا، وكل جوانب البيوت من الأرض إلى السقف مملوءة كتباً في خزائن من الخشب، وزيد في وسط البيت صناديق عالية صفاً واحداً على طول البيت، وكل هذه الكتب بالتسافير الحمراء الجيدة مرتبة أحسن ترتيب، وكل واحد مكتوب عليه اسمه في ظاهر جلدته... وكل هذه البيوت في غاية النظام لا يوجد فيها زبل ولا غبار ولا عنكبوت ولا سوس في الكتب ولا بق... ولها قومة وخدمة يقومون عليها ويحفظونها، وبيد كبيرهم مفتاح تلك البيوت، ولا يمنعون من أراد الدخول لها، لكن يدخل ويجلس في بيت معلوم في وسطه مائدة احتف بها كراسي للجلوس، ويطلب من قيمها ما شاء من الكتب فيأتيه به لينظر فيه هنالك وينسخ منه إن أراد ويطالع ما أراد حتى يقضي غرضه ويذهب، ولا يرخص لأحد في إخراج كتاب واحد منها، وقومتها دائما فيها... ويعرفون أسماء جميع ما فيها الكتب... وفيهم من يعرف العربية، فإذا دخلها عربي وجد من يفهم كلامه، وهذه الكتب التي فيها على كل نوع منها العربي - مغربية ومشرقية - مكتوباً بالقلم ومطبوعا بالاسطمبا -[12] ومنها العجمي بسائر أجناسه يوناني ولتيني وهندي وتركي وقبطي وحبشي وفارسي وغير ذلك. طلبنا منهم الكتب العربية فأحضروا لنا مصحفاً عظيماً في مجلّد كبير يحمله إثنان من الناس لكبره، وهو بخط مشرقي لم ير مثله حسناً وبهجة ورونقاً وكمالاً، ولا يوصف ما فيه من الحلية والذهب مما يستحقّ أن يكون في خزانة ملوك الإسلام... وهو في غاية من الحفظ والصون... ثم أتوا لنا بموطأ الإمام مالك بخط أندلسي في رقّ، ثم شرح العيني على الجامع الصحيح، ثم كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون وغيرها من الكتب العربية... ثم

11) لعله يقصد ما يعرف اليوم بالمكتبة الوطنية بباريس La Bibliothèque Nationale، كما يظهر من كلامه على محتوياتها.

12) الإسطمبا Estampa كلمة إسبانية، ويقابلها بالفرنسية Estampe، ومعناها الصورة المطبوعة على الورق من أصلها المحفور على الحجر أو الخشب أو المعدن.

أدخلونا سائر البيوت وأطلعونا على جميع ما فيها من الكتب في الجملة وكيف كان مثال الكتابة أولاً، وكيف صارت... وفيها زيادة على الكتب كثير من مآثر القدماء كخواتمهم التي كانوايتختمون بها ودروع الحديد التي كانت للملوك... وهم إذا ظفروا بحاجة ملك أو كبير أو بشيء غريب حافظوا عليه وتركوه في خزائنهم... ولم يضيعوه... [وفي الخزانة] كثير من سكك القدماء كسكة ملوك الأندلس وملوك المغرب، وكل سكة موضوعة في دارة صغيرة مكتوب عليها اسم سلطانها ومحلّها... وهناك كثير من أشكال مفاتيح الأولين وأثاثهم، ومن جملة ذلك قدح من الذهب مرتفع على ساق صغيرة مرصع بالجواهر والأحجار زعموا أنه كان لهارون الرشيد، أرسله لهم مكافأة على مصحف كان عندهم... [وهناك] كثير من مآثر اليونانيين».

2 - مشاهدة تظاهرة عسكرية.

وفي اليوم التالي دعي الوفد السلطاني لمشاهدة عرض عسكري اتخذ شكل مناورة وقام به سلاح الفرسان والمشاة، وقد لاحظ الصفار أن هذه الدعوة هي في ظاهر الأمر إكرام وزيادة اعتناء بالوفد، ولكن مغزاها الباطني هو «زيادة في تبكيتنا والتنكيت علينا».

ويخبرنا الصفّار أن السفير عبد القادر أشعاش امتطى صهوة فرس بمجرد وصوله إلى مكان العرض وركب معه «بعض فرسانه»، وهذايدل على أن جماعة من الفرسان المغاربة كانوا ضمن حاشية السفير، وأما بقية أعضاء الوفد فقد خصص لهم مكان في شرفة الدار الكبيرة»، يقول الصفار : «فأشرفنا على ميدان كبير واسع... والعسكر واقفون يميناً وشمالاً، الخيل في جهة والرجالة في جهة، فلا ترى إلا بريق السيوف ولمعان التوافل[13] وإشراق البيضات على رءوس البعض منهم... وكان في صدر الميدان ولد السلطان الأكبر[14] مع باقي إخوته فأوقفوا رئيسنا معهم، وجعلنا ننظر، ثم تحركت العساكر فانزاحت الخيل عن محلّها وجعلت تذهب إلى طرف الميدان، وتزحزحت الرجالة أيضاً». وقد حاول الصفار أن يرسم لهذا الحفل الاستعراضي صورة كاملة وبأدق التفاصيل عن حركات الجنود وأسلحتهم وملابسهم وبديع نظامهم في الحركة والوقوف، وكان عليه أن يسجل في خاتمة وصفه الطويل للعرض العسكري انطباعه بهذه العبارات الممزوجة بالمرارة : «...ومضوا وتركوا قلوبنا تشتعل ناراً لما رأينا من قوتهم وضبطهم وحزمهم وحسن ترتيبهم ووضعهم كلّ شيء في محله مع ضعف الإسلام وانحلال قوته واختلال أمر أهله. وهنا يضع الصفّار يده على موطن ضعف المسلمين وقوة أوربا المسيحية فيقول عن شعوبها : «فما أحزمهم وما أشد استعدادهم وما أتقن أمورهم وأضبط قوانينهم... وما أقواهم على عدوهم لا بقلوب ولا بشجاعة ولا بغيرة دين، وإنما ذلك بنظامهم العجيب... واتّباع قوانينهم التي هي عندهم لا تنخرم، إن صدرت من أحدهم زلة أجروا عليه شريعتها سواء كان رفيعاً أو وضيعاً، وإن ظهرت لأحد منهم مزية أو قوة فإنه لا يطمع في أن يأخذ غير ما هو له ولا يخاف على ما في يده أن ينزع منه، فعلى ذلك يبذلون مهجهم في المعارك» ويختم الصفار كلامه بهذا الدعاء الصالح : «اللهم أعد للإسلام عزته وجدد للدين نصرته بجاه النبي ﷺ».

3 - في متحف اللوفر.[15]

زار الوفد السلطاني في اليوم التالي القصر الملكي[16]، وهو بناء تاريخي عظيم ضخم مشتمل على

13) التوافل (جمع تافلة) : لفظ عامي مغربي يقصد به الرمح أو السكين التي تركب في البندقية.

14) الابن الأكبر للملك لوي فليب هو أمير جوانفيل.

15) اللوفر Musé du Louvre، قصر يحتضن المتحف المركزي للفنون في باريس، وهو من أشهر معالمها ومن أثرى متاحف الدنيا، أنشئ رسمياً عام 1791 وتم تدشينه بعد سنتين.

16) Palais - Royal، يطلق هذا الاسم على مجموعة من الأبنية والحدائق تقوم في باريس قريباً من متحف اللوفر وشارع سانت أونوري، وقد كانت النواة الأولى في هذه المجموعة ملكاً للكاردينال ريشليو Cardinal Richelieu منذ عام 1624 ثم دخل في حوزة ملوك فرنسا. ويوجد الآن في بعض أبنية الهالي رويال مجلس الدولة والمجلس الدستوري وبعض ملحقات إدارة الفنون، وفي هذا المكان مسرح ودور للسكنى ومتاجر.

أنواع الأثاث الملوكي الفاخر «محفوظ مصون يتعاهده الخدمة كل وقت، وهو فارغ لا يسكنه أحد، وفيه أثاث سلطانهم المتولى الآن وتصاوير أقاربه».

وأما قصر اللوفر، القريب من القصر الملكي فقد لاحظ الصفار «أن فيه من التصاوير والتماثيل ما لا يحصى» وذكر مواضيع كثير من اللوحات والتماثيل المعروضة، ولم يفته ملاحظة المآثر الفرعونية المحفوظة باللوفر من موميات وتوابيت وتماثيل، ويعلق الصفار على ذلك بقوله : «وكان أوائل أهل مصر إذا مات لهم ميت فعلوا به ذلك [أي حنطوه] وتركوه في داره».

ويتابع الصفار وصف مشاهداته في اللوفر فيقول : «ومن جملة ما في هذه الدار بيوت عديدة في طبقة من طبقاتها فيها تصاوير مراسي بلادهم وقدر كل مرسى وعمارتها وما تتميز به عن غيرها، وفيها أمثلة أنواع المراكب، حقيقة لا تصويراً... وكيفية إنشاء المركب من أول مرة وأين يوضع... وفيها كثير من آلات الحرب القديمة كالأقواس والدرقات والدروع والرماح وغير ذلك، وفيها أمثلة المدافع كباراً وصغاراً... والحاصل هو قصر مشيد ضخم... مزخرف لولا كثرة ما فيه من التصاوير فإنها تقبح حسنه».

4 - في معهد الفيزياء والكيمياء.

وفي اليوم التالي زار الوفد معهد الفيزياء - وقد سماه الصفار «دار الفيزك» وقال عن هذا الفرع من العلوم : «ومداره على علم معرفة طبائع ذوات الأشياء كجذب المغناطيس وتموج الهواء بالصوت الذي يسير فيه وغير ذلك مما لم نعرف له اسماً، وفي هذه الدار آلات غريبة... فأول ما لقينا فيها دائرة مربعة من قنانيط[17] من صفر [أي من النحاس الأصفر] واقفة على سوقها يتصل بها غير ذلك من الحركات [الآلات] من أعلاها، وفي وجه منها زجاجة كبيرة على شكل دائرة الناعورة تحرك تلك الزجاجة بيد كير الناعورة فتدور كما تدور الناعورة، فإذا دورت هذه الزجاجة وقرب شخص يده من تلك القنانيط خرج له منها مثل البرق في لونه وسرعته إلا أنه نقط مترادفة فتؤثر في يده كأنما ضرب بشيء يؤلمه ضربة سريعة، لكن لا يبقى لها بعد ذلك أثر وجع... وأعجب من هذا أنه وقف شخص في حال تدوير الزجاجة فأمسك بيده كرة من صفر متصلة بالقنوطة المواجهة للزجاجة فجعل شعر رأسه ينتفش... وأمسك تلك الكرة بيده اليمنى ومد يده اليسرى متباعدة منه فقرب شخص منها يده فخرج له من تلك اليد الممدودة ذلك البرق الذي كان يخرج أولاً من القنانيط مع أن الماسك لا يتأثر بشيء من ذلك... وتلك القنانيط مسدودة من كل جهة، ويزعمون أن ذلك مثال لبرق السماء وأنه نشأ عن انضغاط الهواء بعضه ببعض كما تنشأ النار عن الانضغاط الواقع بين الحجر والحديد...»[18].

ويمضي الصفار في وصف بعض ما شاهده في معهد الفيزياء من آلات مستحدثة وتجارب مخبرية، ومن ذلك آلة التلفون التي توقف عندها الكاتب محاولاً وصفها فقال :

«ومن أعجب ما رأيناه في هذا المحل وأغربه حركة آلة يصل بها الخبر من محل إلى محل في لحظة وإن كان بعيداً مع استيفائه واستيعابه لأنها بالكتابة، وبيان ذلك أنهم جعلوا دائرة من صفر مصتة كوجه المكانة [الساعة] وبسطوها ورسموا في دائرتها الحروف كلها وحركاتها... وهذه الدائرة مسمرة في كرسي منزلة عليه مبسوطة، وفي جانب كرسيها ثقب بعدد الحروف، تحت كل حرف ثقب، ثم عملوا قبالتها دائرة أخرى فيها الحروف كلها أيضاً إلا أنها قائمة مبسوطة وفي وسطها مري يصل رأسه للحروف، ووصلوا بين الدائرتين بخيطين أحدهما من جانب والثاني من الجانب الآخر، وكأن الخيطين من سلك معدني فيهما تجعيد، فإذا أراد المتكلم أن يتكلم مع صاحبه... عمد إلى أول حرف منها في الدائرة المبسوطة فغرز إبرة في الثقب

17) قنانيط (جمع قنوطة) : لفظ عامي من أصل أسباني مستعمل في تطوان، ومعناه الوشيعة من خشب أو قصب يلف حولها الخيط ونحوه، والمقصود هنا ما يسمى باللغة الفرنسية Bobine وأصلها من الأسبانية cañete بمعنى قصبة قصيرة.

18) يبدو أن الصفار يصف هنا آلة لتوليد التيار الكهربائي.

الذي تحت ذلك الحرف ويدورها حتى يحصرها خازوق هنالك، وفي حال حركة هذا الحرف يتحرك المري الذي في الدائرة الأخرى فيجعل يدور حتى يصل لذلك الحرف فيقف عنده ثم يشير لحركته فيشير لها المري أيضاً، وهكذا، فكلما أشار الأول لحرف ودور الدائرة حتى يحصرها الحاصر الذي هنالك أشار المري الذي في الدائرة الأخرى لذلك الحرف حتى يقف عنده، وهكذا، حتى يستوعب ما شاء من الكلام مع صاحبه مع فهم كامل وتبليغ تامّ في أبلغ سرعة. زعموا أنه لو اتصلت هذه الحركة بين هاتين الدائرتين لوصل الكلام من الأولى للثانية - إذا كان بينهما مائة ألف وخمسة عشر ألف ساعة - في ثانية من الثّواني التي هي سدس عشر الدقيقة، وهذا أمر يكاد يحيله [يستبعده] العقل، لكن من شاهد ذلك لا ينكره... وزعموا أنهم أوصلوا هذه الحركة من باريس إلى أورليان، وبينهما تسعون ميلاً، وأنها عندهم أيضاً من القمرة التي يجتمعون فيها لتدبير قوانينهم إلى دار السلطان بعمل مغيب تحت الأرض [يقصد الأسلاك][19]، وهذه صورة ذلك في الجملة بتقريب :

5 - في المطبعة الرسمية.

وفي يوم الخميس 23 ذي الحجة زار الوفد السلطاني المطبعة الرسمية أو «دار طبع الكتب المسماة بالاصطمبا» - كما سماها الكاتب - وقد قدم عنها وصفاً مفصلاً (شكل الحروف المعدنية، كيفية التصفيف، الطبع والسحب، عمال المطبعة وطريقتهم في العمل، الطباعة الحجرية...).

6 - في البنطيون[20].

وبعد المطبعة قام الوفد بزيارة البنطيون، وهو - كما قال الكاتب - : «مدفن عظمائهم، وقبورهم في مخادع تحت الأرض في صناديق من الحجر موضوعة على وجه الأرض... وهناك تصاوير آدميين عظام الأجسام بيد واحد منهم تاج، زعموا أنها صورة الزمان وأن من مات من الملوك نزع منه تاجه وألبسه آخر، فهم يفنون ويموتون وهو لا يموت».

7 - في قصر سان كلو وقصر فرساي[21].

ومن المعالم التي زارها الوفد السلطاني قصر سان كلو وقصر فرساي، قال عنهما الكاتب : «...هما من القصور المشيدة احتف بكل واحد منهما بستان عظيم فيه أشجار أنيقة ومياه متدفقة وصهاريج وتماثيل كلها تلفظ الماء الزلال... واعتناؤهم بالبساتين غالباً إنما هو بمد الطرقات وتعديلها وتنقية الأشجار حتى تكون مستوية بعضها ببعض من فوق ومن تحت، وفيها جلسات وتربيعات... وبيوت للنباتات... والماء بها كثير ولا يدرك لها طرف لكبرها، وغالبا ما رأيناه في قصور فرساي تصاوير الحروب من أول الزمان إلى الآن... وفيها تصاوير عظمائهم وسلاطينهم وشجعانهم ورهبانهم منها ما هو من الحجارة ومنها ما هو نقش ورقوم، فرأينا عندهم هناك صورة دخولهم مدينة

---

19) بدأت فرنسا باستعمال التلغراف الهوائي في أواخر النصف الثاني من القرن الثامن عشر، إلا أن استعمال الكهرباء في نقل العلامات بين مكانيين متباعدين لم يبدأ إلا سنة 1843، بفضل أعمال مورس، ثم عرف التلغراف السلكي تطورات متتالية على يد الفرنسي بودو Baudot وغيره. أما التلفون فقد قطع عدة مراحل منها استعمال آلة تنقل الذبذبات بواسطة خيط يوصل بين جهازين، أما التلفون الذي أمكن انتقال الصوت بواسطته فقد اخترعه الأمريكي جراهام جرين G. Green عام 1876. ويبدو أن الصفار يصف إحدى التجارب المتعلقة بالتلفون الناقل للذبذبات كما يظهر من الصورة التقريبية التي رسمها في كتابه.

20) البانطيون Panthéon من معالم باريس في الحي اللاتيني، وهو صرح أقيم في مكان كنيسة قديمة بعناية لوي الخامس عشر، ولم يتم تشييده كاملاً إلا عام 1812، وفيه مقابر مشاهير رجال فرنسا من الفلاسفة والأدباء أمثال ميرابو وفولتير وروسو وفيكتور هوجو وغيرهم.

21) سان كلو Saint Cloud حي سكني في غرب باريس في أعالي نهر السين، كان فيه قصر حصين شيد في القرن السادس عشر، وقد شب فيه حريق عام 1870 أثناء محاصرة باريس أيام نابليون الثالث، وتحول إلى أنقاض ثم أصبح أثراً بعد عين، وقد شاهد الصفار هذا القصر قبل دماره. وأما فرساي Versailles، فهو من أعظم قصور فرنسا التاريخية واقع في بلدة فرساي على بعد 11 كم من باريس تحفه بساتين شاسعة، شرع في بنائه الملك لويس الرابع عشر عام 1668 وذلك في المكان الذي أقام فيه لويس الثالث عشر استراحة للصيد، ولم يزل هذا القصر يوسع ويجدد إلى عام 1875. وهو من المعالم الأثرية والفنية الكبرى في فرنسا.

الجزائر ومدينة القسنطينة وصورة تغلبهم على تلك النواحي كلها، وصورة السلطان العثماني عبدالميجد وصورة محمد بن علي باشا والي مصر. وغالب درج هذا القصر من المرمر الملون، وفيه مواضع وبيوت كانت لسلطانهم لويز السادس عشر، ولما مات بقيت تلك الأماكن على هيأتها بجميع أثاثها يحفظ ويصان حتى فراشه ومواضع جلوسه وتاجه وكنيسته».

8 - في البرلمان.

ومن المؤسسات التي زارها الوفد السلطاني البرلمان بمجلسيه : مجلس النواب ومجلس الشيوخ، ويسمي الصفّار كل مجلس قمرة[22]، وهي - كما قال - : «دار يجتمعون فيها لتدبير قوانينهم والكلام في أمورهم. وبناء موضع الاجتماع عبارة عن قبة على شكل التياترو، في أرضه انحدار كله مصفف بالكراسي، وفائدة الانحدار أن يروا كلهم من يكون أمامهم، وفي نهاية الكراسي مرقاة على شكل المنبر إلا أن درجها من جانبها، فمن يريد التكلم يصعد تلك المرقاة حتى يكون مشرفاً على الجالسين ويتكلم بما يريد أن يتكلم به، وأمام كل واحد من الجالسين الدواة والقلم والكاغد، فالمتكلم يتكلم وهذا يكتب حتى يذهب ويخلو ويتأمل في ذلك الكلام فيوافق عليه أن يرده بحجته، وإن ظهر لأحد من الجالسين أن يعارض ذلك المتكلم معارضة قريبة قام عن كرسيه وتكلم معه، وإن كانت المعارضة طويلة انتظر دوره في الكلام ثم يصعد ذلك المنبر ويقول ما بدا له، وخلف ذلك المتكلم ثلاثة من الناس[23] وظيفتهم - إذا طال الكلام في مسألة - أن يمضوا الحكم فيها ويقطعوا الكلام وذلك بقانون معلوم به يقع ترجيح أحد الجانبين... والحكم للأكثر عدداً، فإذا قال عشرة كذا وقال عشرون بخلافهم فالحكم بما قاله العشرون، ولو زاد أحد الفريقين على الآخر بشخص واحد. وهذا هو شكل القمرة الصغيرة أيضاً، ومن وظيفتها تجديد قانون أو إبقاء قانون موجود على حاله، والفرق بين القمرتين أن القمرة الكبيرة تحامي عن الملك ورؤساء الدولة وتعضد أمرهم، والصغيرة تحامي عن الرعية وتنصرها وتطلب حقوقها، فكأنها خصم للأخرى، ولا يحضر القمرة الكبيرة إلا من بلغ عمره خمساً وعشرين سنة ولا يستحق الكلام فيها إلا إذا بلغ الثلاثين، فإذا كان من أقارب الملك فإنه يدخلها من صغره ولا يستحق الكلام فيها إلا إذا بلغ خمساً وعشرين سنة، والذين يحضرون في القمرة الكبيرة غالبهم رؤساء الدولة من الوزراء والقضاة والحكام وكبراء معلومون لذلك، والذين يحضرون القمرة الصغيرة هم وكلاء نواب الرعية يبعثونهم من سائر البلاد وعددهم أربعمائة ونيف، ويشترط فيهم وفي من ينتخبهم شروط معلومة عندهم منها أنه لا يدخل هذا الديوان... إلا من بلغ أربعين سنة، وأن تكون له أملاك يؤدي عنها لبيت المال في خراجها ألف فرنك، ومن شرط من ينتخبهم أن يبلغ عمره ثلاثين سنة وأن تكون له أملاك يؤدي عليها ثلاثمائة فرنك فأكثر في العام»[24].

«وهذا الديوان لا يفتح إلا من رأس السنة لرأس السنة، ولا يفتح إلا إذا أمر السلطان بفتحه، ومتى أراد إبطاله أبطله بشرط أن يجدد آخر بأناس آخرين وأن لا تزيد مدة تجديد الآخر على ثلاثة أشهر».

«ولا يمضي قانون من قوانينهم ولا حكم من أحكامهم إلا إذا اتفق عليه أهل القمرة الصغيرة والقمرة الكبيرة والسلطان ووزراؤه، وأما أحكام النوازل والجزئيات فهي

---

22) قمرة لفظة إسبانية « Camara » يقابلها في الفرنسية Chambre، ومعناها الغرفة، وتطلق على مجلس النواب أو الشيوخ.

23) يقصد أعضاء مكتب المجلس.

24) القانون الذي يقصده الصفار هو ما كان يسمى في ذلك الوقت بالميثاق الدستوري « La Charte constitutionnelle » الذي أصدره الملك لوي الثامن عشر عام 1814، وأقر هذا الميثاق مبدأ المساواة وأن الكاثوليكية هي دين الدولة الرسمي، ونص على أن تكون السلطة التشريعية في يد مجلس النواب ومجلس الأعيان، فالنواب ينتخبون بالاقتراع من بين الملاك العقاريين الذين يؤدون ضريبة غير مباشرة لا تقل عن 300 فرنك، أما الأعيان فمنهم أعضاء بالحق الوراثي ومنهم معينون بصفة دائمة، وفي ظل هذا النظام احتفظت الهيأة التنفيذية لنفسها بسلطات واسعة. وقد تمت مراجعة هذا الميثاق عام 1830، وكان من مزايا هذه المراجعة إقرار حرية الصحافة ورفع الرقابة عنها، وأصبح لمجلس النواب نوع من المبادرة في سن القوانين، وما ذكره الصفار من معلومات لا يبعد عن الصواب.

عندهم مدونة في الكتب، ولا يستقل السلطان وحده بحكم من الأحكام، لكن لا يمضي حكم إلا إذا أنفذه بأمره، وهو أعظم أهل الدولة يأمر وينهى في عساكر البر والبحر، وهو الذي يولي المناصب الأصلية».

بعد هذا الفصل المتعلق بالبرلمان وتنظيمه، يخبرنا الصفار بأن الوفد السلطاني قان بزيارة مدرسة ثانوية عدد التلاميذ بها ألف ومائة وخمسة وعشرون منهم داخليون وخارجيون، وعدد أساتذتها أربعون، ويصف مبنى المدرسة وأقسامها ومرافقها المختلفة والمواد العلمية التي تلقن بها وأنواع الرياضة التي يمارسها التلاميذ وما يلقونه من عناية طبية بها، ومن العلوم التي ذكره الصفار أنها تدرس بهذه المؤسسة : الحساب والهندسة والفلسفة واللسان والطبيعة والكيمياء والرسم، ويتكلم الصفار أيضاً على دار من دور الحضانة زارها الوفد.

وفي خاتمة الكتاب يقدم المؤلف معلومات طريفة عن المهام الرئيسية للبرلمان والحكومة نلخصها فيما يلي :

- حينما يتخذ البرلمان قراراً بالمصادقة على الميزانية العامة (المداخيل والنفقات) يطبع القانون المالي ويوزع «ومن قوانينهم أن جعلوا الداخل يدخل بيد وزير الخزينة... ويخرج على يد الوزراء جميعاً، كل واحد وما يخرج على يده، وبيان ذلك أنهم رأوا أن السلطان وحده لا يستقل بأمور الرعية كلها... واتخذوا عدة أناس سموهم وزراء وكلفوا كل واحد بأمر خاص وجعلوا نظره قاصراً عليه».

- «وهم تسعة وزراء : **الأول** وزير الخزينة... ويدخل بيده جميع جبايات فرنسا ومنها يخرج أيضاً، ويدفع لكل وزير ما يصرف على يده، **والثاني** وزير الأمور الخارجية، ووظيفته النظر في كل ما هو خارج فرنسا... من نصب القناصل وبعث الباشدورات (السفراء) للبلاد وتولي الكلام مع الممالك الخارجة عنهم، ويبعث للأقاليم من يتجسس الأخبار، وينظر في أمور الرعايا الأجانب في فرنسا. **والثالث** وزير الأمور الداخلية... وله النظر في تولية الحكام في سائر البلاد وتفقد مصالحها وضبط أمور الرعية... **والرابع** وزير محكمة الدين والشرع (يقصد وزير العدل) وله النظر في أمور الكنائس وتولية القضاة والشهود وغير ذلك، **والخامس** وزير المدارس... وله النظر في أمور التعليم ونظام المدارس والمكاتب، ويبعث للأقاليم من يأتيهم بعلم جديد ولو في أمور الغرس والنبات، **والسادس** وزير التجارة والزراعة، ووظيفته النظر في كل ما يتعلق بهما، **والسابع** وزير البناء والطرق والقناطر وما يتعلق بذلك، **والثامن** وزير الحرب، وله النظر في كل ما يتعلق بالبر من العساكر ونظامها وآلاتها وإقامتها، وله النظر في السلاح وكل ما يتعلق بأمور الحرب، **والتاسع** وزير البحر، وله النظر في المراكب وتعليم علوم البحر والصنائع التي تخصه.

- «الحساب عندهم كله على الفرنك الذي هو خمس الريال، ومن قوانينهم إذا احتاجوا لعمل طريق أو إجراء نهر أو نحو ذلك ولم يكن عندهم ما يفي بذلك فيتسلفون من التجار ما ينفقونه في ذلك ويعطونهم فائدته ما دام عندهم حتى يردوه»[25] ومن قوانينهم أيضاً أنهم - إذا أرادوا أن يولوا أحداً على قبض مال للدولة - كأمناء أعشار المراسي وغيرهم - فإنهم يأخذون منه قدراً من المال يودعونه في خزينتهم كأنه رهن ليلا يضيع شيئا من مال الدولة، ويعطونه فائدته ما دام عندهم».

- «ومن قوانينهم أنه إذا ضعف أحد خدام الدولة عن الخدمة لعذر... فإنهم يرتبون له ما يكفيه ولا يضيعونه».

- «قدر ما يعطونه كل عام لسلطانهم ثلاثة عشر مليوناً وثلاثمائة ألف، ويدفع للقمرة الكبيرة لخدمتها وضوئها وحطبها وإصلاحها... سبعمائة وعشرون ألفاً،

25) يشير الكاتب هنا إلى الاقتراض العمومي والسندات التي تصدرها الدولة في سبيل ذلك.

وللقمرة الصغيرة سبعمائة ألف وأربعة وسبعون ألفاً وأربعمائة وواحد وخمسون، ويتقاضى كل وزير من الخزينة ثمانين ألفاً.

بعد أن يقدم الكاتب بيانات بالأرقام عن ميزانية كل وزارة ينتقل للكلام على مداخيل الدولة ومصادرها وطرق جباية الأموال، ثم يتطرق إلى النظام النقدي والأوراق البنكية وتداولها ويتكلم على نظام التعامل التجاري، وبذلك يختم الكتاب ويفرغ من تحريره في حادي عشر رمضان عام اثنين وستين ومائتين وألف.

☆ ☆ ☆

قدمت خلاصة وافية لأهم ما جاء في كتاب الصفار الذي اتخذ شكل تقرير مفصل عن مقام الوفد السلطاني ومشاهداته في فرنسا، وهو تقرير دقيق زاخر بالمعلومات المفيدة المستقاة من المشاهدة العينية ومن المصادر الموثوقة كالصحف، بما فيها الجريدة الرسمية، التي كان الصفار حريصاً على معرفة ما فيها، تترجم له ويدون ما يتلقاه من أخبار وبيانات من التراجمة ومرافقي الوفد السلطاني، وكانت دقة ملاحظته وفضوله ونفاذ بصيرته عوناً له على جمع مادة كتابه، ولم يبد على هذا الدبلوماسي الشاب أي أندهاش أو انبهار بما رآه من أشياء جديدة، بل إنه كان في كثير من الأحيان يحاول أن يستخلص العبرة مما يشاهده من مظاهر النظام والجد والحزم والمدنية، ومما يؤسف له أن الصفار لم يتح له أن يقوم بجولة في أحياء باريس ليتصل فيها بعامة الناس ويعطينا صورة عن حياتهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية ومطامحهم الثقافية والسياسية، وقد أخبرنا الصفار أن تنقلات الوفد كانت محدودة في النطاق الرسمي، وأن أعضاءه كانوا لا يغادرون مقر إقامتهم في أوقات الفراغ حرصاً على حرمة الوفد وسمعة البلاد، ومع ذلك فإن الصفار قد استطاع، بفضوله الكبير، أن يلتقط معلومات عن طباع أهل باريس وعن بعض أوجه الحياة فيها، فهو - مثلا - يعطينا قائمة مفصلة عن عدد رءوس الضأن والبقر والدجاج التي تذبح في باريس لاستهلاك السكان كما يعطينا بيانات عن أسعار المواد الغذائية في الأسواق، وعن أصناف الأطعمة والأشربة التي يفضلها الفرنسيون، وعن آداب المائدة عندهم، ولو أن الصفار تمكن من الاحتكاك بمختلف أوساط باريس لأعطانا عنها صورة تفسر ما قاله الكاتب الفرنسي أونوري دي بالزاك H. de Balzac في مطلع كتابه «أهل باريس كما هم» :

«باريس بلد المتناقضات، فهي محط الوحل والقاذورات والعجائب، وملتقى النباهة والخمول، والبذخ والبؤس، والشعبذة والوجاهة، والترف والفاقة، والفضائل والرذائل، والمروءة والفجور...»[26]. والجدير بالذكر أن بلزاك يتحدث هنا عن باريس كما كانت في الوقت الذي زارها الوفد المغربي.

كتاب المولى عبد الرحمن إلى لوي فليب.

أوفد السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام سفيره السيد عبد القادر أشعاش إلى باريس في وقت كانت العلاقات المغربية الفرنسية تجتاز مرحلة دقيقة وصعبة تضاعفت أثناءها مخاوف المملكة المغربية من المطامع الاستعمارية الفرنسية. فبعد احتلال الجزائر عام 1830، نهضت في هذا القطر الشقيق المجاور حركة مقاومة مسلحة بقيادة الأمير عبد القادر بن محيي الدين الحسني عام 1832، إلا أن هذه الحركة التي ساندها المغرب بدأت تضعف إذ فقدت الكثير من أنصارها من سكان الجزائر أنفسهم وتحولت منذ عام 1843 إلى محض غارات ومناوشات تنطلق في الغالب من المغرب. وحينما أصيبت الحامية المغربية بهزيمة في وادي إيسلي في 14 أغسطس 1844 ضاعفت القوات الفرنسية الغازية من ضغطها على

---

26) من كتاب « Les parisiens comme ils sont » تأليف أونوري دو بالزاك، جنيف 1947، الناشر La Pistine ص : 3.

المغرب باحتلال وجدة وضرب الصويرة من البحر واحتلال جزيرتها، وبذلك وجدت فرنسا الفرصة مواتية لفرض معاهدة مهينة على المغرب، وهي المعاهدة التي أبرمت بمدينة طنجة في عاشر سبتمبر 1844، ورفض المولى عبد الرحمن التصديق عليها.

في هذه الظروف، إذن، أوفد عاهل المغرب سفارة لدى ملك الفرنسيين لوي فليب دورليان بعد سنة من إبرام تلك المعاهدة. وإذا كنا لا نعرف شيئاً عن طبيعة المحادثات التي دارت بين الوفد المغربي والحكومة الفرنسية خلال إقامة الوفد السلطاني في باريس إذ كان ذلك من الأسرار التي لا تقبل الإفشاء، فإننا نعرف نص خطاب الاعتماد الذي حمله معه السفير عبد القادر أشعاش، ولفظه :

بسم اللـــــــه الرحمن الرحيم

ولا حـــول ولا قـــوة إلا بـــــاللـــــه

من عبد الله، المعتصم بالله، المتوكل على الله، المجاهد في سبيل الله، أمير المؤمنين بالمغرب الأقصى، الشريف العلوي الحسني وهو :

(عبد الرحمن بن هشام، الله وليه).

أيد الله عساكره وجنوده، ونصر أعلامه حيثما توجّهت وبنوده، آمين.

إلى المحب الودود، الذي هو في عظماء الملوك معدود، حامل راية الرئاسة، والسابق المجلي في مضمار السياسة، الفرد الذي فاق أبناء جنسه، بما حاز من خصائص نفسه، السلطان لويز فلب ملك جنس فرانسة والحاكم على ممالكها الدانية والقاصية وفقه الله وسدده، والى سبيل الهدي أرشده، أما بعد فإن المراسلة بين الدول، والمواصلة بين الملوك الأول، تفتح للمودة أبواباً، وتيسر للمواصلة أسباباً، وتزيد الود تأكيداً، والعناية تجديداً، وتزرع حب الحب في القلوب، وتقرب البعيد وتيسر المطلوب، ولما رأينا ما برز به القدر، من هذا الكدر، الذي لم يكن في ورد عندنا ولا صدر، أردنا الوقوف في ذلك على عين الحقيقة، وسلوك السبيل إلى العلم بسببه والطريقة، طلباً للإنصاف، ورغبة في العدل الذي هو أحسن الأوصاف، واختباراً للمحبة التي قدم عهدها، وكان على يد الأسلاف عقدها، فاخترنا من بيوتات الخدمة والرياسة سفيراً، ورشحنا لحضرتكم من خاصتنا باشدوراً، وهو وإن كان صغير السن، فهو كبير الهمة والعقل، وهو الخديم الأنجب، والشاب الأنجد، الحاج عبد القادر ابن الخديم المرحوم الأرشد، القائد محمد أشعاش، وأصحبناه هذا الكتاب الشريف، والأمر الرفيع المنيف، ليكون للعهد مجددا، وللصلح المنعقد مؤكداً، وهو النائب عنا في إنهاء مسائل عرضت تكسب الود صفاء، وتزيد العهد ثباتاً ووفاء، فتأملوها بعين الإنصاف والعناية، وقابلوها مقابلة من شأنه الملاحظة والرعاية، فإن بصفائها تجري الأمور على مقتضاها، ويحسم مادتها تبلغ النفوس من هذه المهادنة مناها، والله أسأل أن ييسر أسباب التوفيق، والهداية إلى أحسن طريق، بمنه وفضله. وقيد بحضرة مكناسة الزيتون حاطها الله ورعاها، وأخصب روض مرعاها، في سابع عشر شوال الأبرك عام واحد وستين ومائتين وألف»[27].

27) نقل مولاي عبد الرحمن بن زيدان صورة هذه الرسالة من أصلها المحفوظ بوزارة الخارجية الفرنسية. انظر الاتحاف 5 : 176، وتاريخ تطوان لمحمد داود 3 : 295 ـ 296.

الزاوية المغربية في العصر السعدي

للأستاذ عبد الجواد السقاط

(القسم الأول)

يتميز تاريخ المغرب بجملة من السمات التي طبعته عبر مسيرته الطويلة، والتي جعلته مركز اهتمام الدارسين والباحثين، سواء في عصرنا الحاضر، أو في العصور المنصرمة.

ولعل من بين هذه السمات، ظاهرة الزوايا التي عرفها المغرب منذ عهد بعيد، والتي بلغت أوجها في أواخر الفترة السعدية، «حتى كاد عددها يفوق عدد المساجد»[1].

• مفهوم الزاوية

يبدو أن كلمة زاوية «كانت تطلق بادئ الأمر على صومعة الراهب المسيحي... ثم أطلقت على المسجد الصغير أو على المصلى، ولا يزال للكلمة هذا المعنى عند المسلمين في الشرق، ذلك أنهم يفرقون بينها وبين المسجد الذي يفوقها شأنها»[2].

أما في المغرب، فإذا نحن حاولنا الوقوف على مفهوم الزاوية، أمكننا أن نقف أولا عند تحديد ابن مرزوق الذي يقول : «والظاهر أن الزوايا عندنا بالمغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاجين من القاصدين»[3].

وهذا هو التحديد الذي انطلق منه الأستاذ محمد المنوني عندما حاول تعريف الزاوية في العصر المريني حيث قال : «كان المغرب المريني يستعمل كلمة الزاوية للدلالة على مؤسسات إحسانية تشيد بأرباض المدن أو في الفلوات برسم استقبال الواردين عليها لإيوائهم والقيام بضيافتهم، وذلك ما شرحه ابن مرزوق في هذه الفقرة»، يريد فقرة ابن مرزوق المتقدمة[4].

ويذهب صاحب «سلوك الطريق الوارية» إلى أن الزاوية «اتخذت أولا، والله أعلم، تشبيها وتبركا وتفاؤلا بالصفة التي كانت بمسجد النبي ﷺ ليأوي إليها الفقراء الذين لا أهل لهم ولا مال»[5].

على أن الاجتماع فيها - يقول الزبادي - «فلجلب منافع شتى منها قراءة الأحزاب... ونزول الأضياف الواردين من الإخوان»[6].

---

1) الزاوية الدلائية ص 56.
2) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد العاشر، ص 331.
3) المسند الصحيح الحسن، الباب 42، الفصل 4.
4) ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين ص 47.
5) سلوك الطريق الوارية ص 79.
6) المصدر السابق ص 81.

أما الحسن اليوسي فيذهب إلى أن «الزاوية لا حقيقة لها شرعا، ولا ذكر لها، وإنما لفظة محدثة، ومعناها مركب من أمرين.

أحدهما : التفرغ إلى عبادة الله، ويكون ذلك بالهرب من التشاغل بالدنيا وأسباب المعاش، والانكماش في خلوة أو في ركن بيت أو في مسجد للاشتغال بذكر الله والإقبال عليه، وبهذا، والله أعلم، سميت زاوية لأن الركن يسمى زاوية.

الثاني : إطعام الطعام، وهو في عادة المتأخرين، ويرجع معناه إلى إكرام الضيف وإلى الصدقة»[7].

وقد أضاف الأستاذ محمد بن تاويت جديدا إلى هذه التعريفات إذ جعل الزاوية ثلاثة أنواع :

1) الزاوية البسيطة : وهي التي لم تبن على ضريح وليّ، ولا نسبت إلى ولي، أو إلى طريقة صوفية.

2) الزاوية ذات الولي : وهي ما أنشئت حول ضريح، وتكتسب سمعة عظيمة من أجل ذلك، وسرعان ما تتحول إلى مركز عمراني كبير.

3) الزاوية الطرقية : وهي التي تنتسب إلى طريقة من الطرق الصوفية[8].

ولعلنا من خلال هذه التعريفات ننتهي إلى أن الزاوية المغربية كانت تضطلع بمهمتين اثنتين هما : التفرغ لعبادة الله أولا، ثم إيواء الوافدين عليها وإطعامهم ثانيا.

على أننا نجد من المهام التي تقوم بها الزاوية المغربية ما يتجاوز المهمتين المذكورتين، كالتعليم والجهاد، وذلك ما لخصه الدكتور عباس الجراري عندما أكد أن الزاوية في المغرب والشمال الإفريقي عامة «تعني المكان الذي يجتمع فيه شيخ مع أتباعه ومريديه وتلاميذه، ومكانا يتخذ للعبادة والتعليم، كما يتخذ للإطعام والإيواء، وقد يتخذ للتعبئة والجهاد حين يقتضي الأمر ذلك»[9].

وهكذا يتضح أن الزاوية المغربية، وخاصة في العصر السعدي، كانت عبارة عن مجموعة من المباني والمرافق ذات الطابع الديني والاجتماعي، كما كانت ميدانا لتعاطي العلم بشتى أصنافه وضروبه، علاوة على أنها كانت تعرف نظاما معينا يمدها بالقضاة والنظار والأساتذة وغيرهم.

وجدير بالذكر هنا أن إطلاق كلمة زاوية في المغرب، قد جاء بديلا لمصطلح «رباط» الذي يعني منشأة دينية وحربية، يتصل نظامها «بالجهاد أي الذب عن بلاد الإسلام والعمل على توسيع رقعتها بحد السيف»[10].

وقد عرف المغرب مجموعة من الرباطات منذ عهوده الأولى كرباط «تيط نفطر» من بلاد أزمور، وهو «من أقدم الرباطات بالمغرب قبل المرابطين، من أهله أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر إسحاق بن إسماعيل بن سعيد الصنهاجي المعروف بابن أمغار»[11].

ولقد اشتهر الموحدون بإقامتهم لرباطات مختلفة كانوا يتخذونها معقلا لجيوشهم، ومنطلقا لهم في القيام بمهمة الجهاد كرباط تازا الذي حصنه عبد المومن الموحدي عام 528 هـ، والذي منه خرج لقتال المرابطين[12]، ورباط الفتح الذي كانت تتجمع فيه جيوش الموحدين لعبور البحر نحو الأندلس[13]، ورباط سلا الذي نوى عبد المومن الموحدي أن ينطلق منه إلى الجهاد، ولكنه مرض فمات[14] فلم تتحقق رغبته.

7) رسائل اليوسي، ج 2، ص 371.
8) الأدب المغربي ص 88.
9) الشعر الدلائي، التقديم، ص 6.
10) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد العاشر، ص 19.

11) التشوف ص 209.
12) الاستقصا ج 2 ص 110.
13) الاستقصا ج 2 ص 110.
14) الاستقصا ج 2 ص 143.

وقد ارتبط مفهوم الزوايا بمصطلحات متعددة كالشيخ والمريد والفقير والطريقة، وهي مصطلحات تقتضي إعطاء لمحة قصيرة حول كل واحد منها.

فأما الشيخ فهو ذلك المثل الذي يحتذى ليصل بالناس إلى درجات الكمال والسمو والطهارة. ولعل من أطرف ما قيل في تعريفه قول بعضهم : «ليس الشيخ من سمعت منه، إنما شيخك من أخذت عنه، وليس شيخك من واجهتك عبارته، إنما شيخك الذي سرت فيك إشارته، وليس شيخك من دعاك إلى الباب، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك من واجهك مقاله، إنما شيخك من نهض بك حاله، شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى، شيخك هو الذي لازال يجلو مرآة قلبك، حتى تتجلى فيه أنوار ربك»[15].

وواضح من هذا النص أن الشيخ الحقيقي هو الذي يستطيع أن ينفذ تأثيره إلى أعماق الغير، فيسيرون سيرته، ويخطون خطواته.

على أن من المتصوفة من جعل هذا الشيخ مراتب ودرجات، ومنهم الشيخ زروق الذي جعل «الشيوخ ثلاثة : شيخ التعليم، وشيخ الترقية، وشيخ التربية؛ فأما شيخ التعليم فشروطه ثلاثة : تحصيل عقد لباب المتكلم، والقدرة على الإلقاء بلا تقصير، والإنصاف في الرد والقبول؛ وشيخ الترقية شروطه ثلاثة : البصرة والفور والهمة العالية؛ وشيخ التربية شروطه ثلاثة : علم المعاملة ظاهرا وباطنا، والبصيرة النافذة، والتجربة الحاصلة»[16].

وأما المريد فهو الذي يتبع الشيخ فيأتمر بأمره، وينتهي لنهيه، وقد اشترط فيه اليوسي شروطا كثيرة منها :

- التزام طاعة الشيخ واحترامه.
- توقيره وإكرامه.
- تفضيله على غيره من أهل عصره.
- تخصيصه بالصحبة ومشاورته.
- ألا يكتم عنه شيئا من أحواله.
- أن يصدقه.
- ألا يتعدى أمره.
- أن يبادر إلى فعل أمره.
- ألا يلبس لباسه.
- ألا يتزوج زوجة طلقها أو مات عنها.
- ألا يعترض عليه بلسانه أو بقلبه في شيء[17]...

أما الكرامات فهي ما يخص الله تعالى به عباده الصالحين، ويؤثرهم به على غيرهم من الخلق؛ وقد قال اليوسي نقلا عن بعض أيمة الدين : «تأملت فيما يعطيه الله تعالى عبده إذا أطاعه ولزم خدمته فوجدته على الجملة أربعين كرامة، عشرين منها في دار الدنيا، وعشرين في العقبى.

أما التي في الدنيا :

1) أن يذكر الله.
2) أن يشكره ويعظمه.
3) أن يحبه.
4) أن يكون له وكيلا.
5) أن يكون برزقه كفيلا.
6) أن يكون له نصيرا.
7) أن يكون له أنيسا.
8) عز النفس.
9) رفع الهمة عن أقذار الدنيا.
10) طيبة النفس والغنى.
11) أن ينور الله قلبه.
12) أن يشرح الله صدره.
13) أن يجعل الله في قلوب الخلائق مهابته.

15) سلوك الطريق الوارية ص 60.
16) سلسلة الأنوار ص 6.
17) رسائل اليوسي، ج 2، ص 343.

14) أن يجعل محبته في قلوب العباد.
15) البركة العامة في جميع الأحوال.
16) تسخير الأرض من بحر وبر.
17) تسخير الحيوان.
18) ملك مفاتيح الأرض.
19) الوجاهة على الله.
20) إجابة الدعوة[18].

وأما التي في العقبى :

1) يهون عليك سكرات الموت.
2) التثبت على المعرفة والإيمان.
3) البشرى بالروح والريحان.
4) الخلود في الجنان.
5) التحية لروحه في السر من ملائكة السماء.
6) الأمن من فتن القبر.
7) توسيع القبر وتنويره.
8) إيناس روحه وإكرامها.
9) الحشر في العزة والكرامة.
10) بياض الوجه ونوره.
11) الأمن من الأهوال.
12) إعطاء الكتاب باليمين.
13) تيسير الحساب.
14) تثقيل الميزان.
15) ورود الحوض.
16) الشفاعة في عرصات القيامة.
17) ملك الأبد في الجنة.
18) ....[19].
19) الرضوان الأكبر.
20) لقاء رب العالمين[20].

18) رسائل اليوسي، ج 2 ص 360.
19) بياض في الأصل.
20) رسائل اليوسي، ج 2، ص 361.

وأما الفقير فهو الذي كسر نفسه ذلا وخضوعا لله تعالى، وزهد في ملذات الدنيا ومباهجها، وهو الآخر قد وضعت له شروط ثلاثة هي «الصدق والأدب والتعطش»[21].

ومما قيل في الفقراء والتنويه بهم :

هم الفقراء عنهم فـــــــارو ذكرا
وحـــــــدث عنهم سرا وجهرا

هم الفقراء أهـــل اللـــــه حقــــا
وقـــد حـــازوا بهـــذا الفقر فخرا

هم الفقراء قـــــد صبروا وذلـــوا
فعـــوضهم بـــــذاك الصبر أجرا

هم الفقراء والســــادات حقـــا
ومنهم تكتفي الألـــــــوان عطرا

وقـــد كسروا النفـوس لـــه وذلـــوا
فـــآتـــاهم بـــذاك الكسر جبرا

وقـــد زاروا الحبيب وشـــاهـــدوه
وقـــد سجـــدوا لـــه حمـــدا وشكرا[22]

وكذلك قيل فيهم :

عبـــاد اللـــه ســـادات كرام
لهم في الخير إن لاح انبعـــاث

عـــلامتهم نحـــول واصفرار
وإخفـــاء وأطمـــار رثـــاث

فهم للنـــاس في الـــدنيـــا أمـــان
من الأمر المخـــوف وهم غيـــاث

أبـــادوا صحبـــة الـــدنيـــا وقـــالـــوا
طـــلاقـــك في شريعتنـــا ثـــلاث[23]

21) رسائل اليوسي، ج 2، ص 406.
22) سلوك الطريق الوارية ص 65.
23) رسائل اليوسي، ج 2 ص 385.

ومن هنا دأب المتصوفة على الترغيب في صحبتهم، وملازمتهم، والتأدب معهم، على غرار ما نقرأ في قول أبي مدين :

مـــا لـــــذة العيش إلا صحبـــــة الفقرا
هم الســــــلاطين والســــــــادات والأمرا

فـــــاصحبهم وتــــأدب في مجـــــالسهم
وخـل حظـــــك مهمـــــا خلفـوك ورا

ولازم الصمت إلا إن سئلت فقـــــــــــــل
لا علم عنـــدي وكن بـــالصمت مستترا[24]

وعلى غرار قول المرابي كذلك :

اصحب أخي كرام النــــــاس من كملت
كـل المحـــــاسن فيهم أينمـــــا ظهروا

واخضع لهم وتـــــأدب في مجـــــالسهم
تحظى بمـــــالهم وكـل مـــــا ظفروا

إن الكرام إذا رأوا محبهم
يسعى في حبهم، لحبـــــه ابتـــــدروا[25]

وأما الطريقة فهي النهج الذي يختاره المتصوفة لأداء طقوسهم وأورادهم، وتتعدد الطرق بتعدد هـذه المنـاهـج والمسـالك المعتمـدة، ومن ثم كـانت الطريقـة الشـاذليـة والناصرية والريسونية والتيجانية والدرقـاوية والعيساوية والحمدوشية...، وإن كان ابن عطاء يذهب إلى أن :

الطرق شتى وطرق الحــــــــق مفردة
والســـــالكـون طريـق الحـق أفراد

لا يعرفـون ولا تـــدرى مقـــاصــــــدهم
فهم على مهـــل يمشـــون قصـــــاد

والنــــاس في غفلـــة عمــــا يراد بهم
فجلهم عن سبيـــل الحـــق رقـــــاد[26]

• تاريخ الزاوية المغربية

وقبـل أن نتعرض إلى الـزاويـة المغربيـة في العصر السعدي، نشير أولا إلى وجود ظاهرة الزوايا خـارج المغرب كذلك، حيث نذكر على سبيل المثال زاويـة أبي مـدين بالجزائر، والتي خربها الأتراك[27]، وزاوية الشيخ حسين السيجومي بتونس[28]، وزاوية أبي الشتاء بفشتالة، والتي فر إليها محمد الشيخ المامون السعدي الذي كـان خليفة لأبيه على فاس بعدما دعا لنفسه وقاومه أبوه؛ وقد بقي بهذه الزاوية إلى أن لحق به أنصار أبيه فأخرجوه منها وجاؤوا به إلى مكناس حيث سجن[29]، وزاوية أحمد الصادق بن عبد القادر التاركي اللمتوني بمدينة آكر بالسودان[30]، وزاويـة الصفي القشاشي بالمدينة المنورة[31].

أما في المغرب فيظهر ـ كما قال الدكتور عباس الجراري ـ أن مصطلح الزاوية «لم يكن شائعا عند المغاربة قبل القرن السابع الهجري، وربما كـانت الزاويـة المقامة لأبي محمد صالح في منتصف هذا القرن بآسفي من أولى المؤسسات التي حملت هذا الإسم بالمغرب»[32].

ومن هذا المنطلق يكون ميلاد الزاوية بالمغرب مرتبطا بالفترة المرينية، لاسيما ونحن نجد من الإشارات التاريخية ما يدل على أن هذه الفترة قد عرفت بناء بعض الزوايا واحترام شيوخها وأصحابها.

24) سلوك الطريق الوارية ص 45.
25) سلوك الطريق الوارية ص 49.
26) التشوف ص 125.
27) نشر المثاني ج 2 ص 217.
28) قبائل المغرب ج 1 ص 174.
29) نشر المثاني ج 1 ص 60.
30) نشر المثاني ج 1 ص 64.
31) نشر المثاني ج 1 ص 230.
32) الشعر الدلائي، التقديم، ص 6.

فمما أكده ابن أبي زرع عن السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق أنه «بنى الزوايا في الفلوات، وأوقف لها الأوقاف الكثيرة لإطعام عابري السبيل وذوي الحاجات»[33].

وضمن هذه الزوايا أيضا تلك التي أنشأها السلطان أبو عنان المريني بفاس سنة 754 هـ، كما هو مثبت في قول ابن جزي المكتوب على أحد جدرانها كما يقول المقري :

هـذا محل الفضل والإيثار
والرفق بالسكان والزوار

دار على الإحسان شيدت والتقى
فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار

هي ملجأ للواردين وموردا
لابن السبيل وكل ركب سار

آثار مولانا الخليفة فارس
أكرم بها في المجد من آثار

لازال منصور اللواء مظفرا
ماضي العزائم سامي المقدار

بنيت على يد عبدهم وخديمهم
بهم العلي محمد بن جدار

في عام أربعة وخمسين انقضت
من بعد سبع مئين في الأعصار[34]

وقد سماها بالزاوية المتوكلية نسبة إلى لقبه المتوكل، «ثم صارت تعرف بدار الضيفان تلميحا لوظيفتها الإحسانية»[35].

ويشهد التاريخ لهذا السلطان بإقامته لزوايا كثيرة بالمغرب، جاءت «معالم عمرانية ذات هندسة رقيقة، وآيات فنية يقل نظيرها، شبيهة بمدارس فاس التي تشهد بعظمة الدولة المرينية»[36].

ونقتصر من هذا العدد على الإشارة إلى زاوية النساك بسلا، وكذلك الزاوية التي أقامها بمنطقة شالة[37].

ومن الزوايا المرينية كذلك نشير إلى زاوية جد الشرفاء القادريين بفاس التي «كان أمر ببنائها الأمير أبو سالم إبراهيم المستعين بالله المريني، وتم بناؤها في أواخر رمضان في عام 762 هـ»[38]؛ ثم زاوية أبي عبد الله اليابوري التي «نزل بها أحمد بن محمد بن عاشر الأنصاري المتوفى عام 765 هـ»[39].

ويذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى ان اهتمام المرينيين بالزوايا، وإقامتهم لعدد وفير منها، يرجع إلى اهتمامهم بالتطور العلمي في المغرب، وخاصة في الميدان الروحي، مما جعلها مراكز تعليمية هامة، إلى جانب كونها مرافق اجتماعية[40]. على أن «بعض هذه الزوايا، وخاصة في الفترة الوطاسية، كانت تتمرد على السلطة الحاكمة في البلاد، حيث نجد بعض العلماء كالجزولي والتباع وغيرهما، يؤسس كل منهم زاويته، حيث يمارس فيها حياة حافلة بالأنشطة السياسية والدينية[41].

وما أن نصل إلى العصر السعدي حتى نجد الزاوية المغربية قد تعاظم شأنها وتكاثرت أعدادها، وخلدت ذكرها بمواقفها المختلفة إن على صعيد الدين أو العلم أو السياسة. ويكفي أن نشير في هذا الميدان الأخير إلى أن أرباب الزوايا هم الذين ساعدوا أبا عبد الله القائم السعدي على ولوج بيت الملك كما يقول صاحب الاستقصا[42]، وكذلك نشير إلى لجوء الأمير محمد بن ويسعدون بسكتانة يوم زحزحه عمه المتوكل السعدي عن العرش كما نقرأ في سوس

33) الذخيرة السنية ص 90.
34) أزهار الرياض ج 3، ص 196.
35) ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين ص 47.
36) الحياة الفكرية المغربية تحت المرينيين والوطاسيين ص 63.
37) انظر في ذلك كتاب الإتحاف الوجيز.

38) روض الأنفاس العالية ص 259.
39) الجذوة ج 1 ص 153.
40) الحياة الفكرية المغربية تحت المرينيين والوطاسيين ص 62.
41) المرجع نفسه ص 63.
42) الاستقصا ج 5 ص 26.

العالمة[43] ونشير أيضا إلى ما كانت تتمتع به زاوية غصاوة من نفوذ وحظوة لدى السعديين لمساندتها لدعوتهم «إلى أن عصفت بهم ريح السياسة حيث كتب محمد بن علي الحاج الأعضاوي الرسالة الصريحة إلى محمد الشيخ المامون يوبخه وتبرأ منه حين سلم مدينة العرائش للإسبانيين، فقتله بفاس»[44]، ونشير أخيراً إلى الدور السياسي المتميز الذي لعبته الزاوية الدلائية سواء داخل المغرب أو خارجه[45].

وجدير بالملاحظة هنا أن أرباب الزوايا في هذه الفترة قد بلغوا من تقدير العامة وتعظيمهم مبلغا يدعو إلى الحيطة والحذر أحياناً. فنحن نقرأ عند الناصري قوله : «لما كانت سنة 958 هـ أمر السلطان أبو عبد الله الشيخ بامتحان أرباب الزوايا والمتصدرين للمشيخة خوفا على ملكه منهم لما كان للعامة فيهم من الاعتقاد والمحبة والوقوف عند إشارتهم والتعبد بما يتناولونه من عباراتهم»[46].

ولعل موقف الحيطة هذا قد تحول إلى مقاومة أحياناً، وخاصة مع المدعين والمشعوذين، وذلك حفظا لاستقرار الأمة المغربية وتحصينا لها من أسباب التفرقة والإضعاف. وقد جاء في كتاب المعسول تأكيدا لهذا الرأي قول محمد المختار السوسي : «على أن هناك في عصر مولاي أحمد الذهبي الذي افتتح سنة 986 هـ وانتهى سنة 1012 هـ لنظرة خاصة إلى أمثال هؤلاء المتزيين بالصلاح والتصوف، فإن رجال الحكومة إذ ذاك ينظرون إليهم نظرا شزرا أدى بكثير منهم إلى أن يلاقي التنكيل والهوان»[47].

على أن مثل هذه الحالات لم تكن لتصد الحكام السعديين عن احترام شيوخ الزوايا وتوقيرهم أحياء، وتكريمهم أمواتا، كما نقرأ في نشر المثاني : «من خط أحفاد صاحب الترجمة[48] وهو الإمام أبو عبد الله المسناوي أن زمن وفاة صاحب الترجمة في دولة السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ بن السلطان أبي المعالي زيدان، وهو الذي بنى عليه القبة المذكورة»[49].

ولعل من المفيد أن نستعرض بعضا من هذه الزوايا السعدية التي انتشرت في كافة أرجاء المغرب : مدنه وقراه، شماله ووسطه وجنوبه.

فمن زوايا الشمال المغربي نذكر :

- زاوية محمد بن الحاج نوار بتطوان[50]
- زاوية أبي المحاسن يوسف الفاسي بتطوان[51]
- زاوية علي الجعيدي بتطوان[52]
- زاوية محمد بن يوسف الفاسي والد أبي المحاسن بالقصر الكبير[53]
- زاوية الشيخ جابر بن مخلوف الطليقي بالقصر الكبير[54]
- زاوية محمد بن علي بن يوسف بوعرية الفاسي بالقصر الكبير[55]
- زاوية علي بن أحمد دفين مدشر المعاصيين من جبل صرصر قرب القصر الكبير[56]
- **زاوية أبي الحجاج يوسف بن الحسن التليدي قرب شفشاون[57].**

43) سوس العالمة ص 159.
44) الحركة الفكرية ج 2 ص 471.
45) انظر تفاصيل ذلك في كتاب الزاوية الدلائية من ص 131 إلى ص 216.
46) الاستقصا ج 5 ص 26.
47) المعسول ج 1 ص 92.
48) يقصد به محمد بن أبي بكر الدلائي زعيم الزاوية الدلائية.
49) نشر المثاني ج 1 ص 339.
50) مات عام 1006 هـ، انظر نشر المثاني ج 1 ص 65.
51) مات عام 1013 هـ، انظر ابتهاج القلوب ص 311، والتقاط الدرر ص 43.
52) مات عام 1033 هـ، انظر التقاط الدرر ص 83، ونشر المثاني ج 1 ص 260، وتاريخ تطوان ج 3 ص 54.
53) مات عام 1003 هـ، انظر التقاط الدرر ص 22 ونشر المثاني ج 1 ص 30، ومرآة المحاسن ص 221.
54) مات عام 974 هـ، انظر نشر المثاني ج 1 ص 144.
55) مات عام 1048 هـ، انظر نشر المثاني ج 1 ص 372 والحركة الفكرية ج 2 ص 429.
56) مات عام 1030 هـ، انظر نشر المثاني ج 1 ص 237، والتقاط الدرر ص 78 هامش 2.
57) مات عام 950، انظر دوحة الناشر ص 17، وممتع الأسماع ص 66، والتقاط الدرر ص 46، هامش 7.

- زاوية أبي القاسم الحساني ببني حسان شمالي شفشاون[58].
- زاوية عبد الله الهبطي بجبل الأشهب بحوز شفشاون[59].
- زاوية محمد بن علي بن ريسون بقرية تاصروت قرب شفشاون[60].

وقد خلفه في عمارتها ابنه محمد بن عبد الله الهبطي المعروف بالصغير.

- زاوية الحاج علي البقال الأغصاوي بغصاوة شمالي وزان[61].

وقد خلفه في القيام بشؤونها ابنه محمد بن علي.

- زاوية عبد الوارث الياصلوتي ببني دركول[62].

ومن زوايا الوسط المغربي نذكر:

- زاوية أبي عبد الله الغماري المالقي بفاس[63].
- زاوية عبد الوارث الياصلوتي بفاس[64].
- زاوية أحمد بن يحيى اللمطي بفاس[65].
- زاوية القاسم الدرعي الملقب بالغازي بفاس[66].
- زاوية سيدي رضوان بفاس[67].
- زاوية أبي المحاسن يوسف الفاسي بفاس[68].
- زاوية أحمد بن محمد الشاوي بفاس[69].
- زاوية عبد الرحمن بن يوسف الفاسي بفاس[70].
- زاوية قاسم بن رحمون بفاس[71].
- زاوية محمد بن عبد الله معن بفاس[72].
- زاوية حمدون بن عبد الرحمن الملاحقي بفاس[73].
- زاوية الحسن بن إبراهيم السفياني بفاس[74].
- زاوية أحمد بن محمد الشاوي بالكطاوي بناحية فاس[75].
- زاوية أحمد بن محمد الشاوي بأبي شابل بناحية فاس[76].
- زاوية أحمد بن محمد الشاوي ببني ظهير قرب وادي سبو[77].
- زاوية أحمد بن محمد الشاوي بكربال على وادي سبو[78].
- زاوية محمد بن زمام الرياحي على وادي سبو[79].
- زاوية سيدي سعيد بن أبي بكر بمكناس[80].
- زاوية عبد الله الخياط بزرهون[81].
- زاوية محمد القجيري بسلا[82].
- زاوية أحمد بن القاسم الصومعي بتادلا[83].

---

58) مات عام 956 هـ، انظر دوحة الناشر ص 14 والحركة الفكرية ج 2 ص 561.
59) مات عام 963 هـ، انظر روضة المحاسن ص 30 والحركة الفكرية ج 2 ص 466.
60) مات عام 1018 هـ، انظر التقاط الدرر ص 51، ومرآة المحاسن ص 205، وممتع الأسماع ص 109، وسلوة الأنفاس ج 2 ص 7.
61) مات عام 981 هـ، انظر دوحة الناشر ص 39، والحركة الفكرية ج 2 ص 470.
62) مات عام 968 هـ، انظر نشر المثاني ج. 1 ص. 118.
63) مات عام 971 هـ، انظر دوحة الناشر ص 5 ومرآة المحاسن ص 210 والحركة الفكرية ج 2 ص 476.
64) مات عام 971 هـ، انظر نشر المثاني ج 2 ص 264.
65) مات عام 980 هـ، انظر الشعر الدلائي ص 38.
66) مات عام 981 هـ، انظر روض الأنفاس ص 261.
67) مات عام 991 هـ، انظر نشر المثاني ج 1 ص 89.
68) مات عام 1013 هـ، انظر كذلك مرآة المحاسن والجواهر الصافية.
69) مات عام 1014 هـ، انظر نشر المثاني ج 1 ص 133.
70) مات عام 1027 هـ، انظر ابتهاج القلوب ص 189 ونشر المثاني ج 1 ص 268.
71) مات عام 1049 هـ، انظر روض الأنفاس ص 272.
72) مات عام 1062 هـ، انظر ابتهاج القلوب ص 196، وروض الأنفاس ص 267 ونشر المثاني ج 2 ص 57.
73) مات عام 1072 هـ، انظر التقاط الدرر ص 153، ونشر المثاني ج 2 ص 122.
74) مات عام 1098 هـ، انظر نشر المثاني ج 2 ص 337.
75) مات عام 1014، انظر النشر ج 1 ص 133.
76) هو نفسه، انظر المصدر نفسه والجزء والصفحة.
77) هو نفسه، انظر المصدر نفسه والجزء والصفحة.
78) هو نفسه، انظر المصدر نفسه والجزء والصفحة.
79) مات عام 1024 هـ، انظر نشر المثاني ج 1 ص 205.
80) مات عام 964 هـ، انظر ابتهاج القلوب ص 57 والاستقصا ج 5 ص 26.
81) مات عام 939 هـ، انظر جواهر السماط.
82) مات عام 1045 هـ، انظر نشر المثاني ج 1 ص 169 والتقاط الدرر ص 103 هامش 1.
83) مات عام 1013 هـ، انظر نشر المثاني ج 1 ص 133.

- زاوية أبي بكر بن سعيد الدلائي بتادلا[84].
- زاوية محمد بن أبي بكر العياشي بميدلت[85].

وأما زوايا الجنوب المغربي فنذكر منها :

- زاوية أبي محمد الكوش بمراكش[86].
- زاوية عبد الله بن ساسي على وادي تانسيفت بمراكش[87].
- زاوية عبد الله بن حساين الأمغاري بتامصلوحت بناحية مراكش[88].
- زاوية أبي القاسم الشيخ بدرعة[89].
- زاوية سيدي محمد بن المهدي الجراري بدرعة[90].
- زاوية أحمد بن علي بن داود الدرعي بدرعة[91].
- زاوية أحمد بن إبراهيم الدرعي بدرعة[92].
- زاوية سيدي علي التمكروتي بدرعة[93].
- زاوية أبي حفص عمر الأنصاري بتامكروت[94].
- زاوية محمد بن ويسعدن العمري الكتاني بسكتانة شمالي شرقي تارودانت[95].
- زاوية عبد الله بن سعيد المناني الحاحي بزداغة شمالي غربي تارودانت[96].
- زاوية علي بن مخلوف بن زيدان جد الأشراف العلويين بسوس[97].
- زاوية عبد الله بن عمر المدغري بمدغرة[98].
- زاوية عمر بن محمد الشامي الخزرجي بوكرت[99].
- زاوية عبد الله بن طمطم بتوات[100].

ولعلنا من خلال هذه الطفرة الهائلة من الزوايا السعدية، والتي لم نذكر هنا إلا بعضها، نستطيع أن نخرج بالملاحظات الآتية :

1) أن هذه الزوايا ظهرت ـ بل انتشرت ـ في فترة مضطربة من تاريخ المغرب، هي الفترة التي تقع بين الدولتين : السعدية في انهيارها وتصدعها، والعلوية في بدايتها واستقرارها. وهي فترة زاد فيها تعرض المغرب للأطماع الاستعمارية، تلك التي تمثلت منذ القرن الخامس عشر الميلادي في احتلال بعض الشواطئ المغربية من قبل الإسبانيين والبرتغاليين، فقد وقع احتلال سبتة عام 1415م وطنجة عام 1461م وأصيلا عام 1471م والعرائش سنة 1489م، وآسفي عام 1508م والجديدة سنة 1502م وأكادير عام 1505م وأزمور سنة 1513م فالمعمورة عام 1515م.

ورغم محاولات الحكام السعديين الرامية إلى استرجاع هذه الشواطئ، فإن هذه المحاولات لم تحسم الموضوع حسما، بل إن بعض المصادر تذهب إلى عجز السعديين المتأخرين عن ذلك نظرا لأسباب متعددة[101]، الشيء الذي أتاح الفرصة لنشوء حركة وطنية ودينية قادها شيوخ الزوايا من أجل القيام بما عجز عنه السعديون، ومحاولة صد هجومات ومضايقات العدو الإسباني والبرتغالي التي كانت تتزايد بين الحين والحين، ومن ثم نلاحظ أن هؤلاء الشيوخ ـ ومن خلالهم الزوايا طبعا ـ قد لعبوا دورا متميزا في سبيل استرجاع الثغور وتوجيه حركة الجهاد التي فرضتها الظروف إذ ذاك.

84) مات عام 1021 هـ، انظر البدور الضاوية ص 25 ـ 58، ونزهة الحادي ص 274.
85) مات عام 1067 هـ، انظر الاحيا والانتعاش. والتقاط الدرر ص 139.
86) عاش في عهد السلطان السعدي أبي عبد الله الشيخ، انظر الاستقصا ج 5 ص 26.
87) مات عام 961 هـ، انظر روضة المحاسن ص 30.
88) مات عام 961هـ، انظر التقاط الدرر ص 51 هامش 2.
89) تخرج منها قاضي مراكش محمد الحساني المتوفي عام 965 هـ، انظر الحركة الفكرية ج 2 ص 376.
90) مات عام 979 هـ، انظر الدرر المرصعة ص 291 ودوحة الناشر ص 94.
91) مات عام 998 هـ، انظر الدرر المرصعة ص 11.
92) مات عام 1052 هـ، انظر الدرر المرصعة ص 11.
93) مات عام 940 هـ، انظر حضارة وادي درعة ص 138.
94) مات عام 1010 هـ، انظر الشعر الدلائي ص 38.
95) مات عام 987 هـ، انظر دوحة الناشر ص 83 والمعسول ج 19 ص 230.
96) مات عام 1012 هـ، انظر نشر المثاني ج 1 ص 71، والصفوة ص 10.
97) مات عام 1013 هـ، انظر للشعر الدلائي ص 39.
98) مات عام 927 هـ، انظر جواهر السماط ورقة 19.
99) مات عام 1008 هـ، انظر التقاط الدرر ص 33 ونشر المثاني ج 1 ص 74.
100) من رجال القرن 11 هـ، انظر نشر المثاني ج 2 ص 405.
101) انظر تفصيل ذلك في كتاب الحركة العياشية ص 45 ـ 62.

2) وجدير بالملاحظة أن من هؤلاء الشيوخ ـ ونظرا لرغبتهم الملحة في الجهاد وتهييء الناس له دينيا ونفسيا ـ من كان لا يكتفي بإقامة زاوية واحدة، بل إنه كان يعمل على تشييد أكثر من زاوية، سواء في المدينة الواحدة، أو في مدن ومناطق مختلفة. ويكفي أن نذكر في هذا المجال الشيخ عبد الوارث الياصلوتي الذي أسس زاوية بفاس وأخرى ببني دركول، والشيخ أبا المحاسن الفاسي صاحب زاوية بفاس وأخرى بتطوان، والشيخ أبا محمد القاسم الملقب بالغازي الذي كانت «له زوايا بفاس وأخرى منتشرة في الحواضر والبوادي»[102] والشيخ أحمد بن محمد الشاوي صاحب الزوايا المتعددة بفاس.

وقد نجد في المضمار نفسه أفراد الأسرة الواحدة يؤسس كل منهم زاوية، كما هو الشأن مثلا بالنسبة للشيخ أبي المحاسن الفاسي الذي أسس زاويته بحي المخفية بفاس، وأخيه أبي زيد عبد الرحمن الذي أسس زاويته بحي القلقليين من فاس كذلك.

3) ولعل هذه الرغبة في الجهاد عسكريا وروحيا هي التي حملت شيوخ الزوايا السعدية ـ أو نخبة منهم على الأقل ـ على تطعيم خط الاستمرار والاتصال لحركة الزوايا، حيث نجد من الشيوخ من يأذنون لبعض تلاميذهم ومريديهم بإقامة زوايا جديدة، وفي مناطق متعددة. وكنموذج لهذه الظاهرة نشير إلى :

ـ الشيخ عبد الله بن حساين الأمغاري صاحب زاوية تامصلوحت الذي أذن لتلميذه محمد بن علي بن ريسون بتأسيس زاويته بقرية تاصروت قرب شفشاون.

ـ الشيخ عبد الله الخياط صاحب زاوية زرهون الذي أذن لتلميذه أبي الطيب يحيى بن أبي القاسم الجباوي[103] دفين ميسور بتأسيس زاوية ملوية.

ـ الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي صاحب الزاويتين بفاس وتطوان الذي أذن لتلميذه محمد بن الحاج نوار بتأسيس زاوية تطوان.

ـ الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي صاحب الزاوية الدلائية الذي أذن لتلميذه محمد بن أبي بكر العياشي بإقامة زاويته بميدلت.

ـ الشيخ أحمد الشاوي صاحب الزوايا بنواحي فاس الذي أذن لتلميذه موسى بن سعيد الدراوي بتأسيس زاويته بمدشر تاغزوت قرب صفرو بناحية فاس.

4) أن هذه الزوايا قد حافظت على استمرارية المنهج السني في المغرب، واستمرارية التمسك بالمذهب المالكي الذي كان المغاربة وما يزالون متشبثين به، عاملين بأحكامه وتشريعاته، وقد تجلى هذا الحفاظ في كل من الأعمال الفكرية والعلمية التي صدرت عن رجال هذه الزوايا أو دُرّست في رحابها، وكذلك في انتهاج الطريقة الشاذلية المتصلة بالإمام أبي القاسم الجنيد[104].

ويكفي أن نشير مثلا إلى الزاوية الدلائية التي كانت طريقتها هي الأخرى شاذلية، علما بأنها تعتبر أكثر الطرق تجذرا في المجتمع المغربي نظرا لقربها من الكتاب والسنة، وابتعادها عن مظاهر الغلو والتفلسف[105]. ومن ثم كانت أكثر الطرق الصوفية «انتشارا بالمغرب حتى إنها لتعتبر الطريقة الرسمية في هذه البلاد، إلى جانب المذهب المالكي في الفقه والعقائد الأشعرية في التوحيد»[106]. وقد جمع هذه العناصر الثلاثة عبد الواحد بن عاشر في رجزه «المرشد المعين» فقال :

في عقد الأشعري وفقه مالك
وفي طريقة الجنيد السالك

5) أن هذه الزوايا ساهمت إلى حد بعيد في إغناء الحركة الفكرية والأدبية بالمغرب، تلك المساهمة التي ستكون موضوع القسم الثاني من هذا البحث بحول الله.

---

102) روض الأنفاس العالية ص 262.
103) مات عام 988 هـ.
104) مات عام 277 هـ، ويتصل سنده بالحسن البصري التابع.
105) ورقات عن الحضارة المغربية في عهد بني مرين ص 236.
106) الزاوية الدلائية ص 48.

ناظر الوقف (11)

للأستاذ محمد بن عبد الله

مال الوقف من أطيب المكاسب :

يلاحظ الدارس، من خلال العروض التي أتينا بها ضمن هذه الحلقات، بأن تسيير المؤسسات الدينية والتعليمية في المدن والأرياف الإسلامية كان يعتمد على دخل الأوقاف الذي يتوفر على رصيد هائل من المال الطيب في مختلف العصور والأمصار، فكان العلماء والأئمة والطلبة والمؤذنون يؤجرون من ذلك الدخل؛ كما تؤخذ منه أيضاً، لوازم الإنارة والصباغة والترميم والبناء وما إلى ذلك في داخل المدينة الإسلامية بما اشتملت عليه من مؤسسات دينية واجتماعية...

وقد احتلت المدينة منذ أقدم العصور مكانة خاصة في التاريخ البشري، فبينما يمثل الريف والبادية مناطق الانتشار السكاني، إذا بالمدن تمثل مراكز الكثافة السكانية... وتأتي هذه الكثافة السكانية مصحوبة، عادة، بتنوع العناصر والفئات والطبقات والطوائف والأمزجة المختلفة المتباينة التي يتألف منها البناء البشري للمدينة مما يترك أثره واضحاً في الحياة الاجتماعية داخلها.

☆ ☆ ☆

وأول مدينة في الإسلام، هي مدينة الرسول ﷺ ومدينة الرسول هي طيبة، ولطيبها، قيل تلفظ خَبَثَها، وينصع طيبُها... وفي رِيح تُرابها، وبَنَّةِ تربتها، وعَرف تُرابها، ونسيم هوائها، والنعمة التي توجد في سِكَكِها، وفي حيطانها - دليل على أنها جعلت آيةً حين جعلت حَرَماً، كما قال الجاحظ في كتابه القيم : «الحيوان».

☆ ☆ ☆

وقد تكونت العمارة الإسلامية، بعد ذلك، في بلاد الشام، وسواء أكانت هذه العمارة دينية أم مدنية، فإن العمارة العربية التي كانت منتشرة في جنوبي الجزيرة العربية، والتي تحدث عنها الهمذاني، لم تكن أساساً لهذه العمارة...

ومع أن مسجد الرسول عليه السلام في المدينة، قد وضع مخطط المساجد فيما بعد، إلا أنه كان على وجه الدقة مجرد سقيفة، أقيمت على طرف من أطراف الصحن، وهي مبنية من الطين والأغصان، مرتكزة على جذوع النخيل... وهكذا، فإن هذا المسجد الأول لم يكن يحمل أية صفة معمارية، إلا أنه حدد المخطط الأول لمسجد المستقبل بأجزائه الأساسية، وهي الصحن الواسع جدا... والحرم قاعة عريضة جدا، وقليلة العمق، إذ تحددت نسب أبعادها منطقياً مع نظام الصلاة الجماعية..

ويعتبر المسجد الكبير في بلاد الشام بدمشق أول نجاح معماري في الإسلام، وأصبح هذا المسجد الدمشقي الكبير نموذجاً لأكبر المساجد...

وقد حرص الخليفة الراشد عمر بن الخطاب على أن يأمر ولاته في الأمصار المفتوحة أن يتخذوا مسجداً واحداً للجماعة. مع الإذن للقبائل ببناء مساجد أخرى خاصة في أحيائها وخططها بالمدن المختلفة، فإذا كان يوم الجمعة انضوا إلى الجماعة لأداء الصلاة في المسجد الجامع،[1] وقد ظل المسلمون مستمسكين بهذا الالتزام في العصور التالية.. وكانت المؤسسات في المدينة الإسلامية تسير بما يجود به الواقفون، حتى تضخمت ثروة الوقف مع مرور الأعصار والأزمان، وغدت ميزانية الأوقاف في كثير من الأوقات تنافس في بعض الفترات ميزانية الدولة، بل إن الدولة استقرضت من خزينتها في كثير من الأحيان، كما كان الحال عندما وضع الأجنبي أول قدم له في المغرب أيام السلطان أبي سعيد عام 818 هـ حيث استولى البرتغال على مدينة سبتة قبل أن يسلمها للإسبان... وقد حدث مثل هذا عام 961 هـ كما تزيد ذلك الحوالات بما دفع لمولاي أبي حسون السعدي، وعند بناء المرافق والجسور، كما حدث عندما جرف سيل عظيم مدينة فاس في شعبان من عام 1009 هـ، أيام السلطان أحمد الذهبي، فتحطمت الحوانيت، وتداعت المنازل والدور بسبب انهيار الوادي الذي طمّ حتى عمّ المدينة...

وقد اعتاد ملوك فاس في أيامنا، يقول محمد حسن الوزان، أن يقترضوا مبالغ ضخمة من إمام الجامع، بدون أن يردوها مطلقا»[2] ولما قرر المنصور أن يعيد سد «وادي فاس» رأى أن خزينته لا تحتمل ذلك، **فأحال جلّ المصاريف على وفْر الأحباس...**

وقد استشار الفقيه الشيخ الطيب الصالح أبو عبد الله بن أبي الصبر[3] الذي ولي خطة القضاء والإمامة بالجامع القرويين عام 688 هـ في تبييض صومعة القرويين وإصلاحها، أمير المؤمنين أبا يعقوب يوسف بن أمير المسلمين ابن يوسف بن عبد الحق، فأذن له في ذلك، وأمره أن يأخذ من أموال أعشار الروم ما يحتاج إليه، فقال له : ﴿**إن في مال الأحباس، ما فيه كفاية، إن شاء الله**»[4]

وهذه رسالة من المولى محمد بن عبد الرحمن إلى الحاج قاسم حصار في 23 صفر الخير 1278، تقول : «...خديمنا الأرضى الحاج قاسم حصار، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد، فقد وصلنا كتابك أخبرت فيه بما بلغك من أنا وجهنا المعلمين للرباط بقصد تعيين محل مناسب ليبنى بقصد العسكر، وذكرت، أنا، إن عزمنا على ذلك، **فناظر الأحباس توفّر عنده مال كثير يفي ببناء ذلك وزيادة...**

خزينة الأوقاف تنافس خزينة الدولة :

يحكى أن بيت مال أهل «برذعة» ببلاد القوقاز كان بالمسجد الجامع، ويلاحظ أنه على رسم الشام، ويصف الأصطخري بأنه مرصص السطح، وعليه باب حديد، وهو على تسعة أساطين..[5] وكان بيت المال في كل من الشام ومصر يقوم بالمسجد الجامع، وهو شبه قبة مرتفعة محمولة على أساطين، ولبيت المال باب حديد، وأقفال، والصعود إليه على قنطرة من الخشب، وإذا صليت العشاء الآخرة أخرج الناس كلهم من المسجد، حتى لا يبقى فيه أحد، ثم أغلقت أبوابه، وذلك لوجود بيت المال فيه..[6]

وعلى هذا جرى العمل بالأندلس، فكانت الأوقاف تحت إشراف قاضي الجماعة، وكان المتحصل منها يوضع بالمسجد الكبير بقرطبة، ويسمى «بيت المال» وتدفع منه رواتب موظفي المسجد، وتودع الصدقات في أماكن خاصة[7].

1) وهو مذهب الإمام الشافعي في امتناع إقامة خطبتين في بلد واحد [حسن المحاضرة ص. 2/138].
2) «وصف إفريقيا» لمحمد الحسن الوزان ص : 231. . ط : المملكة السعودية. .
3) قاض السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني (ت : 706 هـ).
4) «الأنيس المطرب» ص : 57.
5) الاصطخري : ص : 184. .
6) «الأعلاق النفيسة لأبي علي أحمد بن عمر بن رستة. ط : ليدن عام 1891؛ والمقدسي ص : 1823.
7) «تاريخ الإسلام السياسي» للأستاذ حسن إبراهيم حسن ص : 3/489.

وقد بنى أبو عنان المريني مستودعات وثيقة المباني، وأمر القضاة أن يجعلوا تلك المستودعات لأموال الأحباس، وأن يكون لكل باب من أبواب المستودعات قفلان، لهما مفتاحان، أحدهما يستقر بيد القاضي، والآخر بيد خطيبه..[8]

وإن الثروة العظيمة التي كانت تنعم بها أوقاف القرويين، مثلا. وتكسبها من ثرواتها التي ما فتئ المومنون يغدقونها على هذا الجامع الأعظم، حتى أخذت تنافس خزينة الدولة نفسها، إذ لجامع القرويين دخلٌ، مقداره مائتا درهم يوميا، ولكي ينفق أكثر من نصف هذا المبلغ على ما ذكرت... كما أن كل جامع أو مسجد لا إيراد له يستمد من جامع القرويين الكثير من الأشياء التي يحتاج إليها...

وفضلا عن ذلك، يقدم هذا الجامع ما هو ضروري للصالح العام في المدينة، إذ ليس للبلدية أي دخل كان من أي نوع.. وقد اعتاد ملوك فاس في أيامنا أن يقترضوا مبالغ ضخمة من إمام الجامع بدون أن يردوها مطلقا...[9]

وقد أصبحت الأموال الكثيرة الوقفية تقتضي من المسؤولين احتياطا زائدا على الأموال المدخرة... ومن هناك كانت فكرة «المستودع» الذي هو عبارة عن بيت حصين، بابه مسلح بالنحاس، وفيه صناديق متينة توضع بها مداخيل العقارات الوقفية لتصرف على مصالح المسجد، وفي أرزاق العاملين به من العلماء والمؤذنين وغيرهم، لأن «المستودع» يعني الخزينة التي تجعل فيها الودائع القيمة، والمستودع المقصود بالكلام هو المخزن الحصين الذي يوجد الآن تحت الرواق الذي بنيت فيه بعد مكتبة أبي عنان العلمية في الركن الشرقي الشمالي لجامع القرويين.. ويسمى الناس الرواق الذي يقع فوق المخزن بالمستودع مجازاً، لكن المستودع هو «الهري» الذي يوجد تحت.. ولقد جعل عهد الموحدين في أيام الفقيه أبي محمد يسكر الجوراني (558 هـ) ليوضع فيه مال الأحباس وأوفاره.. وكان الناظر المشرف على بنائه الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن حمّد (تـ 581 هـ) وقد حفر قاعته، ونحتها إلى أن وصل إلى الأرض الصلبة، ثم بلط ذلك بالرمل والجير، وجعل أسفله طاقة من أحجار كبار مبسوطة وطاقة من الرمل والجير، وحصّن داخله وسقفه بخشب الأرز، وعمل له خمسة منافس بصفائح من حديد مقلوبة، وبابان أحدهما محدد، كل ذلك على الوجه المحكم، والعمل الوثيق، وجعل على كل باب منها ثلاثة مفاتيح، وجعل في داخله صناديق كبار، عليها أقفال وثيقة، ثم وضع فيه أوقاف الجامع وأمانات الناس،[10] وقد احتيل على هذا المستودع في أيام الفقيه القاضي أبي عبد الله محمد بن عمران، وسرق منه مال كثير، واجتهد في البحث على ذلك، فعمي خبرُه..[11]

وزيادة في الاحتياط جعل قفل باب منها ثلاثة مفاتيح، وأسند كل مفتاح إلى وكيل على حدة حتى لا يفتح المستودع إلا بحضور الثلاثة، وجعل في داخل المستودع صناديق كثيرة عليها أقفال وثيقة، ووضع فيها أوقاف الجامع.. وقد اغتبط الناس بهذا البنك الجديد، فتهافتوا على القيم يطلبون منه إيداع أماناتهم في المستودع المذكور، فاستجاب لرغبتهم، فكان التجار وأرباب المال يطمئنون على مدخراتهم في «المستودع»، وقد استمر العمل بهذا المستودع ردحاً من الزمن..[12]

إبطال الوقف، على المعصية :

كل تلك الأوفار والأموال الوقفية المودعة في هذه الخزائن الضخمة والمستودعات الوثيقة مصدرها حلال، ومصرفها حلال، وموضوعها، أي الموقوف عليه، جهة بر وإحسان.. ودوافعها في أكثر الأحيان اجتماعية، وأهداف، دائما، اجتماعية أيضا..

8) «فيض العُباب» لابن الحاج النميري، تحقيق الدكتور محمد بن شقرون.
9) وصف إفريقيا..

10) «جنى زهرة الآس» للجزنائي ص : 70، المطبعة الملكية.
11) نفس المصدر.
12) «جامعة القرويين» للدكتور عبد الهادي التازي.

أمر معروف غير مستنكر من الشرع، أي بأن لا يكون على معصية، فإن كان على معصية لم يجز،[13] فلا يصحّ الوقف إلا على بر ومعروف..[14]

وعلة اشتراط عدم المعصية في الموقوف عليه، عند الشافعية، هي أن الوقف طاعة تنافي المعصية، فلا تصح فيها، فالوقف على السراق، أو شراب الخمر أو المرتدين عن الإسلام أو الحربيين، فإن الوقف على هذه الجهات باطل، لأنها معاص يجب الكف عنها، فلا يجب أن يساعد عليها...

فإذا وقف على الكنائس والبيع أو حصرها أو قناديلها أو خدمها فالوقف باطل، سواء أكان الواقف مسلماً أو ذمياً، لأنها موضوعة للاجتماع على معصية والوقف شرع للتقرب، فهما متضادان... وكما أيضا، لو وقف على كتب الإنجيل والتوراة. فإن الوقف باطل، لأنها متبدلة، فصار وقفاً على معصية...

ويوجه الحنابلة مذهبهم في جواز الوقف على الذمي بما جاء في الشرح الكبير على «المقنع» من قوله : «ويصح على أهل الذمة، لأنهم يملكون ملكا محرماً، وتجوز الصدقة عليهم. قال تعالى : **﴿لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين، وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم. ومن يتولهم فأولئك هو الظالمون﴾**،[15] فإذا جازت الصدقة عليهم، جاز الوقف عليهم كالمسلمين.

وروي أن صفية زوج النبي ﷺ، وقفت على أخ لها يهودي، ولأن من جاز أن يقف عليه الذمي جاز أن يقف عليه المسلم، كالذمي ولو وقف على من ينزل كنائسهم من

على أن المالكية لا يشترطون في الموقوف عليه أن يكون قربة أو جهة بر، وان كل ما يشترطونه فيه، بأن لا يكون على معصية، بل انهم يجيزون الوقف على المكروه، وتصرف غلته على تلك الجهة المكروهة، حتى ولو اتفق على كراهته، كمن وقف على من يصلي ركعتين بعد العصر، أو على من يعمل ذكراً، يلزم عليه رفع الصوت في المسجد.. وقال بعض المالكية في الوقف المتفق على كراهته، تصرف الغلة إلى جهة قريبة من الجهة التي وقف عليها،[17] وفي إبطال الوقف على معصية يقول الدردير : «وبطل الوقف على المعصية، كجعل غلته في ثمن خمر أو حشيشة، أو سلاح لقتال غير جائز، ويدخل فيه، أي في الباطل، وقف الذمي علىالكنيسة سواء كان لعبادها، أو لمرمتها، لأن المذهب : خطابهم بفروع الشريعة».[18]

ومع ذلك، فإن بعض الأقوال عند المالكية تشير إلى أن الاعتبار، في المعصية، يرجع إلى اعتقاد الواقف.[19]

وقد ذهب ابن رشد إلى أن وقف الكافر على عباد الكنيسة باطل، لأنه معصية، وإما على مرمتها، أو على الجرحى، أو المرضى التي فيها : فالوقف صحيح معمول به، فإذا أراد الواقف أو الأسقف بيعه ونازعه أحد في ذلك، وترافعوا إلينا، راضين بحكمنا، فإن للحاكم أن يحكم بينهم بحكم الإسلام : من صحة الحبس، وعدم بيعه..[20]؛ بل إن من المالكية من ذهب إلى أن وقف الكافر على الكنيسة مطلقاً صحيح، إلا أنه غير لازم، فللواقف الرجوع فيه،[21] وقد ذهب إلى هذا القاضي عياض...[22]

ومن التبرعات والقربات، مالا يتأثر باختلاف الملل والنحل والأديان، لأنها تعتبر أساساً خيرا، وإحساناً ومعروفاً في جميع الشرائع السماوية، وذلك كالوقف على وجه البر

13) «الحاوي الكبير» للماوردي ج : 7، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم : 962، فقه شافعي.
14) «المهذب» ص : 1/441. ـ لابن إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف (ت : 476 هـ) من فقهاء الشافعي
15) سورة «الممتحنة» آية ـ 8 ـ 9.
16) «المغني» بهامش الشرح الكبير ص 6/242.

17) حاشية الدسوقي ص : 4/78.
18) الدردير، الشرح الكبير، ص : 4/78.
19) الكبيسي، أحكام الوقف ص : 1/405.
20) حاشية العدوي على الخرشي ص : 7/82.
21) حاشية الدسوقي ص : 4/78، والشرح الصغير ص : 2/267.
22) وانظر أيضاً منح الجليل ص : 3/58.

والخير التي يعم نفعهما، كأماكن العلاج، ومراكز التعليم، ومأوي اليتامى والمشردين...

ومن القرب التي أطبق عليها فقهاء الإسلام، وقف المسلم على فقراء المسلمين وغير المسلمين، ووقف غير المسلمين على فقرائهم وفقراء المسلمين، لأن الصدقة على الفقير مهما كانت ديانته تعتبر قربة في اعتبار الإسلام، وكذا في اعتبارات الديانات الأخرى. وكذلك ذكروا الاتفاق الحاصل بالنسبة لوقف المسلم واليهودي والمسيحي على بيت المقدس، لتحقق معنى القربة في نظر الشرع الإسلامي، وفي اعتقاد الواقف...

ومذهب الحنفية أن وقف غير المسلم لا يجوز إلا إذا كان قربة في ذاته وعن الواقف، كما لو وقف مسيحي على بيت المقدس، فإن الوقف عليه قربة عند المسلم والمسيحي معاً...

أما الحبس، فلا ينفذ من الذمي، قال مالك في نصرانية بعثت ديناراً إلى الكعبة، يرد إليها...

وقال ابن القاسم في ذمي حبس داراً على مسجد، أن لا ينفذ، ولا ينفذ من المكره، ولا من المحجور...

☆ ☆ ☆

ولقد أتينا في الحلقة السابقة، أيضا، على ما قاله العلماء في الوجوه التي تصرف فيها أموال الوقف، فلا تصرف إلا لمن قام بكل من جعل له مرتب على وظيفة وقفية، ثم لم يقم بذلك، لعذر من مرض أو خوف أو لغير عذر، فإنه لا يستحق ذلك المرتب، فهو كالأجير على شيء لا يقوم بحق المنفعة المستأجر عليها، فإنه لا يستحق الأجرة إلا أن يكون ما عطل مدة يسيرة... وقلنا، أيضا، بأن الواجب أن يرد ما تحصل بيده من مال الوقف، لأنه أخذ بغير حق، ولا وجه شبهة، وهو متعد في أخذ ما أخذ من ذلك لم يغن عن الحبس شيئا...

وعلى الناظر أن يقوم لذلك، ويطلبه بذلك، ولا يسعه ترك القيام في ذلك لأن ذلك حق من جملة حقوق الوقف، وهو دين متعلق بذمة آخذه من غير شك في ذلك، ولا ارتياب، كما أنه لا يجوز للناظر، أيضا في الحبس السكوت عنه بل يجب عليه طلبه واستخلاصه منه، فإنه مطلوب بضم أموال الأحباس واستخراجها من يد مغتصبيها أو آخذيها بغير حق...

كسارقة الرُّمان.. ومطعمة الأيتام...

ولقد كانت مصادر الوقوف المودعة في خزينة الوقف، من المال الحلال، ومن أفضل المكاسب وأطيبها الخالصة من المفسدات والمحرمات، والمنزهة عن جميع النقائض والآفات... فالله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وأن الله أمر المومنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى : **﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا﴾**،[23] وقال تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾**..[24]

وصدق الله تعالى إذ يقول : **﴿قل : لا يستوي الخبيث والطيب، ولو أعجبك كثرة الخبيث، فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون﴾**[24]، وقال تعالى : **﴿أم حسب الذين اجترحوا السيآت، أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء محياهم ومماتهم، ساء ما يحكمون﴾**[25]، وقال تعالى في سورة القلم : **﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين، مالكم ؟ كيف تحكمون ؟﴾**[25 مكرر]

وقال عليه السلام : «من أصاب مالا من مأثم، فوصل به رحما، أو تصدق به، أو أنفقه في سبيل الله، جمع الله ذلك جميعا، ثم قذفه في النار...».

☆ ☆ ☆

وقديما تجنب أهل الجاهلية بناء معابدهم، بمال حرام، فلما أرادت قريش بنيان الكعبة نادى مناديهم :

---

23) سورة المومنون آية : 51.

24) سورة البقرة آية : 172.

24) مكرر : سورة المائدة، آية رقم 100.

25) سورة الجاثية رقم آية : 21.

25 مكرر) سورة القلم، الآية 36.

«لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً... لا تدخلوا فيه مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس[26]
وهذا ما يذكره الإخباريون، ويروونه عن بناء البيت الحرام[26 مكرر]، ومن بنى بيتا يقصد به وجه الله، وهو من حرام، يكون كمن :

بنى مسجداً للـه من غير كـدِّه
فجـاء، بحمـد اللـه، غير مُوَفَّق
كمطعمـة الأيتـام من بيع جسمهـا
فليتـك لم تـزني، ولم تتصـدق
رأيتـك تبني مسجـداً من جنـايـة
فـأنت، بحمـد اللـه، غير مـوفق

أو كما قال الآخر :

كسارقة الرمّان من روض جارها،
تعـود بـه المرضى، وترغب في الأجر.

ومثله قول اسماعيل بن عمار :

كصاحبة الرمـان لمـا تصـدقت،
جَرَتْ مَثَـلاً للخـائن المتصـدق
يقـول لهـا أهـل الصلاح نصيحـة :
لـك الـويل : لا تـزني ولا تتصـدق

وعجز البيت الأخير كان عامة الأندلس في عصر ابن هشام اللخمي يتمثلون به، كما يلي :

فياليت لم تزني، ولم تتصدق...»[27]

وتجدر الإشارة إلى أن مقولة : «ومطعمة الأيتام من كدّ فرجها» كانت شائعة منذ العصر الأيوبي...[28]

وقـد ردد الجبرتي[29] مراراً مقـولـة : «كمطعمة الأيتام...» وبخاصة، وهو يتحدث عن مظالم «مراد» حين شرع يعيد عمارة جامع عمرو ابن العاص في مصر القديمة، وكان قد هدم المسجد عن آخره بعد عام واحدٍ من عمارته الظالمة...

وكثيراً ما حدثنا التاريخ عما قام به بعض الولاة من إحداث المشاريع بالمال الحرام، فالجامع الذي بناه الملك «المؤيد» سنة 820 هـ من مال حرام، اغتصبه بطرائق مختلفة، عددها لنا ابن إياس، في أسى عميق، مستشهداً، بمقولة : «كمطعمة الأيتام»، وتشاء الأقدار أن تميل إحدى مئذنتي الجامع، قبل تمام البناء، فرسم بهدمها، فانتهز العامة ذلك، وشنعوا على السلطان، وخاضت فيه ألسنتهم، فكان ذلك مدعاة لسخرية الشعراء، وتهكم الفقهاء، ووجدوا في سقوط المئذنة بهذه السرعة، موضوعا طريفا لدعابة البعض الآخر؛ فمثلا حينما ألف الحافظ ابن حجر العسقلاني كتابه العظيم : «فتح الباري، في شرح البخاري» ألف، بعد أربع سنوات،محمود بن أحمد ابن موسى، الملقب بالبدر العيني :[30] «عمدة القاري، في شرح البخاري»، وكان العيني ينتقد كثيرا من آراء ابن حجر، ويعترض عليه، وقد انبرى ابن حجر للرد عليه وعلى اعتراضاته، وتعريضه به، ووضع في ذلك كتاباً لم يتمه، فكان ذلك من الأمور التي أوجدت الجفوة الكبيرة بين العالمين، ولم تلبث أن انتقلت عدواها إلى تلاميذهما الذين عملوا على تعميقها...

فتلاميذ الحافظ ابن حجر الذين يتحاملون على «العيني» ينشدون في سقوط المئذنة :

بجـامـع مـولانـا «المـؤيـد» رونـق
منـارتـه، بـالحسْن تـزهـو وبـالـزيْن
تقـول، وقـد مـالت عليهم تمهلـوا :
فليس على حسن، أضر من «العيني»

يشيرون بذلك إلى البدر العيني...

ويجيب أصحـاب العيني في تهكم سـاخر، لاذع مقذع...

منـارة كعروس الحُسْن قـد جُليتْ
وهـدُّهـا بقضـاء اللـه والقـدر

26) تاريخ العرب قبل الإسلام. د. جواد علي ص : 6/144.

27) انظر الأهواني : أمثال العامة في الأندلس «ص : 275، وكتاب : «أمثال العوام في الأندلس» لأبي يحيى عبيد الله بن أحمد الزجالي القرطبي (ت : 694 هـ) ص : 471/ق : 2، بدائع الزهور : ص : 317.

28) «الشعر الشعبي الساخر في عصر المماليك» للأستاذ محمد رجب النجار... «عالم الفكر، مج : 13/ع : 3، عام 1983.

29) «عجائب الآثار» ص : 5/254.

30) بدر الدين العيني (762 هـ 855 هـ = 1360 ـ 1451م) ولد بعينتاب، ونسب إليها. فقيل له «عيني» وهي مدينة صغيرة تقع بين حلب وأنطاكية، اشتغل بالتدريس، وشغل مرة منصب القضاء، ومرة أخرى كان، محتسباً، وطورا ثالثا ناظرا للأوقاف، وهي مناصب نافسه عليها معاصراه الشهيران : المقريزي، وابن حجر..

قـالـوا : أصيبت بعين، ! قلت : ذا غلـطٌ

مـــا أوجب الهَـــدَّ، إلا خـــةُ الحجر

يشيرون إلى الحافظ ابن حجر..

يقـول ابن تغري بردى معلقـاً على هـذا الحـادث العجيب : «وبلغت هذه الأبيات جميعا للسلطان، وأنشدت بين يديه، وصار لها في البلد أمر كبير..»[31]

ويرجع سبب هذه المنافسات، أيضا، إلى حسد أقران بدر الدين العينين إياه، على ما بلغ من حظوة ومكانة لدى الأمراء، وما ناله من مناصب عالية رفيعة، كانوا يطمعون فيها، ويرون أنهم أحق منه بها، كما كان الحال للمقريزي الذي حلّ «العيني» محلـه عـدة مرات في تـولي منصب الحسبة، ثم على كثرة مـا ظهر بمصر في عصر العيني من المؤرخين الموسوعيين أمثـال ابن إيـاس، والقلقشنـدي، والمقريـزي، وابن تغري بردى، وابن حجر، والسخـاوي، وابن الصيرفي، وابن عربشاه والسيوطي وغيرهم...

وكـان ابن حجر يمدح سلطـان مصر المؤيـد، ولـه ديوان مخطوط في باريس ذكر فيـه الأشعـار الوطنيـة التي تنم عن حبه لوطنه مصر..

ويمكن القول أن سبب سقوط صومعة : المؤيـد لم تكن إصابتها «بعين»، ولا بناؤها «بخـة الحجر»، وإنما هو قضاء الله وقدره.. وما أحسن ما أنشده نجم الدين بن النبية :

يقـولـون في تلـك المنـــار تـواضـع

وعينٌ وأقـــوالٌ، وعنـــدي جَلِيُّهَـــــا

فـلا «البُرج»[32] أخنى، والحجـارة لم تُعَبْ

ولكن عروس أثقلتهـــــا حُلِيُّهَـــــا

و قال أيضا :

بجـــامـع مـولانـــا المـؤيـــد أنشئت

عروس سمت مـــا خلتُ، قـــطُّ مثـــالَهـــا

ومـــذ علمت أن لا نظير لهـــا انثنت،

وأعجبهـــا، والعجب عنـــا أمـــالهـــا ..![33]

ومثال آخر أيضاً، ما أطلقه العوام على المسجد الذي بناه السلطـان «قـانصوه الغُـوري[34] من المظـالم والمـال الحرام، فسموه : «المسجد الحرام»، وهي تسمية تنطوي على سخرية لاذعة، وفكاهة عدوانية، ونـادرة تهكمية تشير إلى أن مصدر الأموال التي شيد بها هذا المسجد..[35]

قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه : «أربـاب الأموال، والمقترون منهم فِرق : ففرقـة يحرصـون على بناء المسـاجد والمدارس والربـاطـات والقنـاطر، وما يظهر للناس كافة، ويكتبون أساميهم بالآجر عليهـا، ليتخلد ذكرهم، ويبقى بعـد الموت أثرهم، وهم يظنـون أنهم قـد استحقـوا المغفرة بـذلـك، وقـد افتروا فيـه من وجهين : أحدهمـا، أنهم يبنون من أموال اكتسبوهـا من الظلم والنهب والجهات المحظورة، فهم تعرضوا لسخط الله في كسبها، وتعرضوا لسخطه في إنفاقها، وكـان الواجب عليهم الامتنـاع عن كسبها، فإذن قد عصوا الله في كسبهـا، فـالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله، وردها إلى ملاكها، إما بأعيانها، أو بَردّ بدلها عن العجز، فـإن عجزوا عن الملاك، كـان الواجب ردهـا إلى الورثـة، فإن لم يبق للمظلـوم وارث، فـالـواجب صرفها إلى أهمّ المصالح....

☆ ☆ ☆

... وقد ذكروا بأن السيدة مريم بنت محمد بن عبد الله الفهري اشترت أرض جـامـع القرويين بـوجـه صحيح، وأنفقت في ذلك كلـه مـالهـا الموروث من أبيهـا...[36] وكان كثيرا طيباً[36] مكرر.

31) «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» ص : 404 ـ 2/405.

32) إشارة إلى بهاء الدين البرجي ناظر العمارة التي بنيت بباب زويلة والتي كان ينفق منها على المدرسة المؤيدية»، وقد أنشأ، أيضا، في سقوط المئذنة تعريضاً بالناظر البرجي الأديب تقي الدين بن حجة.

33) «حسن المحاضرة» للسيوطي ص : 146 ـ 147.

34) «قـانصوه» : اسم أثنين من المماليك البرجيين : الملك الظاهر «قـانصو I»، ولـد 1470... ملـك مصر (1498 ـ 1500) من أصل جركسي.. خلع عن العرش.. والملك الأشرف «قـانصو II» الغوري (1430 ـ 1516) ملك مصر (1501 ـ 1516) من أصل جركسي، بـالـغ في تقاضي مال المكوس، وخنق سبل التجارة، فكان سبباً لتحويل حركتها من سوريا ومصر إلى الهند، واقع السلطان سليم في «مرج دابق» عن حلب، فقتل، وكان شاعراً، خلف ديوانا، ولـه : كتـاب المنقح الظريف، على الموشح الشريف [الكواكب السائرة للغزي ص : 1/257].

35) «بدائع الزهور» ص : 716.

36) «جني زهرة الآس» ص : 92.

36) مكرر ـ «جني زهرة الآس» ص. 45.

البئر التي في الصحن، فكان البناؤون يستقون منها الماء لبناء الجامع المكرم، حتى فرغ من بنائه، ولم تصرف فيه سواه احتياطا منها، وتحريا من الشبهة...

وقد احتاطت فاطمة في أن يكون المال من إرث حلال طاهر، حيث أنبط البناة البئر داخل حرمها، حتى لا يستعمل الناس في المسجد جرعة ماء مجهول النبع، لأن هذه الجهة يجب أن تخص بأفضل الأموال وأطيبها...

وقد ذكر ابن رشد نقلا عن «منتقى الباجي» أنه لو حبّس ذمي داراً، مثلا، على مسجد، فإنه لا يصح، لأن هذه الجهة يجب أن تُخَصَّ بأفضل الأموال وأطيبها، وأموال الكفار أبعد الأموال من ذلك، فيجب أن تنزه عنها المساجد...[37]

ويحكى أنه قدم إلي الفقيه الصالح أبي محمد يسكر رجلٌ من جبال يازغة يعرف بموسى بن عبد الله بن سدان، وكان له مال كثير، واستوطن فاسا، ولزم صحبة الشيخ أبي محمد يسكر، وذكر له أن بيده مالا طيباً ورثه من أبيه، وأن أباه اكتسبه من حراثته بيده في أرضه، ومن ماشية توالدت عنده، ويريد أن يصرفه فيما يحتاج إليه جامع القرويين... فتوقف الشيخ أبو محمد إلى أن ينظر في ذلك، وصار الرجل يلح عليه في أن يعمل سقاية ودار وضوء بقرب الجامع المذكور لتكون عونا للمصلين، فلما رأى عزمه، وتوسم فيه الخير حمله إلى الجامع، وأوقفه بين المنبر والمحراب، واستحلفه أن ذلك المال طيب، فحلف له، ثم قال له : إشرع الآن فيما أردت من عمل الميضأة والسقاية، والله ينفعك بقصدك»[38]

[illegible] تاشفين، لما ضاق هذا الجامع بكثرة المصلين، كان يخرج من كهف عميق تحت بعض هذه البلاطات الثلا ث؛ وللكهف، الآن، كما يقول الجزنائي،[39] باب مطبق بالقطعة التي بين المحراب وباب المدرج المحدث هناك، وأن الماء الذي صرف في ذلك كان يستقى من البئر الذي بصحنه، كل ذلك تحريا من الشبهات، كذا نقل صاحب الأنيس...

وقد حدث ابن الأثير،[40] فقال : «وفي ذي القعدة من سنة تسع وأربعين وأربعمائة فرغت عمارة المدرسة النظامية ببغداد، وتقرر التدريس بها للشيخ أبي إسحاق الشيرازي، فلما اجتمع الناس لحضور الدرس وانتظروا مجيئه، تأخر، فطلب، فلم يوجد، وكان سبب تأخره أنه لقيه شخص، فقال له : كيف تدرس في مكان مغصوب، فتغيرت نيته عن التدريس بها، فلما ارتفع النهار، ويئس الناس من حضوره، أشار الشيخ أبو منصور بن يوسف بأبي نصر بن الصباغ صاحب كتاب «الشامل»،[41] وقال : «لا يجوز أن ينفصل هذا الجمع إلا عن مدرس، فجلس أبو نصر، ولما علم نظام الملك الخبر، لم يزل يرفق بالشيخ أبي إسحاق، ويزيل شكوكه حتى درس بالمدرسة، وكانت مدة تدريس ابن الصباغ عشرين يوماً....

ومن المعتقد أن المدرسة النظامية كانت إحدى هذه المنشآت التي أتت عليها الحروب المتوالية، كما أحدثت هذه الحروب أزمة مالية كان من جرائها أن اغتصب الحكام والولاة أوقافها، ثم تهدمت، فأصبحت خربة، واستولى عليها

---

37) انظر عدم قبول تحبيس اليهود على مساجد المسلمين، وفتوى أبي عمران القطان عن يهودي حبّس داراً على مسجد بقرطبة. [المعيار المعرب» لأبي العباس الونشريشي ص. 7/75].

38) الجزنائي ص : 71 ـ «الأنيس المطرب، روض القرطاس» ص : 69، ط : دار المنصور، 1973.

39) جنى زهرة الآس ص : 68.

40) «الكامل في التاريخ» ص : 38/ج :10.

41) «الشامل في فروع الشافعية» لأبي نصر عبد السيد ابن محمد المعروف بابن الصباغ الشافعي (تـ 477 هـ) وهو من أجود كتب الشافعية وأصحها نقلا، وله شروح وتعليقات منها شرح للإمام أبي بكر محمد ابن أحمد البغدادي الشاشي (تـ 507 هـ) في عشرين مجلداً، سماه الشافعي، وكان بقي من إكماله نحو الخمس، هذا في سنة 494 هـ. وشرح لعثمان ابن عبد الملك الكردي (تـ 738، وشرح لابن الخطيب الجبريني الجلبي (تـ 739 هـ).

أحد الولاة، وضمها إلى أملاكه الخاصة، وهكذا كانت النهاية التعسة لهذا المعهد العظيم.[42]

وقد كان السلف الصالح يبني دورا للعلم من مال حلال، ويؤسس بيوتا للعبادة من أطيب الثمرات والغلال، ويقوم، احتساباً، بشتى الوظائف الدينية والعلمية، ويقرض الله قرضاً حسناً... وكثرة تلك الوقوف درّت أموالا وثروات جعلت الموظفين الدينيين يتسلمون أرزاقاً مجزية مقابل التزامات أدبية ودينية واجتماعية...

وقد خصص الواقفون الكثر، لبيوت الله، ووجوه البر والإحسان، والشؤون الاجتماعية التي يفرزها المجتمع الإسلامي، أموالا غزيرة عن طريق الوقف، فاضت عن الحاجة، وأعطت رخاء لحياة الناس لفرط ما أغدقه أولئك الواقفون حتى غدا الموظف الديني ينعم في جو من الدعة والاستقرار، بمرتبات مجزية أساسها المال الحلال، والطيب من الثمرات والغلال...

وتبارى الواقفون في كثير من الفترات التاريخية، وتراكمت وقوف لا عداد لها في بعض الأقطار الإسلامية ولا سيما تلك التي كان يعمها الظلم والقوة والفساد، إلى وقف ثروات كثيرة لفائدة و حياة واستمرار المسجد وحية المؤسسات العلمية.. حتى إن الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد رحمه الله، كان يرى الأوقاف على كثرة في مصر ليست من نتاج البر والرحمة، ولكنها من نتاج الظلم والقوة.. والدليل على ذلك أنها قلّت حين قلّ الظالمون والقساة من الحكام، وكسدت سوقها حين كسدت سوق الرشا والهدايا، وداخل الشك القلوب في أجر هذه الأوقاف والصدقات... و لو كانوا يقفونها للفقراء رحمة بهم، وحدبا عليهم لما قلت، والفقراء كثيرون، والبلاد على وفرها وغناها القديم.[43]

هكذا كان الأستاذ العقاد يشك في صفة الرحمة التي توصف بها هذه الأوقاف المحبوسة على سبل الخير، وهذه التركات التي يوصي بها تاركوها للفقراء والمساكين، فإنها صدقات لا تدل على عطف كبير، ورحمة صحيحة، ولو بحثنا في أكثرها، لعلمنا، يقول الأستاذ العقاد، أن واقفيها كانوا من أقسى خلق الله قلوباً، وأشدهم عيثاً وظلماً، واعتداء على الأرواح ونهباً للأموال... ومنهم ـ يزيد الأستاذ العقاد، من قضى حياته في ابتزاز أرزاق الفقراء، حتى إذا أدبرت أيامُه، وحانت منيتُه، ظن أنه مكفر عن خطاياه بمسجد يبنيه للعبادة، أو تكية يفتحها لبعض المعوزين، أو ضريح من أضرحة الأولياء يعمره بالقراءة والجرايات تقربا من الله، والتماساً لرضاه، وخوفاً من عقابه، فهو يرضي الله على الطريقة التي كان يرضي بها رؤساءه حين يقدم عليهم، وهي أن يرشوهم ببعض ما ارتشى به، ويهدي إليهم ببعض ما أهدي إليه.. فما هذه بصدقات، ولكنها رشىً مستورة، وثمن لما يرجوه باذلوها من المغفرة والمثوبة، وقربان منهم «لوجه الله..»

ومن ذا الذي لا يتقرب إلى الله، وهو قادم عليه ؟ ومقبل على عقابه ؟

☆ ☆ ☆

إن الأوقاف لم تكن عند نشأتها الأولى معقبة، وإنما اخترع ذلك بعد الإسلام لسبب ترامي الظالمين القاسطين، والولاة المعتدين، للعصور المتقدمة، على أراضي الله بحيث كثيرا ما كانوا يحبسونها على ذريتهم فراراً من تعدي ولاة الأمر... وأكد ابن خلدون ذلك في سبب نشر العلم وتعليمه وحفظه لما وقع لهذه العصور منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا... وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على مَن يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته، فاستكثروا من بناء المدارس والربط والزوايا، ووقفوا عليها الأوقاف المُغِلة يجعلون فيها شِرْكاً لِوُلْدِهِم يَنْظُر عليها، أو يصيب منها مع ما فيهم، غالباً، من الجنوح إلى الخير، والتماس الأجر في المقاصد والأفعال، فكثرت الأوقاف لذلك،

42) انظر : مقالا للدكتور الأستاذ مصطفى جواد بمجلة : «العلم الجديد ص :115، عام 1949.

43) «مطالعات في الكتب والحياة» ص : 458، للعقاد.

وعظمت الغلات والفوائد، وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها، وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب، ونفقت بها أسواق العلوم، وزخرت بحارها..»[44]

ولقد أصبحت الإدارة، في وقت من الأوقات، ولا سيما في العهد الذي تحدث عنه العلامة عبد الرحمن بن خلدون، في يد خونة مرتشين تفيض أردانهم بالنَّتْن الموبق، وتسيل أكفهم بالمال الحرام، وكان الحاكمون، في عهد المماليك وقبله، كل شيء في جهاز الدولة.. وكان أتباعهم من رؤساء الجند والأُمراء، لا يتقيدون بدستور ملزم وملجم، إذ يكون الموظف موضع الرضا من السلطان حتى يقهر ويبطش، ويفرض الإتاوة كما يشاء، بل ان نهب المتاجر، وسلب الأموال، وتفتيش منازل من يتوهم لديهم الثراء للاستيلاء على كل ما يجدونه، وكأنه أمر مشروع.. ودون اعتراض من السلطان، ومن بيدهم الأمر، إذ أنهم في أكثر الأُمور، كانوا محرضين موجهين، فكيف يحرصون، بعد ذلك على إحقاق الحق ونصرة المظلومين، ورعاية رغبات الواقفين...

☆ ☆ ☆

إن الأوقاف عمل اجتماعي، دوافعه في أكثر الأحيان اجتماعية، وأهدافه دائما اجتماعية..

فالأوقاف الإسلامية، في الأصل عمل اجتماعي، ومحاولة الفقهاء والمتمولين المسلمين للحَدّ من مشكلتين شائكتين : مشكلة الفقر.. ومشكلة المركزية الشديدة والاستبداد..

وقد ازدادت الأوقاف الإسلامية في جل بقاع العالم الإسلامي، سواء في المغرب أو غيره، ولا سيما في العراق بشكل ملحوظ، بعد ثورة الزنج أو «العبيد» بالبصرة في القرن الرابع الهجري، حيث ندرك أن رجال ذلك الوقت حاولوا الحد من خطورة الصراع الطبقي بإمداد المجتمع بشبكة من المؤسسات الاجتماعية الموقوفة التي تطارد الجوع والحاجة، وتخفف من حدة لأواء الحقد الطبقي..

أما المركزية، فقد كانت واضحة خلال العصور التي كان فيها الخليفة هو كل شيء في العالم، وكان عامله هو كل شيء في الملحقات... ولما تحول نظام الشورى إلى استبداد مطلق لجأ الفقهاء المسلمون والمتمولون المومنون إلى إنشاء مؤسسات ثقافية وحتى سياسية في قلب الدولة، ووقع رجال السلطة في الشرك، فلجأوا، هم أيضاً، إلى وقف دور وأموال من قبيل التفاخر والمنافسة، وكان ذلك كله خيرا على المجتمع، وخصوصا فئاته التحتية...

وكيفما كانت الدوافع التي حفزت هؤلاء على وقف تلك المؤسسات، فإنها مقبولة لا محالة، عامة النفع، ذات عائدة وفائدة وجدوى، وقد أكد هذه المقولة ودافع عنها، ونافح دونها، الوزير التركي عبد العزيز مؤلف كتاب : «نتائج الوقوفات» حيث قال : «إذا كان من الواقفين من هم على هذه الصفة، فإن أكثرهم على خلاف ذلك لا محالة، وقد رأينا في صكوك أحباسهم أنهم وقفوها على الجوامع والمدارس والكتاتيب والخانات والحمامات، وعلى إنشاء القلاع وإعاشة القائمين عليها من المرابطين، وعلى أبناء السبيل؛ إذا عرفت هذا، وشاهدت ما أبقوه من هذه الآثار الجسيمة النافعة التي اسعدوا بها على نشر المعارف والعلم، وعمروا بها البلاد، فليس من الإنصاف أن تقدم الأَصل على الفرع، وتذهب إلى سوء الظن. قال : «وإذا جئنا نبحث عن المبالغ التي أنفقت على هذه الأوقاف، وهل اكتسبت من وجوه محللة، فأنا معك بأن كل هذه الخيرات لم تتم بالمال الطيب، أما وقد جمعت تلك الأموال بصورة مختلفة، فإن إنفاقها بما ينفع الناس من الأعمال الصالحة أزين في العاقبة، وأدعى إلى المحمدة من صرفها في الإسراف والسفاهة، وحابسها يذكر بالرحمة، ويستفيض اسمه المسجل في عداد المتصدقين..».

وفي أواخر العصر التركي صنعت الظروف هدفاً جديداً للوقف، فقد بدأ الاستعمار الأُروبي يتغلغل في ممتلكات الدولة. تارة متاجراً، وتارة مستوطناً، وأمام إغراء المال الكثير، كان ورثة كثيرون يبيعون ما يملكون جهلاً

---

44) مقدمة ابن خلدون ص : 3/991. تحقيق د. علي عبد الواحد وافي..

منهم بالعملية الاستعمارية وراء هذا كله، فكان الوقف الذري مخرجاً شرعيا لمنع البيع...

☆ ☆ ☆

وإلى عهد غير بعيد كان الناس في بلدنا وغيرها من الأقطار الإسلامية يتبارون ويتفننون في أعمال العرف والبر والإحسان عن طريق وقوف يقدمونها، في وجوه شتى، بين يدي نجواهم صدقة وزكاة لفائدة البائس والمكروب، والفقير، والمحتاج، ولبناء المؤسسات الاجتماعية والمرافق الخيرية..

ولعل أرق وأرقى، وأسمى هدفاً، وأنبل غاية من أنواع الوقوف الخيرية والاجتماعية في العقود الأخيرة، ما وقفه المحسان الفقيه الأديب الأستاذ السيد أحمد (ت 1961 هـ) ابن المرحوم بكرم الله شيخ الجماعة بالحضرة الرباطية سيدي محمد الروندة وزير العدل السابق الذي أوصى[45] ووقف بأن يصير الباقي من ثلث متخلفه بعد تجهيزه... على أقرب قريب من أسرته بشرط أن يتوجه إلى الخارج طلباً للعلم، ولمتابعة دروسه العليا، ويتخصص في العلوم العصرية الحديثة... ولقد كان من أول المستفيدين من هذا الوقف العلمي، أخونا الطبيب النطاسي القدير الاختصاصي في أمراض الجهاز الهضمي وخريج كلية باريس، ورئيس قسم أمراض الجهاز الهضمي بمستشفى ابن سينا الأستاذ السيد عبد الله بناني، وكذلك الأستاذ محمد رضا عبد السلام الروندة الذي تخرج من المعهد العالي للتجارة، وإدارة المقاولات، وهو بصدد تهيء دراسة عليا بكندا : وأخوه السيد محمد الذي يحضر دكتوراه في الفيزياء بتولوز - فرنسا، وشقيقتهما الآنسة «سناء» خريجة المعهد العالي للتجارة بباريس... وكذلك استفاد من هذا الوقف الحي المتحرك الذي يساير مقتضيات العصر، ومستلزمات التطور الآنسة «مُنَى» بنت صديقنا الأستاذ السيد الصديق بن محمد الروندة، وقد تخرجت من كلية الطب والصيدلة بموناستير تونس، وشقيقتها الآنسة «أمينة» التي نالت شهادة الإجازة ودبلوم المالية والأعمال البنكية بمدينة - «إيكس - آن بروفانس»، وأختها الآنسة «ريم» التي نالت بفضل هذا الوقف المتطور دبلوم من كلية الطب والصيدلة بموناستير - تونس (طب الأسنان في عام 1986) وهي الآن تتابع دراستها الطبية العليا وتدريبها بمدينة تولوز - فرنسا...

وهناك عدة وقوف من هذا القبيل، وقفها كثير من المحسنين الواقفين في الوقت الحاضر لقضايا وأهداف اجتماعية ودينية، فجزاهم الله، وان لهم لأجراً غير ممنون...

☆ ☆ ☆

بيد أنه، وفي السنين الأخيرة جدا، التي كثر فيها البؤس والشقاء والحرمان، وفاض المال، وعم الرخاء، واتسع الغنى والثراء لأرباب التجارة والمال، انقبضت الأيدي عن البذل والإنفاق الخيري، فأصبحت مغلولة إلى العنق، ولم نعد نسمع أريحية لمحبس، ونخوة لواقف...

ولقد أصاب شاكلة الرّمي صاحب الجلالة الحسن الثاني حيث أشار، بموضوعية وذكاء، إلى هذه الظاهرة في خطابه لعيد الشباب[45 مكرر] ملاحظا أنه في السنين الأخيرة تناقص عدد المحبسين... وأن الأحباس لم تصبح متضررة من جراء ذلك فحسب، بل تقلصت مداخلها..

هل معنى ذلك أن فاعلي الخير لم يبق لهم وجود ؟ وهل معنى هذا أن الناس لم يعودوا يرغبون في أن يحبسوا على اليتامى وعلى العرائس اللائي لم يجدن ما ينفقن في زواجهن...

فالأحباس هي مقياس للحضارة والرقة... رقة شعور الأمة أو الشعب الذي يحبس، وتنوع نيات ولفظ المحبس».

صحيح إن كثيرا من الناس لا نراهم اليوم يقفون، ويحبسون كما كان غيرهم من المثرين السابقين، بالإضافة إلى نهب ثروات الوقف على بعض المتنفذين، فالأقطار

---

45) لنا بحث مستفيض ودقيق ومعمق حول الفروق بين : الحبس، والوقف، والوصية، والهبة الخ.. الخ..

45) مكرر - من خطاب جلالة الملك في عيد الشباب 9 يوليوز 1985...

الإسلامية كانت قديماً، تتوفر على رصيد هائل، وثروات ضخمة من الأراضي والعقارات والأموال... كما هو الشأن بالنسبة للأراضي الوقفية في مصر والعراق المغرب، وغيرها من الأقطار الإسلامية... وقد زخرت هذه المؤسسات بثروات مالية ضخمة، مصدرها الحلال الطيب، تنفق منها بسخاء على الشؤون الدينية والاجتماعية، وتغدق على الموظفين الدينيين، بيد أن هذه المؤسسة الوقفية، كما قلنا آنفا، منيت بشيئين : كزازة اليد في عدم الوقف، والسطوة على ثروات الأوقاف...

وأسوق بين يدي نجوى هذه الدراسة مستشهدا بشهادة عيان، مارس العمل في هذا المجال الوقفي، زمنا طويلاً، حتى وضع كتاباً في إصلاح الوقف، بعد أن ساءه ما يلقاه هذا المرفق الكريم من عبث العابثين، واستغلال المتنفذين حيث يقول المرحوم محمد أحمد العمر،[46] في كتابه :[47] المتنفذون كثيرون في هذه البلاد، وأقصد «بالمتنفذين» من كانت لهم صولة وجولة، ولهم تأثير وكلام مسموع لدى الرؤساء والوزراء.. إما لثروتهم، وإما لسبق تسلمهم منصبا وزارياً، أو منصباً هاماً، وقد ابتلت بهم دائرة الأوقاف أكثر من أي مصلحة حكومية أخرى.. لأن الأوقاف لها كثير من الأملاك والعقارات التي يستأجرها هؤلاء المتنفذون أو التي تجاور أملاكهم أو التي تتركز مطامعهم في سلبها... ولدى مديرية الأوقاف أسماء كثيرة ممن استغل نفوذه في الامتناع عن دفع بدل الإجارة مدة سنين طويلة حتى كاد يذهب بها مرور الزمن.. وبعضهم اغتصب أرضا للوقف دون أن يدفع أجرها، وبعضهم اغتصب أرضا بحجج مختلفة، وهم كثيرون، وأساليبهم كثيرة.. وحيث إننا نكتب كتابنا متوخين أن يكون ذا صبغة علمية نهدف به الإصلاح، لا الطعن في الأشخاص، فقد اكتفينا بالتنويه هذا..».

يبقى علينا أن نفهم أن مهمة تقنين الأوقاف، ووضع تعليماته ومحاولات إصلاحه كانت توكل إلى هؤلاء وأمثالهم ومن يأتمر بأمرهم... ولك أن تتأمل أي مصلحة يمكن لأمثال هذا الفريق من الناس أن يحققوها للوقف.

وما قلناه عن العراق، مثلا، يمكن أن نسوقه إلى حالة الوقف بالنسبة إلى مصر، إن هناك الكثير من الأراضي والعقارات المملوكة لوزارة الأوقاف المصرية، والتي لا تزال مغتصبة منذ أكثر من (150) عاماً، وما زالت ساحات المحاكم تشهد معارك قضائية وقانونية حامية الوطيس بسبب الإرث وتفتت حيازات الأوقاف المملوكة للغير...

وأموال وأملاك الأوقاف الضائعة والمغتصبة هي القضية الأولى التي تشغل المسؤولين في هيئة الأوقاف المصرية حاليا، وهو ما أدى إلى تدخل الرئيس حُسني مبارك ومطالبته فضيلة الشيخ إبراهيم وزير الدولة للأوقاف سابقاً بضرورة العمل الفوري، وبذل الجهد لاستردادها وتوظيفها في خدمة الدعوة الإسلامية والبر بالفقراء...

وتشير الدراسات والتقارير إلى أن قيمة أراضي المسلمين التي تشرف على إدارتها هيئة الأوقاف المصرية تصل إلى ما يقدر بـ 500 مليون جنيه أما الضائع والمغتصب فيصل إلى أضعاف أضعاف هذا الرقم..

ويكفي أن ثلاث قضايا فقط كشف عنها النقاب ما بين يونيو 1982، غشت 1983 تشير إلى أن الضائع والمغتصب من أراضي وعقارات الأوقاف يقدر بما قيمته ستة مليارات جنيه...

وقد وجه الدكتور إبراهيم عوارة عضو مجلس الشعب طلب إحاطة إلى كل من وزيري الصحة والأوقاف حول وضع مستشفى الجمهورية، وعدم انتظام وزارة الصحة في دفع الأقساط المقررة لوزارة الأوقاف باعتبارها مالكة المستشفى فجاء في رد وزير الصحة إن هناك سيدة تركية اسمها «خديجة مظفر طورسيل» (90 سنة) حصلت على حكم قضائي بتملكها المستشفى...

46) مدير الأملاك والحقوق في مديرية الأوقاف العراقية منذ 1946/4/13.

47) «الدليل لإصلاح الأوقاف» ص : 93.

ولم يكن مستشفى الجمهورية العقار الوحيد الذي تملكه الأوقاف، واستولت عليه السيدة التركية بالقانون، فقد تمكنت من الاستيلاء على 50 عمارة في قلب القاهرة، و 50 عقارا في الأسكندرية. و 18 عقارا في مدينة رشيد، من بينها مبنى وزارة الأوقاف، وقد بدأت هذه السيدة عدوانها في عام 1972 بادعائها أنها آخر ذرية أميرين عثمانيين كانا يعيشان في مصر منذ 400 سنة..

وقدرت قيمة العقارات التي استولت عليها خديجة طورسيل، بمائة مليون جنيه، ومحاميتها هي ابنتها فاطمة رئيسة جمعية الأتراك المستحقين للأوقاف في مصر، وقد ادعت المحامية أن الأتراك لهم نصف القاهرة، ومن حق والدتها تسلم قصر عابدين كأحد العقارات التي تمتلكها...

ونظراً لخطورة ادعاآت السيدة التركية وابنتها شكل مجلس الشعب المصري لجنة لتقصي الحقائق، وبعد البحث والتمحيص حولت اللجنة القضية برمتها إلى المدعي الاشتراكي للتحقيق، والذي أثبت بدوره عدم صحة ادعاآت السيدة التركية بعد الاطلاع على الوثائق والحجج القديمة والرسمية، وانها وصلت إلى ما وصلت إليه بالغش والتزوير، وتواطؤ عدد من كبار الموظفين مع التركية العجوز..

والقضية الثانية التي كشفت عن عقارات وأملاك ضائعة ومغتصبة من وزارة الأوقاف المصرية لها قصة بطلها مواطن أسكندري اسمه محمود إسماعيل محمود، وهو موظف على المعاش، كان يعمل رئيساً لقسم الأحكار في الأوقاف بالأسكندرية، طوال سنوات عمله لا يشغله سوى أموال وأراضي الأوقاف الضائعة. قدم الرجل العديد من الشكاوي للمسؤولين في الوزارة، ولم يلتفت إليها أحد... وقد قدم بلاغاً إلى المدعي الاشتراكي بعد أن أفاض به الكيل.. وأصدر المدعي الاشتراكي قراراً بانتداب لجنة من العاملين في هيئة للأوقاف للتحقيق في شكوى المواطن الأسكندري، وثبت من الدراسات والتحقيقات أن هناك ألفاً وثلاثمائة وسبعة وتسعين فداناً وخمسة عشر قيراطاً، و 14 سهماً مغتصبة من أوقاف المسلمين في كردون مدينة الأسكندرية وقدرت قيمتها بثلاثة مليارات جنيه..

والقضية الثالثة، فقد كشف عنها النقاب في شهر غشت عام 1985، وهي في الواقع مؤامرة حيكت ضد وزارة الأوقاف، ولم تكتشفها إلا بعد مضي 40 عاماً، حيث تعدى بعض المواطنين على جزء من وقف سيدي محمد الأنصاري الشهير سيدي كرير. ومساحته 28042 فداناً بصحراء مريوط من الكيلو : 19. إلى الكيلو 47، طريق الأسكندرية - مرسى مطروح... وكان هذا الوقف في رعاية نظار الأوقاف لسنوات طويلة، ثم أصبحت الوزارة ناظرة عليه بحكم القانون 272، لسنة 1959.

وقد قام ورثة حميدة قبودان خلاف بتحويل وقف أهلي خاص بهم مساحته لا تتعدى 18 فدانا بأساليب متنوعة من الغش والتلاعب، إلى 8 آلاف فدان، وتصرفوا في ما استولوا عليه بالبيع إلى أفراد وهيئآت وجمعيات إسكانية في غيبة من وزارة الأوقاف، والتي تعاني منذ سنوات من سكان المنطقة الذين يسيطرون على أراضي الساحل الشمالي، ويدعون ملكيتهم لها تحت ستار وضع اليد...

أما قيمة ما استولى عليه ورثة «حميدة خلاف» فقد قدرت وفقاً لآخر الأسعار بمبلغ ثلاثة مليارات ومائتي مليون جنيه، وهي أموال من حق المسلمين وقفها أصحابها من أجل عمل الخير والدعوة الإسلامية، إلا أن بعض الذين لا ضمير لهم انقضوا على الأرض في غفلة من الأوقاف، وهم مثل غيرهم الذين استولوا على مبان وعقارات من حق المسلمين بطرق ملتوية غير مشروعة..

وهكذا كشفت ثلاث قضايا فقط في غضون عام واحد ضياع واغتصاب عقارات ومبان وأملاك من الأوقاف تصل قيمتها إلى ستة مليارات جنيه.. وما زال هناك المزيد الضائع.. والسؤال كيف ضاعت هذه الأموال والأراضي على هيئة الأوقاف ؟ وما هي الوسائل والإجراءات التي تتخذها وزارة الأوقاف المصرية للتعرف على أملاكها ؟ وما هي سبل المحافظة عليها من الاغتصاب ؟

يقول فضيلة الشيخ إبراهيم الدسوقي وزير الأوقاف المصرية سابقاً : ان الوزارة تعمل جاهدة للتعرف على الأوقاف سواء كانت عقارات أو أرضاً زراعية بوسائل من

بينها الاستعانة بالصحف للإرشاد عن الأوقاف المتناثرة في شتى المحافظات المصرية وتركيا واليونان، أو تقديم الوثائق والحجج التي تدل على أن هناك أوقافاً في أي موقع من المواقع... وفي سبيل ذلك، فإن الوزارة قدمت لمن يحدد أماكنها مكافأة مجزية، لأمانتهم وحرصهم على أوقاف المسلمين.. كما أن هناك لجاناً من علماء الدين المتخصصين تعمل في بحث حجج الأوقاف الموجودة بالوزارة، لاستخراج الأعيان المرصودة على جهات البر أو لتشييد المساجد، أو لنشر الدعوة الإسلامية، وتحفيظ القرآن الكريم.. فهذه اللجان تعمل بصفة دائمة، ولها أثر كبير في الكشف عن كثير من الأعيان في الأراضي الزراعية، وكذلك العقارات في شتى المواقع...

وفي هذا الصدد، فقد شكلت لجان أخرى على مستوى المحافظات المصرية، كانت مهمتها متابعة تسلم الأوقاف التي يتبين صحة أحقيتها حتى يتم وضع اليد عليها، وبناء عليه، فقد صدر قانون «الأحكار» بهدف حصر الأحكار المنتشرة في القاهرة والأسكندرية وبقية المحافظات المصرية تمهيداً لوضع اليد عليها أيضاً، كما استعانت وزارة الأوقاف المصرية بأجهزة الدولة المختلفة في تنفيذ هذا القانون، والحفاظ على الأوقاف من الاغتصاب، ويساعدها في ذلك تعليمات رئيس الجمهورية، والذي طالب أكثر من مرة بضرورة تسلم جميع الأوقاف، وتوجيه عائدها إلى مصارف الخير، تنفيذا لشروط الواقفين...

وإذا كان ذلك بالنسبة لأوضاع الأوقاف في داخل جمهورية مصر العربية، فإن هناك أوقافاً أخرى خارج مصر، كما هو الحال في وقف «قولة» باليونان وهذا الوقف يرجع تاريخه إلى ولاية محمد علي حاكم مصر في بداية القرن التاسع عشر، وحتى الآن، لا تزال تجري مفاوضات بين الحكومتين المصرية واليونانية بشأنه واستبداله حتى يمكن الانتفاع بثمنه في أوجه البر المختلفة...

تلك هي المشاكل التي تعيشها أوقاف مصر الضائعة المنهوبة التي حصل فيها من التفويت والخلط والنهب ما ذكرنا البعض منه آنفاً، مع أن تنظيم الوقف بصفة استقلالية عرفته بلاد مصر والمغرب، وذلك لوفرة المداخيل، ورعاية وتوجيه المحبسين..

فعندما قامت الثورة في مصر عام 1952، وسلكت إلى الاقطاع سبل التصفية والإنهاء، وجدت أن بقاء الوقف الذري قد يتعارض، وهذه الرغبة في الحد من الملكية الزراعية حيث كان الكثير من المستحقين يتمتعون في الواقع بمركز لا يختلف في جوهره عن مركز الإقطاعيين، فاتجهت الحكومة المصرية إلى الرأي القائل بعدم جواز الوقف الأهلي، فأصدرت القانون رقم 180 لعام 1952 الذي نص على إلغاء ما كان موجوداً من الأوقاف الأهلية، وجعل الأموال الموقوفة عليها حرة طليقة، كما منع إحداث أوقاف أهلية جديدة، فأصبح الوقف بذلك قاصراً على الخيرات فقط..

وتسهيلاً لأصحاب الاستحقاق، وتشجيعاً لهم على إخراج أوقافهم من الوزارة وتداولها، جعلت الوزارة من اختصاصها، أيضا، إجراء القسمة بين المستحقين، وأصبحت الوزارة حارسة على ما تحت يدها من أموال كانت وقفاً تديرها حتى تتم القسمة، ثم قامت الوزارة في عام 1966 ببيع وتصفية ما تبقى في حراستها من أعيان كانت موقوفة وقفاً أهلياً، ولم تتم قسمتها، أو لم يتسلمها أربابها.. ومن هنا حدث ما حدث من تجاوزات لأعيان الوقف، وضاع الكثير من العقار في غفلة عن أعين حراس هذه المؤسسة..

☆ ☆ ☆

ولحسن الطالع، فإن أوقاف المملكة المغربية الثرية وجدت لها حماة وحراساً من أقيالها وملوكها قديما وحديثا، يؤازرهم في ذلك الحفاظ والرعاية، العلماء وأهل الحل والعقد...

ولمواقف العلماء في هذا الصدد، مواقف جليلة بناءة فقد بادروا إلى الإعلان عن موقف الشريعة الإسلامية من مسألة الإصلاح الزراعي، الذي بمجرد إشاعته أن توزيع الأراضي الفلاحية يشمل أراضي الأوقاف الإسلامية، عبروا عن معارضتهم الشديدة لفكرة تفويت ممتلكات الأوقاف، حيث

أصدرت رابطة العلماء بالمغرب في مؤتمرها المنعقد بمدينة مراكش 1972 توصية خاصة بأراضي الأوقاف جاء فيها يلي : «حيث إن الأوقاف هي السند القوي لقيام الموظفين الدينيين بمهامهم المنوطة بهم، والضامنة لاستمرارها وبقائها.

وحيث إن وزارة الفلاحة والإصلاح الزراعي ـ على ما يظهر ـ قد تأثرت بالدعوة إلى توزيع الأراضي الفلاحية على الفلاحين بما فيها أراضي الأوقاف..

فإن مؤتمر رابطة علماء المغرب يذكر بعدم تفويت أراضي الحبس، وإن إصلاحها وترميمها، لا يكون سبباً في هذا التفويت لا شرعاً، ولا قانوناً، ولذلك يوصي بأن تبقى هذه الأراضي تابعة لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية التي تعمل على استثمارها واستغلالها لصالح الموظفين الدينيين ممن حبست عليهم... تنفيذاً لوصية المحبس، لأن في تفويتها على الوجه الغير المشروع خرقاً صريحاً لأحكام الشريعة وضياعها الأهداف الدينية العادلة.. وليس من المعقول، ولا من الإنصاف أن يعيش الموظفون الدينيون على حياة الكفاف طوال الأحقاب المتوالية حتى إذا جاء الوقت الذي تتصلح فيه هذه الأراضي، وينمو دخلهم، يعوضون بالحرمان، ويعطى خيرهم لغيرهم».

كما وصى المؤتمر السابع لرابطة علماء المغرب الذي انعقد في جمادى الثانية عام 1399 ـ ماي 1979 بمدينة وجدة : «برعاية الأحباس والممتلكات الحبسية الرعاية المأمور بها شرعاً، وتعهدها بالتنمية والاستثمار، وبعدم السماح بتفويت الأملاك الحبسية بغير موجب شرعي في الوقت الذي يستحب فيه تحبيس أملاك جديدة..

مقارنات ومفارقات...

تلك هي الرعاية التي كانت تحظى بها مؤسسة الوقف، سواء فيما يتعلق بمصادر ثروتها وأموالها وأوفارها؛ أو طرق إنفاقها وتسخيرها على وجه مشروع.

فلم يعرف في تاريخ الإسلام أو في العصور التي قبله أن أموال الوقف جمعت من أموال الحرام، أو بطرق غير شرعية، بل، إن «الفاتيكان»، كان فيما مضى، وفي غابر الأزمان يعتمد على الصدقات ومبرات المومنين الطيبين التي يجمعها القساوسة يوم 29 يونيو من كل عام، بيد أن هذه الصدقات باتت، لم تعد ذات قيمة تذكر، إذا قيست بالأعمال التجارية والمالية الضخمة التي يقوم بها «الفاتيكان» على كل المستويات، مما جعله يحتفظ اليوم بثروة هائلة من الذهب تفوق الخيال، في كل من كندا، والولايات المتحدة وعدد من البنوك، وأهمها «بنك ريزرف» بأمريكا،[48] بل إن ميزانية «الفاتيكان» السنوية تقدر بألف مليون دولار توضع تحت تصرف البابا مباشرة..

فثروة «الفاتيكان» تعتبر سراً من الأسرار التي لا يعرفها إلا ستة أشخاص من الكرادلة برأسة البابا نفسه..

إن كنز الفاتيكان الثمين، اليوم، ليس مجرد كنز مالي، ولكنه تراث لا يقدر بثمن، رغم قطع الفيروز والماس التي ترصع التيجان الذهبية المهداة من مختلف الملوك النصارى، وشعوب العالم المسيحي لعدد البابوات... وحقيقة هذا الكنز تخبقى حقيقته على الكثيرين في شتى أنحاء العالم حتى على المسيحيين أنفسهم...[49]

إن مساحة «الفاتيكان» لا تزيد على 44 هكتاراً، وأن عدد سكانه لا يتجاوز الألف نسمة، إلا أن عدد إمكانياته تأتي في المقام الثالث بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، فهو أقوى دولة، وأغنى دولة في العالم...

والفاتيكان يملك كل الكنائس والأديرة في إيطاليا، ويملك مآت الألوف من الأفدنة، ويملك شركات النقل المشترك، وله نصف أسهم شركة «اليطاليا للطيران»، ويملك بنوكاً كبرى في إيطاليا : «البنك التجاري الإيطالي»، و «بنك الروح القدس»، و «بنك روما»، ولها 150 فرعا...

48) «الإسلام في مواجهة أعدائه» للصديق الأخ د. توفيق علي وهبة ص 317، و«الدعوة الحق» ورئيس تحريرها فضل كبير في نشر هذا الكتاب.. إص 12 من الكتاب فيه تفصيل كيف تم طبع ونشر هذا الكتاب. فليراجع...ا.

49) «المجتمع» العدد 512 ـ الثلاثاء 14 ربيع الأول 1401 هـ الموافق 1981/1/20.

ويوجد للفاتيكان عضو مجلس إدارة في جميع الشركات العقارية والصناعية والكيماوية والمطاحن وشركة التأمينات العمومية «لتريستا».. وللفاتيكان مؤسسة اسمها : «مؤسسة الأعمال الدينية» وهي خاصة بروس أموال رجال الدين فقط ـ وهي معاملات لا تخضع للدولة الإيطالية، ولا ننسى أن أبناء «الفاتيكان» يتمتعون بالحصانة، ولا يخضعون للجمارك، ولا للتفتيش الجمركي..[50]

ويقولون بأن الفاتيكان هو عمود الاقتصاد الإيطالي، ولو سحب الفاتيكان يده من المعاملات الإيطالية لانهارت إيطاليا فوراً... ولذلك فكل الأحزاب تعتمد على رضاه، حتى الحزب الشيوعي الإيطالي يحسب للفاتيكان ألف حساب، فعندما حاول «تولياتي» أن يعقد زواجاً سعيداً بين الكاثوليك والشيوعية كان يقصد بذلك أن يكسب المزيد من الأنصار لحزبه، ولا يزال أتباع «تولياتي» في داخل الحزب الشيوعي الإيطالي يرون أن من الممكن أن يكون المواطن شيوعيا ومسيحيا في نفس الوقت، وأن الأوضاع في إيطاليا تعتبر جديدة من نوعها..

وبذلك أصبح «الفاتيكان» يعتبر دولة ذات سيادة مستقلة منذ توقيع الاتفاقية مع إيطاليا في 14 فبراير 1929، له ممثلوه في عدد من دول العالم، ويسمى ممثل «الفاتيكان» : «القاصد الرسولي» وهو بمثابة سفير يتمتع بالحصانة الدبلوماسية التي يتمتع بها سفراء الدول..[51]

إن للفاتيكان عدة أراضي يمتلكها في رقاع المعمور، وبقاع الأرض، فله أراض واسعة باسبانيا معفاة من الضرائب، وأراض أخرى رحبة الحدود واسعة الأطراف في أمريكا اللاتينية، وأراض واسعة ومؤسسات كثيرة منتشرة في أنحاء العالم، ومنه العالم العربي وديار الإسلام...

فثروة الفاتيكان وميزانيته السنوية تقدر بألف مليون دولار توضع تحت تصرف البابا مباشرة، ولعل أهم الشركات، والمؤسسات والبيوتات المالية والمصارف التي يمتلكها الفاتيكان أو يسهم فيها في مجالات الاستثمار هي في ميدان الشركات : «شركة السكك الحديدية بجنوب إيطاليا»؛ «شركة أدرياتيك للملاحة»؛ «الشركة السويسرية للأشغال العامة»؛ «شركة الكهرباء في زوريخ»؛ «الشركة الهولاندية للمازوت»؛ «جزء كبير من صناعة النسيج في برشلونة»، «عدد من الشركات في كل من النمسا وألمانيا وبريطانيا»؛ «جزء كبير من صناعة الحديد في بلباو»؛ و«شركة نسيج الشمال بأمريكا اللاتينية»؛ «شركة المباني الخاصة بأمريكا اللاتينية»؛ «شركة أنتر ناسيونال بوست»؛ وعدد من الشركات في كندا... وفي مجال البنوك، فهناك عدد من البيوت المالية في إيطاليا : «البنك البريطاني الفرنسي للقروض بفرنسا»؛ مجموعة كبيرة من أسهم : «بنك مورجان» في أغلب أسهم بنك باسبانيا ويشترك الفاتيكان مع الولايات المتحدة في السيطرة على البنوك في أمريكا اللاتينية..

وللفاتيكان ثلاث منظمات تدير تلك الثروة :

1 ـ منظمة إدارة ممتلكات «الفاتيكان»، ومهمتها إدارة ممتلكات الفاتيكان في شتى أنحاد المعمور.

2 ـ منظمة الإدارة الخاصة للفاتيكان، ومهمتها إدارة دولة الفاتيكان الداخلية، وتنظيم شؤونها بما فيها الشؤون المالية.

3 ـ منظمة الأعمال الدينية، ومهمتها التخطيط والإنفاق على الأنشطة الدينية والأعمال التبشيرية في شتى أنحاء العالم...

---

50) لقد أصبحت «مسألة المونسنيور مارشنكوس» تشكل إزعاجاً دبلوماسيا حقيقيا قد تطالب إيطاليا بتسلم كبير الأساقفة أمين خزانة الفاتيكان استنادا إلى معاهدة : «لاتران» ومن المرجح جدا أن يستند الفاتيكان إلى نفس المعاهدة لرفض هذا الطلب.. وقد صدر الأمر باعتقال رئيس «بنك الفاتيكان» بعد اتهامه بالمساعدة في الإفلاس الاحتيالي «لبنوك أمبروسيانو برأسة «روبيرتو كالفي» وذكرت مصادر قضائية أن قضاة ميلانو يعدون طلبات بصدد تسليم «المونسنيور مارشنكرس» وهو مواطن في دولة الفاتيكان والنين من مساعديه المقيمين في الفاتيكان.

51) في عام 1929م عقد اتفاق بين الحكومة الإيطالية برأسة «موسوليني» و«البابا» منح البابا بموجبه سلطة مدنية، في نطاق الفاتيكان، وحق تبادل المبعوثين مع الدول الأخرى.

ومن هذا القبيل ما قام به رئيس الديانة الكاثوليكية[52] إلى إفريقيا في ظرف وجيز زارها ثلاث مرات، كانت الجولة الأولى عام 1980، والجولة الثانية عام 1982، والجولة الثالثة كانت بين تسع دول، ذرع فيها إفريقيا من الغرب في «لومي» «وأبيدجان»، إلى الجنوب في «ليبومباشي» «إلى الشرق» بنيروبي حيث أشرف على اختتام المؤتمر «الأفخارستي» العالمي، ثم إلى الشمال.

وان اهتمام الكنيسة الكاثوليكية بالقارة الإفريقية اهتمام يفسره ما يتدفق من أموال لتنصير الأفارقة، والآفاق الروحية التي بدت لرجال الكنيسة من هذه القارة التي كبلها استنزاف خيراتها من المستعمر، والتحكم الاقتصادي الظالم للعالم المصنع والغالب كماً وكيفاً.. حوّلت الكنيسة ثقلها إلى هذه القارة، وقام البابا بتدشين كتدرائية القديس بولس بـ «أبيدجان» يوم 10 غشت 1985 هذه الكاتدرائية التي تتسع لثمانية آلاف شخص، وهي أوسع معبد مسيحي في إفريقيا، ولا يجاوزها في العالم إلا «الفاتيكان»..

ولعل هذه المؤسسة المسيحية لما أعجزها إصلاح وتقويم الانحراف الديني في أوربا. ولم تستطع أن تملأ الفراغ الروحي الذي يعانيه أبناؤها، لجأت بثقلها ومبشريها إلى القارة الإفريقية وإلى جنوب شرقي آسيا وغيرهما من الأقطار والديار...

إن الكاثولكيين لهم نشاطات متعددة بما تتوفر عليه من ثروات طائلة، وعقارات لا حدود لها، بل وحتى في البلدان التي لا يأخذ أغلبها بالمذهب الكاثوليكي..[53] ومع ذلك فقد أصبح الكاثوليك في الولايات المتحدة الطائفة الثانية من ناحية الثروة والتعليم بعد الطائفة اليهودية.. وأصبحت الكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتحدة تمتلك خمسين ألف مليون دولار، معظمها استثمارات عقارية، مع أن الولايات المتحدة هي الامتداد الحضاري والوريث لبريطانيا العظمى التي قامت نهضتها على الانفصال لكنيسة مستقلة، وحيث كان التقليد هو عداء الكاثوليك، والحذر منهم، واتهامهم بالتبعية لدولة أجنبية، ومعاداة الكاثوليك وتحريم العرش أو أي منصب مؤثر على الكاثوليك... وحتى القرن الثامن عشر كان الكاثوليك ينشقون في نيويورك، وقد خاضت الولايات المتحدة الحرب ضد أوربا الكاثوليكية في أمريكا اللاتينية 95 ٪ كاثوليك.. وأصدر البابا بيوس التاسع نداء للكاثوليك الأمريكيين بهجر الجيش والانضمام إلى المكسيكيين في الحرب الأمريكية المكسيكية (1848) وعندما رشح كنيدي الكاثوليكي نفسه للرآسة، اضطر إلى إصدار إعلان يلتزم فيه بفصل الدين عن الدولة، وعدم الخضوع لأي سلطة خارج الولايات المتحدة، فكأنه اعتنق البروتستانية، ولما احتج رجال الفاتيكان، قال جون كنيدي مغتاظاً : «الآن فقط عرفت لماذا انفصل هنري الثامن بكنيسة بريطانيا».

ورغم أن «كارتر» كان بوصفه رئيس أكبر دولة مسيحية كانت إلى سنوات قريبة معادية للكاثوليك، حتى إنها إحدى الدول القليلة في العالم إن لم تكن الوحيدة التي لا تعترف بالفاتيكان كدولة، ولا تمنح «القاصد الرسولي» صفة الدبلوماسي، فضلا عن لقب سفير الذي يتمتع به في معظم البلدان رغم أن «كارتر» اضطر لطمأنة الكاثوليك بقوله : «لقد اتفقت مع البابا على أن الكنيسة لا يجوز أن تتورط في السياسة، أو أن ترتبط بنظام سياسي»...

وهناك أعمال ضخمة، وأنشطة عديدة واسعة قام بها مبعوثو «الفاتيكان» ومبشروه في كل أنحاء العالم بواسطة ضخامة الثروة التي أتينا عليها، والتي تتمثل في النشاط التبشيري الشرس، والذي يضاف إليه النشاط السياسي الجديد، والانفتاح الذي يقوم به «الفاتيكان» على العالم، بدأ بزيارة القدس التي قام بها البابا الأسبق، ومروراً بزيارات

---

52) كلمة «كاثوليك» تمثل اصطلاحاً أطلق منذ القرن الثاني الميلادي على النصارى عامة تمييزا لهم عن معتنقي اليهودية، إلا أنها بعد الانشقاق أصبحت تطلق على أتباع الكنيسة الرومانية الغربية... كما أن كلمة : «أرثودوكس» تطلق على أتباع الكنائس الأخرى في الشرق كالكنيسة المصرية والأرمنية والسريانية... وكذلك الكنيسة الروسية..

53) ان عدد الكنائس في أندونيسيا بلغ 9319، لطائفة البروتستانت وحدهم، ورغم هذا الرقم المذهل فإن المؤسسات الكاثوليكية تفوق بكثير المؤسسات البروتستانية.. وان عدد القساوسة في تلك الكنائس بلغ 2397 يعاونهم مبشرون متفرغون بلغ عددهم 6504 مبشرين، هذا في بلد أندونسيا الذي يشكل المسلمون فيها أغلبية ساحقة تتعدى الـ 90٪ من مجموع عدد السكان..

البابا الحالي لأمريكا وعددٍ من دول أُروبا وبعض أقطار آسيا وإفريقيا وفق مخطط مسبق، وبرنامج محدد مدروس.

☆ ☆ ☆

وعود على بدء، فهذه اللمحة الدالة، والإشارة البعيدة التي أتينا عليها في هذه الدراسة التي تحدثنا فيها عن مصادر الأموال الوقفية، والتي تشير إلى ما يوجد في بعض المؤسسات الدينية الأُخرى من نشاطات اقتصادية، وثروات مالية، ومضاربات بهلوانية في الأعمال البنكية، والأنشطة الخطيرة لها في رقعة العالم لايوجد مثله عندنا في العالم الإسلامي، ولله الحمد، وفي ديار الإسلام ومؤسساته الاجتماعية والدينية...

ذلك أن الإسلام يحرم علينا التعامل الربوي، وما أصاب العالم اليوم، ولا سيما الدول النامية من ويلات ونكبات اقتصادية يعود أولا وأخيرا إلى هذه الآفة الاقتصادية المدمِّرة...

فكيف العيش مع هؤلاء المرابين ؟ وهل ننخدع بمظاهرهم وظواهرهم، وقد ذكر النبي عليه السلام ذلك الرجلَ يُطيل السفَر، أشعث أغْبَر، يمد يديه إلى السماء.. ياربِّ.. يارب...

ومطعمُه حَرَام.. ومَشْرَبُهُ حرام.. وملبسُه حرام.. فأنّى يُستجاب له ؟!!

☆ ☆ ☆

«فالدول الصناعية» مثلا، اليوم، لا تريد مساعدة «الدول النامية» بالطبع، وإنما تريد أن تضمن تسديد القروض التي قدمتها هي، أو بنوكها بفائدة مرابين إلى هذه الدول الفقيرة...

إن «فيتنام» و«غايانا» عجزتا عن تسديد قروض في موعدها.. وان «صندوق النقد الدولي» أوقف إعطاء القروض للمكسيك بسبب عجزها عن إصلاح أمر اقتصادها، وأن الأرجنتين حصلت على قرض جديد يبلغ 202 بليون دولار ثم أوقف، عاجزاً عن التسديد، في الفترة الأخيرة..! كما هو معلوم في دنيا الاقتصاد...

وليس من بابنا، هنا في هذه الدراسة الوقفية، أن نتحدث عن شؤون الاقتصاد وشجونه، فذاك أمر له أهله وذووه، وانْدُبْ لكل أمرٍ أهلَ بَلْوَاه، وإنما أردنا أن نأتي بحوادث عن الموضوع تظهر استحالة الوفاء بالقروض من جهة، والبعد الذي يجب على المؤسسات الدينية أن تلتزمه في مؤسساتها حتى تكون أموالها من أطيب المكاسب.

ففي عام 1897، اقترض «هنري ستيورات» مواطنه «جورج جونز» مبلغا من المال بفائدة شهرية تبلغ 10 بالمائة، وأضاع «ستيورات ورقة القرض، فلم يحصل شيئاً حتى عام 1921 عندما عثر على الورقة صدفة، وذهب «ستيوارت» إلى المحكمة، فأجريت عملية حساب بسيطة تبين منها أن جونز أصبح مدينا «لستيوارت» بـ 300 بليون دولار، ولم يحصل «ستيوارت» غير 19 دولاراً هي كل ما كان «جونز» يملك، وبلغ حجم الدين لدى وفاة ستيوارت عام 1935 مبلغا خياليا هو 624 ترليون دولار، أي ما يزيد على قيمة العالم كله، أنذاك...

☆ ☆ ☆

وصدق رسول الله حيث قال : «ان الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وان الله أمر المومنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم**﴾.

فالنظام الرأسمالي والنظام الشيوعي ليسا هما كل شيء، ولا يجب حتما أن نتبع واحداً منهما، وأن نكون مطايا لأصحابه، وان لنا، ولله الحمد، طريقاً مستقلاً، نظاما كاملا شاملا يحل مشكلاتنا كلها على طريقتنا نحن، هو الإسلام الذي قال : «وكذلك جعلناكم أمة وسطا، لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا».

لقد قام من عهد قريب رجل مسلم، فصرح بهذه الحقيقة وسط «الكونجرس» الأمريكي هو «لياقت علي خان» قبل أن يقوم العلماء المسلمون، فيصرحوا بها في المساجد..

فمتى نعرف ثروتنا، فلا نمد أيدينا لنشحذ أبداً.. نشحذ القوانين، وعندنا أعظم تشريع في الدنيا، ونشحذ المبادئ الاجتماعية، ونشحذ الأساليب الأدبية، كما نشحذ الموضات وأدوات الزينة ؟...

☆ ☆ ☆

وبعد؛ فلقد حفزنا الإسلام إلى البذل الطيب، والعطاء الخالص في عدة مناسبات، وحثنا على الإنفاق للجهاد وإعلاء كلمة الله، وضاعف لنا من من الأجر والثواب ما يصغر دونه كل ربح مادي دنيوي.. وقد حدّث رسول الله ﷺ فقال :[54] «من أرسل بنفقة في سبيل الله، وأقام في بيته، فله بكل درهم سبعمائة درهم، ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأنفق في وجهه، فله لكل درهم سبعمائة ألف درهم... ولما حثّ رسول الله ﷺ الناس على الصدقة حين أراد الخروج إلى غزوة تَبُوك، جاءه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بأربعة آلاف، فقال : يارسول الله، كانت لي ثمانية آلاف، فأمسكت لنفسي ولعيالي أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها لربّي»، فقال رسول الله ﷺ : «بارك الله لك فيما أمسكت، وفيما أعطيت»، وقال عثمان بن عفان : «يارسول الله، عليّ جهاز من لا جهاز له» فنزل قوله تعالى : ﴿**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم**﴾[56]

صدق الله العظيم...

---

54) روى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، وأبو الدرداء، وعبد الله بن عمر، وأبو أمامة الباهلي، وعبد الله بن عمرو، وجابر بن عبد الله، وعمران بن حصين..

55) سورة «البقرة» رقم الآية : 261.

السياسة الخارجية للمملكة المغربية إزاء العثمانيين

للدكتور عبد الهادي التازي

هناك أغلوطة يقع فيها بعض الذين يكتبون عن تاريخ العلاقات المغربية الجزائرية، أو بالأحرى، عن تاريخ العلاقات بين المملكة المغربية وبين الإمبراطورية العثمانية، ويتعلق الأمر بما أطلق عليه «دعوى» أن المغرب «وقّع» في يوم من الأيام، اتفاقية تقضي بأن يتواطأ المغرب مع دولة ما من الدول المجاورة على ضرب العثمانيين...

إن من حسن حظنا اليوم أننا نعيش عصر الاتصالات مع الأرشيفات الوطنية والأوربية والأمريكية، وفي استطاعتنا أن نقف على كل الاتفاقيات التي وقعها المغرب مع غيره، سواء على أرض مغربية أو على أرض أخرى..

وهكذا ففي الإمكان أن نتقفّى الخطوات سنة سنة، وشهرا شهرا، بل ويوما بعد يوم...

سوف لا أثير هنا الحديث عن الظروف التي أبرم فيها الاتفاق بين السلطان سليمان القانوني وبين الملك فرانسوا الأول، ذلك الاتفاق الذي كان يرمي لمضايقة الإسبان. فإن المهتمين بأمر العلاقات الدولية على بصيرة من ذلك.

ولكني سأقتصر في تدخلي بهذه المناسبة على فترة محدودة هي فترة العشر سنوات الأولى من القرن الثاني عشر الهجري، وهي توافق العشر سنوات الأخيرة من القرن السابع عشر الميلادي...

إن القيام بإحصاء دقيق لهدف السفارات الأجنبية التي تواردت على المغرب الأقصى في صدر الدولة العلوية، وبخاصة في بداية حكم السلطان مولاي اسماعيل (1082 ـ 1139 هـ) = (1671 ـ 1727م).

أقول : إن الهدف كان نفس الهدف الذي كان للبعثات الدبلوماسية التي وردت على المغرب أواخر العهد السعدي الذي تقدم فترة العلويين.

كل الدول التي شعرت بمتابعة أو مطاردة من القسطنطينة العظمى قصدت المغرب، أملا في أن تجد منه حليفا ضد تركيا، سيما وقد كان المغرب الأقصى يبرهن الفترة بعد الأُخرى على صلابة عوده وقوة شكيمته، عندما يتعلق الأمر برغبة من العثمانيين في التوسع على حساب أراضيه...

وجدنا في المغرب سفارات من دولة الصفويين (بفارس) الذين كانوا يجاورون تركيا، ومن امبراطورية النمسا أيضا، ووجدنا سفارات من هولاندا ومن إسبانيا...

كل كان يريد أن يبرز للمغرب الخطر الذي يكمن في الوجود التركي بجانبه، وكل يريد أن يبرر ضربهم والإلقاء بهم في البحر !!

وأعتقد أنه لابد من الإشارة، وأقول الإشارة فقط، إلى أن في بعض هذه التقارير ما كان يهتم بنوع الإغراء الذي كان يُقدم للمغرب حتى يقوم بحركته الفاصلة ضد الوجود التركي في الإيالات المجاورة، وأذكر من هذه الإغراءات تمكين المغرب من مناطق شاسعة تصل إلى حدود طرابلس !!

ولكن كل تلك التقارير كانت تستنتج من تلك الاتصالات التي تجري، «أن الجواب المغربي لا يمكن أن يكون بغير الرفض».

إن العاهل المغربي كما يقول تقرير هولاندي حرره (coy) الوزير المعتمد اعتاد أن لا يحالف أحداً من المسيحيين ضد المسلمين، اللهم إذا كان الأمر يتعلق بدفاع عن كيانه، ومع ذلك فإنه في مثل هذه الأحوال يهدد ولا ينفذ !!

ويكفي أن أحيل الباحثين إلى مجموعة الكونط دوكاستري المعروفة تحت اسم «مصادر لم تنشر من تاريخ المغرب» : القسم السعدي الهولاندي سلسلة أولى، مجلد أول ص 108 تعليق رقم 2 ـ كذلك القسم السعدي الفرنسي سلسلة أولى، مجلد ثاني ص 330...

وإذا ما عرفنا ماذا كان يربط بين فرنسا والعثمانيين من صلات وثيقة على ما أشرنا إليه، فسيكون علينا أن نرصد ـ ونحن نتحدث عن علاقات المغرب بالعثمانيين ـ تلك الصلات، لأنها ظلت تعكس بآثارها على صلة الجوار بين المملكة المغربية والإيالة الجزائرية.

وهنا ألفت النظر إلى ملف يتضمن جانباً آخر من القضايا التي سجلها التاريخ بين العثمانيين والمغربيين، ويتعلق الأمر بما كان يجري على ساحة المغرب الكبير من اصطدامات واحتكاكات ومواجهات لم تكن في الأصل نتيجة أسباب محلية داخلية بقدر ما كانت من تأثير أجنبي خارجي ! أي إن هناك أدمغة بعيدة عن المنطقة من حيث المسافة، ومن حيث المعتقد، ومن حيث الهدف، تلك الأدمغة هي التي تدبر، وعلينا نحن أن يقاتل بعضنا بعضا لتنفيذ ما دُبّر !!

نحن نعيش أيام المفاوضات الجارية بين السلطان مولاي اسماعيل وبين لويس الرابع عشر، من أجل الوصول إلى اتفاق... لكن المغرب قبل أن يقبل السير قدماً في التوقيع على معاهدة من هذا القبيل، كان يريد أن يعرف فوائد الاتفاق وعوائده فيه قبل كل شيء...

لقد ظهر أن الملك لويس الرابع عشر كان يريد الحصول على توقيع اتفاقية بدون مقابل..! ومن هنا شاهدنا تشنجاً في العلاقات بين البلدين، لم يلبث أن استحال إلى توتر... ولكن الشيء الغريب أن ذلك «القلق الدبلوماسي» وصل إلى المواجهة المسلحة على حدودنا مع أشقائنا العثمانيين في الجزائر !!

إن في استطاعتنا أن نستقصي حوادث الحدود بين المغاربة والأتراك ونضبط تواريخها وأيامها وننتقل في الوقت ذاته إلى أيام مواجهات المغرب مع فرنسا لنشهد المصادفات التي لا تخطئ عن الارتباطات بين المصالح هناك وبين المصارعة على الحدود هنا !!

وهنا ـ **وأنا أتحدث عن فترة العشر سنوات من القرن السابع عشر** ـ ينبغي أن أشير لصورة من تلك المواجهات المؤسفة التي عرفتها سنة 1103 = 1692، حيث نجد خطابات مكتوبة موجهة من الأتراك في الجزائر إلى لويس الرابع عشر، تشكو من اتفاق مزعوم بين المغرب وتونس وطرابلس لتصفية الوجود التركي بإفريقيا ! ونجد في الوقت ذاته، خطابات تهديد للمملكة المغربية من الباب العالي الذي يتساءل عن السبب في عدم تحرير بقية

الثغور المغربية والانشغال بوجود الأتراك في افريقيا ! الأمر الذي لم يتردد السلطان مولاي اسماعيل في الجواب عنه مخاطبا العثمانيين بما مفاده : «وماذا منعكم أنتم من تحرير وهران إلى الآن مع أنها في متناول اليد..؟».

وهكذا نستخلص من كل هذا أن المغرب كان يعي كل الوعي بأن معظم التحرشات التي كان يتعرض لها على الحدود بينه وبين الأتراك، كانت نتيجة لصلابة موقفه إزاء بعض القوى الأوربية، وقد ظهر من خلال كل ذلك، يقظاً وصارماً إزاء كل محاولة تهدف إلى التوسع في أراضيه...

فماذا عن سياسة المغرب الخارجية إزاء العثمانيين في هذه المرحلة بالذات ؟

هنا سنقف على **المبدإ الثاني** الذي تقوم عليه هذه السياسة بعد أن تعرفنا عن **المبدإ الأول** الذي يتجلى في عدم التساهل إطلاقا مع العثمانيين في أي شبر من التراب المغربي...

وهذا المبدأ الثاني أو الركيزة الثانية هي التي كانت تثير انتباه الملاحظين والدبلوماسيين على اختلاف انتماءاتهم واتجاهاتهم، ويتعلق الأمر بالتضامن المطلق والغير المشروط مع إخوانهم العثمانيين في مواقفهم إزاء الدول الأوربية ! إن أولئك الأجانب بقدر ما كانوا يعرفون عن شراسة الموقف المغربي إزاء كل تطلع للعثمانيين إلى أراضيه، بقدر ذلك يعرفون عن أن المغرب يضع كل إمكانياته المادية والأدبية تحت تصرف الباب العالي..!

وبالرغم من أن استيعاب الوثائق التي تسير في هذا النهج يحتاج إلى مزيد من التقصي والتتبع، ليس في خزائن الكتب المغربية فقط، ولكن في كل أرشيفات الدنيا، بالرغم من ذلك فإننا نرى من المفيد أن نعطي هنا نموذجا لتلك المناصرة المطلقة التي يتجلى فيها إنكار الذات كما يتجلى فيها أن التضامن الإسلامي ظل في صدر مشاغل السياسة الخارجية للملكة المغربية، فنحن أمام بعض الرسائل الرسمية التي يخاطب فيها السلطان مولاي إسماعيل لويز الرابع عشر ملك فرنسا بتاريخ 23 ربيع الأول 1110 = 29 شتنبر 1668، يخاطبه بهذه الكلمات الدالة :

«... هذا وكنا من أجل ذلك نعرف لك بعض الحق من كثرة موالاتك لصاحب اسطنبول الذي هو ملك ملوك الإسلام، وله معرفة بقدرنا ومحبة في جنابنا، ونحن نحبه ونوقره ونرى له من الحق الواجب علينا ما لم نره لغيره، لخدمته الحرمين الشريفين، فالله الله، ثم الله الله في جانبه وموالاته بأنواع الخير كله على الدوام...»

ينبغي أن نقف طويلا مع هذه الكلمات لنزنها بالميزان الذي تستحقه، سيما إذا عرفنا أنها صادرة من عاهل كالمولى إسماعيل، تعرف جميع دول أوربا، عن أنه المرجع الإسلامي الأكبر في المغرب الإسلامي، فنحن نعلم أنه في هذا التاريخ كان يتلقى البيعة المنتظمة من قواعد غرب إفريقيا على ما يذكره الخطاب الذي أرسله السلطان المذكور إلى قادة تُنْبُكْتُو بأخبار استرجاع ثغر العرائش من يد الإسبان...

وإذا ما سمحنا لأنفسنا باستعراض مثل هذه المساندات فنجد أننا أمام طائفة من الوثائق المعبرة التي تعطي فكرة نيرة عن حجم التضامن آنذاك بين الإسلام في المشرق وبينه في المغرب، وقد قرأنا رسالة إسماعيلية أخرى إلى نفس الملك لويس بتاريخ 14 جمادى الأولى 1122 = 22 يوليه 1709 يعرض فيها المغرب على فرنسا المساعدة العسكرية لفرنسا وحليفتها تركيا، ضد امبراطور النمسا ! وقد جاء في هذه الرسالة قول العاهل المغربي : «... إنه بالرغم من نظرة تركيا للعرب... وخوفها من وحدة كلمتهم، فإننا على أتم الاستعداد للوقوف إلى جانب فرنسا مادامت تعمل يداً واحدة مع تركيا...».

وقد جاء في هذه الرسالة على الخصوص : «إن الأتراك يخافون من العرب وذلك لكثرة هؤلاء، انهم لو اجتمعوا وغادروا الصحراء لأمكنهم أن يستنزفوا أكبر نهر في الدنيا، علاوة على أن الأتراك يخافون أشد الخوف من أن يقوم العرب استقبالاً بدور يأتي على ممالك تركيا وهو الشعور الذي يفيده عدم الاعتراف للعرب إطلاقاً، بما يقدمونه للعثمانيين من مساندات كان عليهم أن يعترفوا لهم بها ولا ينسوها».

ومع ذلك تقول الرسالة الإسماعيلية : «... فإننا نعلن عن استعدادنا لتقديم المساعدة والعون لكم لطرد النمسا من إسبانيا، وذلك لسبب واحد : أنكم تواذون الأتراك... وأن حبنا للأتراك نابع من كونهم حراس الحرمين الشريفين وبيت المقدس...»

☆ ☆ ☆ ☆

وبعد، فإن هذا المثل الذي ضربناه للعشر سنوات المذكورة يمكن اعتباره - بكل تأكيد - نموذجا متبعاً طوال ثلاثة قرون ونيف من الجوار بين المغرب والعثمانيين، وهكذا فعلى نحو ما أشرت إليه عند فاتحة المقال، عندما كان حكم المغرب بيد الدولة السعدية التي بالرغم من كل ما كانت تتعرض له من لدن جيرانها، لم تتنكر لهم بحال، على نحو ذلك وجدنا الدولة العلوية تستمر في تعاملها مع الإمبراطورية العثمانية، وهي تحمل شعارين اثنين :

الأول حماية المغرب من أن تتسرب إليه مطامع الأتراك.

الثاني الوقوف إلى جانب الباب العالي في سائر خلافاته مع الدول المسيحية...

ومن هنا لم يكن غريباً علينا أن نقرأ في رسالة موجهة من العاهل المغربي محمد الثالث حفيد السلطان مولاي إسماعيل إلى ملك فرنسا لويز الخامس عشر بتاريخ 2 جمادى الأولى 1186 = 7 غشت 1772... نقرأ هذه العبارة : «إننا معك على المهادنة والصلح التامين، والذي أكد ذلك ما بلغنا عنك من ميل نفسك لجانب أخينا السلطان مصطفى نصره الله وانحياشك إليه ومحبتك لنصرته على جنس الموسكو دمره الله، وقد أعجبنا ذلك وزادك عندنا عهدا ومكانة، تولى الله هدايتك آمين...»

كما لم يكن غريباً علينا أن نقرأ في منشور أول عمم توزيعه على كافة أعضاء السلك الدبلوماسي والقنصلي المعتمدين بالمغرب، نقرأ شجب العاهل المغربي في 17 جمادى الأولى عام 1202 = 24 يبراير 1788 لسلوك انجلترا، عندما اعتذرت للمغرب عن عدم إمكانها إبلاغ السفن التي تبرع بها المغرب على العثمانيين، «ولم يبق في خاطرنا مثل ما بقيت في خاطرنا المراكب التي أعطيناهم ليتوجهوا بها لأخينا السلطان عبد الحميد نصره الله، فردّوها من جبل طارق...»

هذا إلى ما ورد في منشور ثان موزع كذلك على «كافة القناصل بثغر طنجة» بتاريخ 23 جمادى الأولى عام 1202 = 1 مارس 1788، وفي هذا المنشور يستعمل المرسوم المغربي بعض المفردات الأجنبية والأساليب المكررة، حتى يرسخ معنى المنشور في ذهن أعضاء السلك : «إن كل من هو على صلح مع السلطان العثماني فهو على صلح معنا، وكل من هو (كَيرا) معه فهو (كَيرا) معنا، واليوم الذي يعقد فيه جنس الصلح مع السلطان العثماني، فقد عقده معنا، واليوم الذي يعقد (الكَيرا) فيه مع السلطان العثماني فقد عقدها معنا، ونأمركم أن تُعلموا بهذا جميع أجناس النصارى...»

على تلك القاعدتين الأساسيتين بنيت سياسة المغرب الخارجية مع الدولة العثمانية، ويمكن للمرء أن يقرأ ذلك من خلال كل الأحداث التي اتصل فيها تاريخا الدولتين جلّ أو صغر... وعلى مختلف العصور.

تعليق على التقويم الهجري الموحّد

للأستاذ الفلكي: محمد بن عبد الرازق

الحمد لله وحده

في جريدة الشرق الأوسط الصادرة من لندن في العدد المؤرخ بيوم الثلاثاء 1981/5/5 الموافق 1 رجب 1401 الصفحة 14 تحت عنوان (التاريخ الهجري واحد) أن لجنة التقويم الهجري الموحد أنهت أشغالها بتونس العاصمة يوم الخميس 1981/3/19 وأنها اطلعت على ما وضعه الفنيون من علماء الفلك العرب من جداول خاصة بالتقويم الهجري الموحد لعام 1402 المتضمن أوائل الشهور والأعياد الدينية والمواسم وكذلك الأشهر الثلاثة الأولى لسنة 1403 وتنص على اعتبار أن يكون (البعد الزاوي) أي البعد بين النيرين 8 درجات، وارتفاع القمر عن الأفق 5 درجات هي الأساس لإمكان إثبات دخول الشهر شرعاً، وقد صادقت اللجنة على ما يلي أي على أوائل تلك الشهور المذكورة.

1) ومما لا شك فيه أن اعتبار كون البعد بين النيرين ما بين سبع وثماني درج وارتفاع القمر 5 درج هو الأساس لإمكان إثبات دخول الشهر شرعا **هو من مخالفة الكتاب والسنة والإجماع ومن مخالفة ما عليه الفلكيون الشرعيون المقتدى بهم سلفا وخلفا في إمكان رؤية الهلال بالعين، ومن الطعن في الحكم الشرعي الإسلامي.**

أما مخالفته للكتاب فقد قال تعالى: ﴿يسئلونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ والسؤال وقع من معاذ بن جبل هكذا ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط.

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: جعل الله الأهلة مواقيت للناس فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يوما، وعن طلق بن علي قال قال رسول الله ﷺ جعل الله الأهلة مواقيت للناس فإذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين، انظر الدر المنثور للسيوطي.

وعن ابن عباس قال جعل الله الأهلة مواقيت يصام لرؤيتها ويفطر لرؤيتها، انظر الأحكام لابن العربي.

وقال ابن عباس في تفسيره (يسئلونك عن الأهلة) عن زيادة الأهلة ونقصانها لماذا (قل) يا محمد (هي مواقيت

للناس) علامات للناس لقضاء دينهم وعدة نسائهم وصومهم وإفطارهم (والحج) وللحج نزلت في معاذ بن جبل حين سال النبي ﷺ عن ذلك.

وأما مخالفته للسنة فهناك أحاديث كثيرة يكفي منها ما تقدم عن ابن عمر، وطلق بن علي وابن عباس.

وأما مخالفته للإجماع فقد قال ابن رشد في البداية وأجمعوا على أن الاعتبار في تحديد شهر رمضان إنما هو الرؤية، وعني بالرؤية أول ظهور القمر بعد السواد، وروى ابن نافع عن مالك في المدنية في الإمام لا يصوم لرؤية الهلال ولا يفطر لرؤيته وإنما يصوم ويفطر على الحساب أنه لا يقتدى به ولا يتبعه.

وإما مخالفته لما حرره علماء الفلك الشرعيون بأرصادهم المتوالية في السنين الطويلة فيكفي ما قاله البستاني في زيجه ونصه القدماء ما تكلموا في رؤية الهلال إلا بالقول المطلق، وهو أنه لا تمكن رؤيته لأقل من يوم وليلة، وإذا تقصيت أسباب الرؤية وجد هذا القول هو الأصل الذي يعمل عليه، وقال أيضا الذي تجتمع آراء الناس عليه في مقدار قوس الرؤية وهو على ما وجدنا بالرصد اثنا عشر جزءا من أزمان معدل النهار بالتقريب، وقال في الأخير ومن البين أن مقدار هذه الأزمان المذكورة يكون قريبا من أربعة أخماس ساعة، وأربعة أخماس ساعة هي 48 دقيقة.

وقال البيروني في التفهيم القمر يشارك الكوكب في التصميم ومقداره وفي الاحتراق إذا كان بعدما بينه وبين الشمس أقل من سبع درجات وفي الكون تحت الشعاع إذا زاد البعد على ذلك إلى إثنتي عشرة درجة وهي حد الإهلال بالتقريب.

وقال ابن الشاطر في زيجه (تنبيه) حد ارتفاع الهلال يختلف لاختلاف نور الهلال فإن الهلال الذي نوره ثلثا أصبع يجب أن يكون ارتفاعه عشر درجات، والهلال الذي فيه من النور أصبع يجب أن يكون ارتفاعه ثماني درج، فحد الارتفاع يخلف بزيادة نور الهلال ونقصانه.

وقال أيضا (تنبيه) فإن قل قوس النور صعب من جهة قلة الضوء وإن قل قوس الرؤية صعب من جهة الارتفاع وإن قل المكث فلشدة ضوء الأفق هـ.

وقال ألغ بيك في زيجه تنقص مطالع نظير الشمس بوقت الغروب من مطالع نظير القمر المعدل وتسمي الباقي البعد المعدل وتأخذ البعد بين تقويم النيرين بوقت الغروب وتسميه بعد السواء، فإن كان البعد المعدل بين عشر درجات واثنتي عشرة درجة وبعد السواء أزيد من عشرة فيمكن رؤية الهلال ضعيفا، وإن كان البعد المعدل بين اثنتي عشرة وأربع عشرة فيكون الهلال معتدلا، وإن كان أزيد من هذا فيكون الهلال ظاهرا هـ راجع مقالنا (متى تمكن رؤية الهلال بالعين) وقد وزعناه على المؤتمرين في بركسيل في 8 شعبان 1400.

2) وعليه فالتقويم الهجري الموحد المذكور قد نبذت فيه الرؤية الواجبة بالكتاب والسنة والإجماع، وأسس على ما لا يتفق مع المشاهدة والواقع ولا مع ما أسسه علماؤنا الفلكيون الشرعيون وقصد تطبيقه على جميع الأمة الإسلامية التي تقرب من المليار نسمة، وحيث أن الأمر هكذا فيجب على جميع الأمة الإسلامية نبذه وطرحه وعدم اعتباره، لأنه بنى أولا على ما هو مخالف للكتاب والسنة والإجماع وقد قال تعالى : **﴿وإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تومنون بالله واليوم الآخر﴾**.

وقال عليه السلام من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد.

وأسس ثانيا على ما لا يتفق مع المشاهدة والواقع ولا مع ما أسسه العلماء الفلكيون الشرعيون المرجوع لهم في

هذه المسئلة وحدهم بسبب أرصادهم المتوالية في السنين الطويلة.

3) وأيضا كيف يصح أن يقال انتهى عهد التردد والتشكك بإصدار هذا التقويم الموحد المؤسس على ما لا يتفق مع الواقع. أبمخالفة الكتاب والسنة والإجماع وما عليه علماء الفلك المقتدى بهم ينتهي عهد التردد والتشكك ؟

إن هذا لمن الطعن في الحكم الشرعي الإسلامي وعدم الاعتراف بأن الاختلاف والاضطراب إنما جاء من عدم تطبيق بعض الدول الإسلامية الرؤية المطلوبة كتابا وسنة وإجماعا على حقيقتها، فها نحن نرى بعض الدول تثبت رؤية الهلال وفي عشية الغد لا يرى هلال، أو تثبت رؤية الهلال عشية في حين أن الهلال رئ في جهة الشروق وقت طلوع فجر ذلك اليوم، أو تثبت رؤية الهلال قبل اجتماع القمر مع الشمس أو بعد اجتماعهما، ولكن القمر لم ينفصل عن الشمس بالقدر الذي تمكن معه الرؤية كثماني درج أو تسع درج أو عشر درج أو غير ذلك مما لا تمكن معه الرؤية أو تستند على شهادة فرد أو فردين أو ثلاثة، في حين أن الهلال يراقبه العدد الكثير. وفي كثير من الأقطار والأمصار ولا يرى بحال مع وجود الصحو مع أن الهلال لو وصل لحد الرؤية وهو على الأقل يوم وليلة لرآه الجمهور ولما استقل برؤيته فرد أو فردان أو ثلاثة مما دون الجماعة المستفيضة، إلى غير ذلك كما نرى الباكستانيين والهنود والمغاربة متفقين في أوائل الشهور القمرية غالبا، وإذا وقع خلاف فالذين يتقدمون بيوم هم المغاربة في حين أننا نرى الدول التي في الوسط تسبق الباكستانيين والهنود والمغاربة بيوم وبيومين، وما ذاك إلا لبنائهم على رؤية غير محققة. ولهذا فالواجب على جميع الأمة الإسلامية أن لا تبني صومها وفطرها وحجها وغير ذلك من أمور دينها إلا على رؤية محققة لاشك فيها ولا وهم ولا خيال ولا غير ذلك من الأغراض السياسية والاقتصادية لبناء العبادة عليها، والعبادة يجب أن لا يدخل الإنسان إليها إلا بيقين ولا يخرج منها إلا بيقين، وب، وبهذا ينتهي عهد المخالفة الشرعية ونكون قد أدينا صومنا وفطرنا وحجنا وغير ذلك من أمور ديننا وفق ما هو مطلوب منا كتابا وسنة وإجماعا، ولا يبقى بين المسلمين خلاف إلا ما يوجبه اختلاف المطالع وهو الاختلاف بيوم في بعض الأحيان ويكون المتقدم بهذا اليوم من كان في الغرب لا من كان في الشرق، أما غير ذلك فلا اعتبار به ولا تصح العبادة به أبدا.

4) أما اختلاف المطالع فيكفي في اعتباره حديث كريب مع ابن عباس، ولهذا قال القرطبي في المفهم : قول ابن عباس هكذا أمرنا رسول الله ﷺ كلمة تصريح برفع ذلك إلى النبي ﷺ وبأمره فهو حجة على أن البلاد إذا تباعدت كتباعد الشام من الحجاز فالواجب على أهل كل بلدان تعمل على رؤيته دون رؤية غيره هـ.

وقال ابن عبد الحكم - وهو من جلة أصحاب مالك : لا يجوز النقل ولا يلزم وذلك فيما بعد جدا حيث يمكن أن يراه قوم ولا يراه آخرون هـ.

وأيضا إذا كانت أوقات الصلاة تختلف ولا تكون نقطة سوداء يتذرع بها الأجانب على استحالة وحدة العرب بل المسلمين، فكيف لا تختلف أوائل الشهور القمرية بيوم حسب المطالع ؟

على أن الأجانب إنما يستهزئون بالذين يثبتون رؤية الهلال قبل اجتماع القمر مع الشمس أو بعد اجتماعهما بأقل من يوم وليلة، أو يثبتون رؤية الهلال وفي الغد لا يرى، أو يثبتون رؤية الهلال عشية مع رؤيته في جهة الشروق صباحا.

أما الاختلاف بيوم حسب المطالع فهم يعرفون أنه أمر ضروري يقتضيه الوضع الفلكي، على أن القائلين بتوحيد أوائل الشهور القمرية باعتبار الصوم والفطر والحج وغير ذلك من أمور الدين فأما لكونهم يعتقدون أن الأرض مسطحة، وأما لكونهم يريدون التقدم على الرؤية، وهذا

مذهب رافضي، وأما لكونهم تأثروا بعمل الروافض الذين يتقدمون الرؤية بيوم أو يومين، ويؤولون قول النبي ﷺ صوموا لرؤيته صوموا اليوم الذي يرى في عشيته، أما غير هؤلاء، فلا يعتبرون إلا الرؤية أو إكمال العدة ثلاثين ومنهم ابن عباس حبر هذه الأمة وترجمان القرآن.

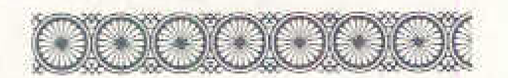
5) (تنبيه) المجلس الأعلى للقضاء بالحجاز أصدر بلاغا يطلب فيه من جميع المسلمين تحري رؤية هلال ذي الحجة 1400 مساء يوم الخميس 30 ذي القعدة 1400 وأصدره قبل يوم الخميس بثلاثة أيام وبقي يذاع إلى يوم الخميس، ثم أصدر المجلس المذكور بلاغا ثانيا بعد يوم الخميس بيومين يعلن فيه أن يوم الوقوف بعرفة هو يوم السبت تاسع ذي الحجة 1400 وأن يوم عيد الأضحى هو يوم الأحد بعده استنادا على أن شهري شوال وذي القعدة أكملا ستين يوما وأنه لم يتقدم أي واحد للشهادة برؤية هلال ذي الحجة 1400.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنهم لم يستندوا إلى رؤية محققة قبل انتهاء ذي القعدة إذلوا استندوا إليها لما عدوا ثلاثين من شوال وثلاثين من ذي القعدة، ولا يرون هلالا مع أن هلال الثلاثين لا يمكن أن يخفى على أحد، لأن رؤيته عشية الثلاثين تكون قطعة، فلذا قال خليل، فإن لم ير بعد ثلاثين صحوا كذبا، وقال مالك هما شاهدا سوء.

6) (تنبيه آخر) انعقد في القاهرة في أواخر اكتوبر 1966 المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية، وقد حضر هذا المؤتمر ما يزيد على مائة عالم من أربعين دولة إسلامية، ومما جاء في توصياته **أن الرؤية هي الأساس، وأن الشهادة بالرؤية إذا كانت فيها تهمة أو خالفت الحساب الموثوق به الصادر ممن يوثق به فإنها ترد ولا تقبل، وأن اختلاف المطالع يعتبر فيما إذا لم تشترك بلد الرؤية مع غيرها في جزء من الليل، ولا يعتبر فيما إذا اشتركت فيه.**

وحيث حضر هذا المؤتمر ما يزيد على مائة عالم من أربعين دولة إسلامية.

وحيث قرر أنه يعتبر اختلاف المطالع على ما فيه، فكيف يصح لمن جاء بعدهم من المؤتمرين في أستانبول تاريخ 27 نونبر 1978 أن يقرروا توحيد أوائل الشهور القمرية في العالم الإسلامي كله، وأن يجعلوا الأساس في إثبات أوائل الشهور القمرية هو أن يكون البعد بين النيرين ما بين سبع وثماني درج، وارتفاع القمر عن الأفق خمس درج، مع أنه قرر أن الرؤية هي الأصل، **وهذا مما يبطل ذلك التقويم الهجري الموحد** لأن حضور ما يزيد على مائة عالم من أربعين دولة إسلامية لا يعادله الذين حضروا في مؤتمر أستانبول، والله الموفق.



ما لم يُنشر من الإحاطة

للأستاذ عبد السلام شقور

(القسم الثاني)

هذه نصوص أخرى من الإحاطة لم يسبق نشرها، استخرجناها من بعض القطع الخطية من الإحاطة، وحق هذه التراجم أن تكون إلى جانب التراجم المنشورة في مجلة دعوة الحق عدد : 259، لأن جلها يندرج تحت نفس الحروف التي تنتسب إليها تلك التراجم...

لقد أغرتنا مواد القطعة التي قدمنا تراجمها في الصفحات السابقة من هذا المجموع*، بالرجوع إلى مخطوطات الإحاطة الأخرى، وهكذا عدنا إلى سبع قطع خطية منها :

1 ـ مخطوط الأسكوريال، رقم 1673.

2 ـ مخطوط المكتبة الوطنية بمدريد.

3 ـ نسخة مصورة عن مخطوط قطعة من الإحاطة في مكتبة العلامة أبي بكر التطواني.

4 ـ نسخة مصورة عن مخطوط لقطعة من الإحاطة في الخزانة الأحمدية السودية بفاس.

5 ـ نسخة مصورة عن قطعة من الإحاطة، محفوظة بخزانة قاضي أحواز فاس، الفقيه السيد : المهدي بن الطالب الفهري.

وهذه المصورات توجد كلها في المكتبة العامة بالرباط.

6 ـ مخطوطة الخزانة الكتانية المودعة بالمكتبة العامة بالرباط.

7 ـ مخطوطة الخزانية الحسنية بالرباط، رقم 1840.

* نقصد بذلك المجموع الذي قدمنا بعض تراجمه في مجلة «دعوة الحق» عدد : 259 محرم ـ صفر 1407 / شتنبر ـ أكتوبر 1986.

وقد أسفرت الدراسة المقارنة لهذه القطع عن الحقائق الآتية :

أ ـ أن مواد مخطوطة الأسكوريال، رقم 1673، وكذا مواد قطعة المكتبة الوطنية بمدريد، وهي من نسخ أحد المستعربين الإسبان، (وهي غير القطعة التي كنا نستأنس بها في تخريج التراجم السابقة وقراءتها)، لا تتضمن أي جديد غير ما ورد في الإحاطة المطبوعة في طبعتيها : طبعة شركة طبع الكتب العربية بمصر، والطبعة التي أشرف عليها الأستاذ محمد عبد الله عنان، وتمت بتحقيقه، وحتى الأخطاء الواردة في النسختين الخطيتين تسرب بعضها إلى النص المطبوع فيهما معاً، ومن ذلك ما وقع في ترجمة الشاعرالمغربي : أبي العباس أحمد الجزنائي، فقد ورد هكذا : الكرياني بدل الجزنائي، ومن ذلك كذلك ما حدث في ترجمة ابن عرفة البتي، فقد تحول إلىابن عرفة، ومثل هذا كثير. وقد سبق لأستاذنا محمد بن تاويت أن نبه إلىالتصحيف الحاصل في إسم العلمين المذكورين.

وهنا تجب الإشارة إلى أن طبعة الأستاذ عنان لا تزيد عن طبعة شركة طبع الكتب العربية إلا ببعض التراجم. (مع العلم أن طبعة شركة طبع الكتب العربية لم يصدر منها إلا جزآن) وقد نقلها المحقق عن قطعة الأسكوريال، وبذلك لا يصح القول بأن شركة طبع الكتب العربية إنما اعتمدت نصاً قد يكون مختصرا من الإحاطة من وضع ابن الخطيب نفسه (ذهب إلى ذلك العلامة : أبو بكر التطواني في كتابه : (ابن الخطيب من خلال مؤلفاته).

لقد اعتمدت شركة طبع الكتب العربية في طبع الإحاطة، أو القسم الذي طبعته منها على الأصح، على نسخة نقلت عن مخطوطة الزيتونة، ومخطوطة الزيتونة هذه من الأصول التي اعتمدها المحقق الأستاذ محمد عبد الله عنان؛ وهي مختصر من مختصرات الإحاطة. ونحن لا نعرف على وجه اليقين مقدار التراجم، والنصوص التي حذفها المختصر، ولكن نقدر أنها كثيرة، وذلك بالقياس إلى حجم تراجم العين التي أصبحنا نتوفر عليها من هذا الكتاب، فهي الآن ضعف تراجم حرف الميم، بل لعلها أكثر من ذلك بكثير، والعادة أن تراجم حرف الميم في كتب التراجم تزيد على مثيلاتها في سائر الحروف..

ب ـ إن القطعة التي قدمت في الصفحات السابقة من هذا المجموع تراجمها*، وهي كما رأينا قريب من ثلاثمائة ترجمة، قطعة فريدة، فلم نقف إلى حد الآن، وقد اطلعنا على عشر قطع خطية، على نظير لها، فهي وحدها التي تتضمن التراجم الواردة في النص المطبوع، والتي تندرج تحت حروف اللام والنون والصاد والعين، وتنفرد بالإضافة إلى ذلك بما يقرب من ثلاثمائة ترجمة، غير واردة في مطبوع ولا مخطوط من الإحاطة.

ج ـ وتتشابه القطع الحاملة للأرقام الآتية : 3 ـ 4 ـ 5 ـ 6، فيما بينها إلى حد كبير، بل إني لأذهب إلى القول بأنها منقولة عن أصل واحد، وإذا استثنينا بعض التراجم الساقطة من نسخة الفقيه المهدي بن الطالب الفاسي الفهري، ونسخة أبي بكر التطواني، والنسخة الكتانية، فإن التشابه بين هذه النسخ يصل إلى حد التطابق، والتراجم الساقطة من القطع المذكورة إنما سقطت من أوائلها، وفيما يلي تفسير ذلك :

● تزيد تراجم مخطوطة الخزانة الأحمدية السودية بفاس على تراجم القطع الأخرى بالتراجم الآتية :

- ترجمة محمد بن سودة.
- ترجمة محمد بن يزيد بن رفاعة الأسدي.
- ترجمة محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي بكر بن خميس.
- ترجمة محمد بن أحمد بن محمد بن عياض.

● وتزيد تراجم قطعة الفقيه المهدي بن الطالب الفاسي الفهري على تراجم مخطوط أبي بكر التطواني

* الإشارة هنا، مرة أخرى، إلى مجموع التراجم التي تنفرد بها قطعة من الإحاطة في مكتبة الأسكوريال.

بترجمتين هما :

- ترجمة محمد بن علي القربيالي.

- ترجمة محمد بن علي المؤذن.

● ويبدو التشابه بين القطع المذكورة في أشكال مختلفة : فمن ذلك ما وقع في ترجمة عبد الله بن علي الغساني، وترجمة عبد الرحمن الألبيري، فهناك بياض في القطع المذكورة في موضع ذكر تاريخ وفاة الرجلين، ومن ذلك كذلك أن ترتيب التراجم فيها كلها يخضع لنفس النظام، وهو نظام لا يتفق مع ما هو معروف في كتاب الإحاطة، إذ ليس هناك تبويب للمترجم بهم بحسب بلدانهم واهتمامهم كما هو الشأن في تراجم الإحاطة، ولا يقع التنصيص على شيء من ذلك إلا في نهاية تلك القطع.

د - وليس من السهل معرفة الأصل من الفرع، من هذه القطع، نعم، إن قطعة العلامة أبي بكر التطواني تنتهي بهذه الفقرة :

«كمل مختصر الإحاطة بحمد الله وحسن عونه، على يد كاتبه أحمد بن مسعود الأوزالي، بتاريخ أوائل ذي الحجة عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة».

فهل تكون هي الأصل، ذلك ما لا نعرفه على وجه اليقين، لأن القطع الأخرى لا تشير إلى ناسخها ولا إلى تاريخ نسخها، وذلك عدا قطعة الشيخ محمد عبد الحي الكتاني، فهي حديثة جداً، إذ تم نسخها في عام سبعة وأربعين وثلاثمائة وألف، كما نص على ذلك الشيخ نفسه، ويبدو أن بعضها بقلمه، وورد في الورقة الأولى منها قوله :

«والأصل المنسوخ منه هذا المجلد، بخط مغربي، إلا أنه كثير التصحيف والتحريف والقلب، وبها مشه تصحيحات وطرر بخط كاتب لم أعرفه، نسب لنفسه في بعض الطرر قصيدة جيدة في المدح النبوي، وأحال في بقيتها على كتابه المسمى : «الرغبة والتلطف، في معرفة علم الصوفية والتصوف، والتعريف ببعض رجاله ذوي العبودية والتصرف...».

ثم قال الشيخ الكتاني بعد كلام : ...ثم وجدته (أي ناسخ الأصل الذي نقل عنه الكتاني) صرح باسمه... وبقلم مغاير كتب : تحقق أنه الفقيه المؤرخ الأديب الجماع المطلع صاحب التآليف العديدة : أبو عبد الله محمد بن الوزير أحمد اليحمدي المكناسي، الفاسي».

وعندي أن نسخة أبي عبد الله محمد بن الوزير اليحمدي هي التي انتمت إلى خزانة الفقيه السيد المهدي بن الطالب الفاسي الفهري.

هـ - وما لاحظ الشيخ الكتاني من تصحيف وتحريف في الأصل الذي نقل عنه يصدق على سائر هذه القطع، ففي جميعها تصحيف، وتحريف، وألفاظ ناقصة أدى سقوطها إلى اضطراب في السياق، وفيها جميعها بياض في بعض الأماكن.

و - وقد انتهت بنا قراءتنا لنصوص هذه القطع إلى اكتشاف نصوص جديدة غير واردة في النص المطبوع من الإحاطة، فقمنا بجمعها، معتمدين في نقلها الأمانة المطلوبة في مثل هذا الموقف، فلم نتصرف في النص، فأثبتناه بأخطائه أحياناً إلا ما كان واضحاً أنه من فعل النساخ. محيلين في الهامش، على بعض المظان التي يمكن الرجوع إليها من أجل المقارنة والتصحيح، فنحن لا نعرف على وجه اليقين إن كانت تلك الأخطاء من فعل الناسخين أم هي في أصل الكتاب، تسربت إليه من الأصول التي اعتمدها ابن الخطيب، وابن الخطيب على أي حال، لم يكن في باب التراجم شديد التحري والتدقيق.

ونسأل الله التوفيق والسداد، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.

محمد بن أحمد بن علي البطروجي[1]

يكنى أبا عبد الله. -

هذا الرجل مليح السمت، حسن الشكل ظريفه، معروف بسراوته ومشاركته، ملفق الحال في باب الطب، شارك في ميادين العربية، ويوصف بالتحقيق في كتب الوثيقة، على استهجان خطه، وقصور عبارته... ينسب إلى (دجلة مشاركة ؟؟) في النسبة البلدية قديماً من غير تحقيق، وإلى (قدم ؟) من السوق للتَّجْر ببيع البقول والدهن... وقعد لعقد الوثائق بمالقة مدة، ثم سخطه القاضي أبو البركات... وانتقل إلى «رنده»، وعاد بعد زمان إلى «مالقة»، وحسنت حاله، وجلبه السلطان أبو الحجاج إلى تعليم ولديه، وقدمه إماماً وخطيباً بـ «الحمراء»، فاستقر في حالة حميدة، ولما صار الملك إلى... استقر تلميذ المترجم به في كنفه... أبقاه من خلالها على رسم التعليم.... شيطاناً من شياطين... وثعلباً من ثعاليب المكر، يغدو ويروح... إلى المكر (ويلحم ؟)، ويخطب في حبل أمره... من فاسد إلى داعر، حتى تم الأمر حسبما سطر في محلـه... في جذور تلك الدولة... مع سرعة ومعالجة لأمرها...... فعينه خطيباً بالمسجد الجامع تحت جراية.......

محمد بن أحمد بن محمد بن عياض[2]

من أهل «بلش»، حفيد الإمام القاضي أبي الفضل عياض بن موسى، وارث كتبه التي تخلفها بخطه ومسودات كبار كتبه وأصوله، وهو الذي دعا إلى ذكره.

حاله : «من العائد» :

كان رحمه الله من أهل الحشمة والصيانة والعفاف والعمل على...[3] اجتهد واستظهر كتباً كثيرة، كان آية في الحفظ والإدمان على الدرس، ليلاً ونهاراً، وسمع عن الشيخ أبي بكر بن الخطيب، وأبي بكر بن محمد، وأبي جعفر بن الزيات كتباً كثرة.

وفاته : توفي مغتبطاً به في الطاعون عام خمسين وسبعمائة فلم...... الاغتباط به.

محمد بن علي المؤذن

من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بخريسه[4].

حاله : كان منتحلاً لصناعة أحكام النجوم وعبارة الرؤيا، آية في ذلك، قريب الغور، قليل التصنع يشتغل بعمل الفخارة (كذا).

محنته : جرت عليه محنة في رؤيا عبرها للملك، من غير أن يشعر بالرؤيا، فأنذر فيها بمكروه، عاجله السلطان، فضرب بالسياط، وأجلي إلى العودة، وبان صدق عبارته حسبما حدسه ونبه به.

مشيخته : أخذ عن الأستاذ الثعالبي، وأبي عبد الله بن الرقام وكانت له شهرة، مع سذاجة وسلامة.

وفاته : كان حياً بمراكش سنة أربعين وسبعمائة فيما بلغني.

---

1) وردت ترجمته كاملة في مخطوطة وحيدة هي مخطوطة العلامة أبي بكر التطواني، غير أننا لم نهتد إلى قراءتها كلها. وقد وردت ترجمة المترجم به في الدرر الكامنة. 3 / 344.ت. 910 «محمد بن أحمد بن علي البطروجي، قال ابن الخطيب : كان يشارك في مبادئ العربية، وكان يكتب الوثائق للقاضي أبي البركات ثم أبعده وانتقل إلى رندة، ثم عاد إلى مالقة، ثم ولي الخطابة بغرناطة بعناية السلطان أبي الحجاج، واستقر أخيراً بسلا، ثم بالغ ابن الخطيب في الغض منه والحط عليه. وبقي بعد ابن الخطيب زماناً».

2) وردت هذه الترجمة في نسخة العلامة أبي بكر التطواني، ونسخة الخزانة الأحمدية بفاس.

3) كلمة.

4) في الدرر الكامنة : 4 / 101. ت 272. «محمد بن علي بن المؤذن المعروف بأبي غرشة (كذا) قال ابن الخطيب : كان آية في عبارة الرؤيا، قليل التصنع، وكان يشتغل بعمل النجارة (كذا) ... ومات سنة بضع وأربعين وسبعمائة».

محمد بن أحمد بن عبد الرحمان بن علي بن محمد بن عيشون اللخمي

مرسي الأصل، قدم سبتة، يكنى أبا عبد الله.

من العائد : كان رحمه الله شيخاً وقوراً مليح الشكل والهيئة والميزة، خدم الدول، وولي الأعمال، وسفر بين الملوك، وتطور أطواراً، وله حظ من الأدب، وتكلم في الطب، حدثني بعض شيوخنا وقد جرى ذكر عجائب (الروق وإصابته السلطان ؟)واستدعاء الأطباء ليلاً، ومنهم ابن عيشون هذا، وقد حضروا قدام السلطان، وقد اختلط نساء القصر معهم لمكان الشدة، وشرع الأطباء في تركيب دواء المذكور في المشاركة، فجعل يبكي مع النساء ويقول : اغسلوا المهاريس جدا، يكررها، رافعاً صوته، فلما أفاق بعد ذلك، ذكره الأطباء قالت له حظاياه : لم يكن في الأطباء أشد احتياطاً عليك في غسل المهاريس لما يتوقع فيها ولا أكثر بكاء من ذلك الشيخ المسن : ابن عيشون. فكان أعظم الأطباء جائزة.

وتوفي بالمرية : جمادى الأولى عام اثنين وعشرين وسبعمائة.

محمد بن محمد بن مفضل بن محمد بن مفضل القيسي

من أهل «مالقة»، يكنى أبا عبد الله.

حاله : كان رحمه الله رجلاً عاقلاً، فاضلاً، موصوفاً بالخير والأمانة وكان حسن الخط، ضابطاً لكتاب الله عز وجل، من أهل المعرفة بطرق القراءة، أكمل نسخاً من القرآن العظيم نحو سبعين ختمة، ويقال انه مر برجل بسوق السقاطين سمعه يقول : (الشاهد السوق ! وفي يده عصا : يا سيدي : اكتب عصا[5] ؟) فوقع على وجهه مغشياً عليه. فما أفاق إلا زمانا.

دخل غرناطة مرات.

وفاته : توفي في حدود عام تسعة وعشرين وسبعمائة، وانقرض عقبه من بعده.

محمد بن علي بن عبد الغافر الأنصاري

من أهل مالقة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالجملي، من إقليم الحضرة[6].

حاله : «من العائد» : كان فاضلا نبيهاً، محققاً، متيناً، قائماً برواية الحديث والتصحيح لأصوله، لا يجارى في حسن الخط، وإحكام الحروف، وتطريز الكتب، والتنبيه على الروايات، وشكل المشكل، بإبداع خط، وإحسان إتقان، وكثيراً ما كان ينحو نحو الأستاذ أبي بكر بن حميد، رحمه الله.

اجتهد وروى وقيد الكثير، وحفظ وأسند، حتى ظهر صرفه[7] وتحقيقه، وتغولي فيما يكتبه أو يصححه، لم يترك بعده مثله، وكان يتحرف بكتب الشروط على سنن من العدالة والنزاهة.

مشيخته : روى عن جملة، منهم : ولي الله تعالى : أبو عبد الله الطنجالي، والخطيب أبو عثمان سعيد بن ابراهيم، وروى كثيراً عن غيرهما سماعاً وإجازة.

وفاته : توفي «بمالقة» إثر قدومه من غزوة «قشرة»[8] في أخريات ذي قعدة عام تسعة وعشرين وسبعمائة.

محمد بن إبراهيم بن أحمد التميمي الفنشي[9]

العارض «بغرناطة»، يكنى أبا عبد الله.

حاله : من شيوخ الشوري، وصدور العدول بالحضرة، ومن أهل السذاجة والسلامة، ومثلى الطريقة.

---

5) كذا في جميع النسخ.

6) «محمد بن علي بن عبد القادر (كذا) الأنصاري المالكي ... المعروف بالجملي الدرر الكامنة : 4 / 68، ت :199.

7) في بعض النسخ : ظرفه.

8) كذا في جميع النسخ.

9) كذا في جميع النسخ.

مولده : عام ثلاثة وثمانين وستمائة.

وفاته : «بغرناطة»، في الثامن والعشرين من شعبان، عام ستين وسبعمائة.

محمد بن الحسن بن علي بن المردي
ثم ابن المؤذن

من أهل «غرناطة»، وأصله من «البشارة»، يكنى أبا عبد الله. من «التقاييد الغرناطية»، شيخ جليل القدر، عريق الأصل، رفيع البيت، نبيه كاتب[10]، شاعر، أديب، نحوي، لغوي، حافظ للتفسير واللغة، بقية من بقايا أهل الأدب، ذو مروءة، وكرم، وطيب نفس، وحسن معاشرة، وسرعة إدراك، مع الدين المتين، والوفاء والتواضع، كثير الصدقة، وكان معتكفاً طول عمره على القراءة والدرس لم يشغله عنها شاغل، مع كبر سنه، لازم خاله الفقيه الأديب أبا عبد الله بن سودة، وتأدب عليه، وقرأ بغرناطة على الأستاذ أبي محمد الكواب، والأستاذ أبي محمد القرطبي، والأستاذ أبي علي الرندي، وغيره.

وفاته : توفي بقرية «بغيرة» في ذي الحجة، عام تسعة وستين وستمائة.

محمد بن طاهر بن محمد العامري

من أهل بكر، من جلتها، يكنى أبا بكر.

حاله : كان أديباً، فقيهاً، مقرئاً، عارفا بالعربية والأدب، من أهل الدين والفضل، ولي الخطابة بجامع «جيان» ثم رجع إلى قريته، وكان يقرض شيئاً من الشعر، ويكتب مع زهد وورع.

مشيخته : روى عن أبي عبد الرحمان بن خلف الألبيري، وابن مناصف، وابن أخت غانم، ولم يذكر أنهم أجازوا له، وروى أيضاً عن أبي عبد الله، حفيد مكي، وابن معمر، وأبي الوليد بن طريف.

من روى عنه : روى عنه أبو البقاء (يعيش ؟) بن الخديم[11] وأبو الحسن بن سوسن، وأبو زكرياء المرجعي، وأبو يحيى، وأبو بكر (الضريري ؟)، واختص به.

تآليفه : من مصنفاته : «مشاحيذ الأفكار في مآخذ النظار» وشرحه الكبير والصغير على جمل الزجاج، وشرح أبيات الإيضاح، ومقامات الحريري، وشرح معشراته الغزلية، ومكفراته الزهدية، وغير ذلك، كل منهم أبان فيه عن وفور علم، وغزارة مادة، واتساع معارف، وحسن تصرف.

دخل غرناطة، راوياً عن أبي الحسن بن باديس، وغيره.

محنته : كان يجلس مع عبد المومن وكبار دولته مع من يحضر من العلماء فيشف على أكثرهم بما كان لديه من التحقيق بالمعارف، إلى أن أنشد أبا محمد عبد المومن أبياتاً كان نظمها في أبي القاسم بن عبد المنعم، وهي :

أبا القاسم والهوى جنة ... وها أنا من مسها لم أفق

تفحمت فاحم نار الضلوع ... كما خضت بحر دموع الحرق

أكنت الخليل ؟! أكنت الكليم ؟! ... أمنت الحريق أمنت الغرق

فهجره عبد المومن، ومنعه مجلسه، وصرف بنيه عن القراءة عليه، وسرى ذلك في أكثر من كان يقرأ عليه، ويتردد إليه، على أنه كان في الطبقة العليا من الطهارة والعفاف.

---

10) في جميع النسخ : كاتباً، شاعراً.

11) في بعضها : القديم.

شعره : قال في أبي القاسم المذكور، وكان أزرق، وقد دخل عليه، ومعه أبو عبد الله محمد بن أحمد الشاطبي، وأبو عثمان سعيد بن (فوشترة)، فقال ابن (فوشترة) :

عابوه بالزرق الذي بجفونه
والماء أزرق والسماء كذلك

وقال المترجم به، أبو عبد الله الشاطبي :

الماء يهدي للنفوس حياتها
والرمح ينشر للمنون مسالكا

وقال المترجم به :

وكذلك في أجفانه سيف الردى
لكن أرى طيف الحياة هنالك

وقال في مرضه :

.... دلا
ئـــل للردى جليـــة
....
ذاك أمـــان وذا منيـــة[12]

وفاته : توفي بمراكش، يوم الثلاثاء، لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة، سنة سبع وستين وخمسمائة، وقد قارب السبعين سنة.

محمد بن حسن بن محمد اليحصبي[13]

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالباروني، من أهل تلمسان.

حاله : من العائد : كان رحمه الله، من صدور الفقهاء، ساحر الإلقاء، حافظاً متكلماً، مجيداً، رابطاً واصلاً[14] إلى الغاية في إمتاع الكلام على المبادئ من كتب التعاليم، عديم النظر في ذلك.

مشيخته : أخذ الفقه بالمغرب عن الأستاذ القاضي : أبي الحسن الصغير، خاتمة حفاظ المذهب، وعن الأستاذ : أبي زيد الجزولي، والأستاذ أبي يوسف الجزولي، وعن أبي زيد الزجراجي، وحضر كتاب الموطأ على الخطيب أبي الحسن البردعي، وغيرهم من أهل سبتة.

ودرس الفقه «بسبتة» و«غرناطة» و«مالقة» و«تلمسان»، وكانت فيه علة، اضطرته إلى محاداة قرنائه، من أهل النواميس، فأشرعت إليه الألسنة، ودارت عليه خطوب، وناله بلاء وتعب، نفعه الله.

وفاته : بتلمسان (سنة) ليلة الثالث عشر شوال من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة.

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الأشعري[15]

من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالمحروق، شيخ الرباط[16] المنسوب إليه خارجها، الصوفي (الطبقة الشهرة)[17].

حاله : منقول من خط شيخنا ابن شبرين[18]، قال : حاج، صوفي، ذو همة، وفصاحة، ومعروف بالطريق والتصرف فيه[19]، وهو الذي أقام رسوم التصوف بالأندلس بعد عفائه، واختص بالسلطان أبي عبد الله ابن أمير المسلمين، وأجرى في أيامه شأواً بعيداً، وأمر له...[20]... وسفر بينه وبين السلطان إلى العدوة مراراً، وعرف إجلالاً ومكانة.

وابتنى بخارج غرناطة رباطاً حافلاً للفقراء، وزوايا وخلوات، وجاءه السلطان أيام بنائه، فحمل الأحجار على كتفه مع الفعلة، ثم أجرى له ما يحتاج إليه.

وفاته : توفي عام واحد وسبعمائة.

---

12) لم نهتد إلى قراءة البيتين.

13) الدرر الكامنة : 3 / 425. ت 31،النيل : 233.

14) في الأصل : رابط، واصل ...

15) «محمد بن محمد بن عبد الله الأشعري : أبو عبد الله المحروق. قال ابن الخطيب : كان شيخاً بالرباط (كذا) الذي ابتناه بغرناطة ...» الدرر الكامنة : 4 / 194. ت : 526.

16) في جميع النسخ : الرياش، والتصويب من الدرر.

17) كذا في جميع النسخ.

18) أبو بكر ابن شيرين السبتي.

19) في الأصل : وتصرف فيه.

20) كلمات لم نهتد إلى قراءتها.

محمد بن علي بن أحمد بن بكر الأنصاري

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالأصفر[21].

حاله : كان فقيها، ورعاً ....[22] من باب الورع، رافعاً راية الزهد في الدنيا والتقلل منها والاجتزاء باليسير، مع الاطلاع والإكثار الباهظ من العبادة، كثيرها، مغرقاً في الانقباض، صليب القناة، كثيرها، خرج من مال تصير له من ميراث، فقدم جميعه بين يدي نجواه في مجال رضيها، وتجرد للعبادة والزهد، وكان إمام الفريضة في أخريات حاله بقرية «البذول» وهو بها مشهور في الولاية والصبر والسير على سنن الصالحين.

وفاته : توفي بإفريقية، في أخريات عام أربعة وأربعين وسبعمائة، أصابه مرض شديد، واشتد به حتى ذهب جسمه، ووهنت قواه، وعلى ذلك فلم تنقصه وظيفة ثقيلة من صعود (مئذنة ؟) وخطبة، وغير ذلك إلى أن سقط عقب بعض الصلوات، واحتمل خطى يسيرة، وقضى رحمه الله. وقبره بقبلة المسجد الجامع بها متبرك به.

محمد بن فضيل بن فضل الأنصاري

من أهل غرناطة، يكنى أبا عبد الله.

نقلت من خط شيخنا أبي القاسم بن جزي، في تعليق في الوفيات[23] ببلده. قال : توفي العالم الأوحد سيد أهل زمانه، الزاهد الورع، بقية الصالحين، وأهل الفضائل والكرامات : أبو عبد الله بن الفضيل، رحمه الله، ورفع درجته في عليين، يوم الثلاثاء، الموفي عشرين من رجب عام تسعة وتسعين وستمائة. وله كرامات، وفضائل لا تخفى.

21) محمد بن علي بن محمد ابن أبي بكر الأنصاري، الغرناطي : أبو عبد الله ابن الأصفر (كذا) قال ابن الخطيب : كان فقيها، ورعاً، زاهداً، كثير العبادة على سنن الصالحين «الدرر الكامنة».

22) كلمة لم نهتد إلى قراءتها.

23) سبق لابن الخطيب أن نقل عن ابن جزي، ولعله ينقل عن كتابه : «التقاييد الغرناطية» المشار إليه سابقا.

ومن خط الشيخ أبي بكر المتقدم الذكر[24] نقلت. قال : أصله من «قيجاطة» وسكن «غرناطة»، وكان في الورع لا نظير له في عصره، وكانت وفاته بقرية «قشاشة» من الإقليم، وبها قبره، يتبرك الناس بزيارته، رحمه الله ونفع به.

محمد بن إبراهيم العجمي الخراساني[25]

حاله : كان شيخاً ظريف الشكل، مليح الشيبة، أعجم اللسان، منتحلاً طريقة الفقراء واصطلاحهم، يحدث بحاجات (كذا) غريبة بين إفصاح وعجمة، أقام رسم المشيخة بالرباط المنسوب لـ «عقبة» من خارج غرناطة، على وقار وسمت واستقامة وأدركته به الوفاة على سن متناهية.

وفاته : في العشر الأوسط لربيع الثاني، (عام) ثلاث وثلاثين وستمائة.

مطرف بن محمد بن يوسف بن خلف بن محمد ابن مطرف الغافقي[26]

منسوب إلى غافق، حصن من حصون قرطبة، وجده من استمسك به، إذ كان جليلاً شهماً، ضيق به على العدو، ثم تخلى عنه مضطراً، وقدم على السلطان الغالب بالله، فنال ما شاء لديه من حظوة وجاه.

حاله : كان نسيج وحده، ولباب صنفه ظرفاً وتأدباً، حسن المعاشرة، لطيف الشمائل، مليح الدعابة، جمّ التخلق، بعيداً عن الشدة، شيخ الجند : سناء وحنكة وأحذرهم موقفاً و(صعرة ؟) وأعلمهم بمكيدة، وأعلمهم (كذا) بـ (عدل

24) يقصد أبا بكر بن شيرين.

25) ترجمة ساقطة من بعض النسخ.

26) الدرر الكامنة 351/4، ت : 957 : «مطرف بن محمد بن يوسف بن خلف بن محمد بن مطرف الغافقي.. قال ابن الخطيب : كان حسن العشرة...»

الالفات)[27]، وأعرفهم بسبيل نجاة من هضيمة، طال عمره، فأخذ بأمور غريبة انفرد بها، ولما فخمت الدولة الإسماعيلية، فسد ما بينه وبين مخدومه فامتنع بمعقل «فارس» عقاب الأندلس، وكان قائداً به، مشتغلاً في خطط....[28] قيادة جند وأسطول، ومجالسة لدست الملك، مغمورا.... الثورة (ملحقا) بسبب ما يعرض من فهمه، إلى أن قتل السلطان، فأجلي إلى العدوة، ثم آب بعد برهة، واتصلت ولايته إلى حين وفاته، تحت ستر، وجاه وعافية، ممتعاً بجواره، مشتغلاً بجميع وظائف.... وأولاد أصاغر، مع تناهي السن، واستحكام الكبرة بما هو عنوان على النشاط، وشدة الأسر، ووفور المادة.

مولده : عام واحد وسبعين وستمائة.

وفاته : توفي... في أخريات شوال عام ثمانية وخمسين وسبعمائة، وسيق إلى الحضرة، فدفن بها، بمقبرة، فوق خارج باب (الا تبدر ؟).

عبد الله بن عبد الواحد بن أجود (كذا) الانصاري

من أهل مالقة، يكنى أبا محمد، القارئ المجيد، الفذ الطريقة، البديع النغمة.

حاله : آية الله في طيب الصوت وحسن القراءة، وعذوبة النغمة، ونسيج وحده في ذلك، مظاهر لكتاب «المدهش» للجوزي، ويقرأ منه نبذة في كل جمعة، بجامع الملوك بالأندلس، وولي القضاء بـ «لوشة» مع العدول بالحضرة.

وفاته : توفي غدوة يوم الثلاثاء، ثالث صفر، عام أربعة وثلاثين وسبعمائة.

27) ما بين القوسين لم نهتد إلى قراءته، ووضعنا صورة ذلك.
28) كلمة.
29) في الأصل..... وأبو القاسم ابن ربيع...
30) بياض في جميع النسخ.

عبد الله بن علي بن محمد بن عبد الله الغساني

من أهل «غرناطة»، يكنى أبا محمد، ويعرف بالنبقدي.

حاله : كان من أهل العلم، والخير، والدين، والعناية بالعلم، مشتغلاً بعقد الشروط، قديم العدالة، حسن الخط، ولي الخطابة والإمامة بالمسجد الأعظم، واستمر على ذلك إلى أن توفي.

مشيخته : أخذ عن أبيه، وعن أبي الوليد العطار، وأبي الحسن الشاري، وأبي الخطاب بن خليل، وأبي القاسم بن عروسه، والقاضي أبي القاسم[29] ابن ربيع، وأبي عبد الله بن سعيد الطراز، وأبي جعفر بن أحمد بن علي العطار، وأبي علي ابن الاحوص، وأبي يحيى، وابن القرس، وابن عبد الله بن محمد بن يحيى السلماني، والقاضي أبي عبد الله بن عياض وغيرهم.

وفاته : توفي رحمه الله بغرناطة....[30] وسبعمائة.

عبد الله بن علي بن عبد الله بن يزيد[31]

من قلعة يحصب، يكنى أبا محمد، ويعرف بابن الأديب.

حاله : كان من أهل المعرفة التامة بالعربية والأدب، حافظاً كتاب «سيبويه» مثل حفظ القرآن، وله معرفة بالفقه والقراءات ومشاركة في علوم جمة، وانتقل إلى العراق، وسكن بها.

وفاته : سنة سبع وخمسين وخمسمائة.

31) صلة الصلة : مخ : 55 : «عبد الله بن يزيد بن عبيد الله بن يزيد السعدي القلعي من أهل قلعة يحصب، يكنى أبا محمد، وكان فقيها أديباً عارفاً بالفقه والأدب والنحو، وقاضيا ببلده إلى أن توفي سنة عشر الثمانين وخمسمائة.

عبد الله بن محمد بن يوسف بن منصور القيســـي

يكنى أبا الحسين، وقد مر في ذكر ولده في القضاة.

أوليته :

من «عائد الصلة» : كان من أهل الخير، والصلاح التام، والفضل والتواضع، عقد الشروط بـ «مالقة»، متقدماً أهل المعرفة والبصر بها، على عدالة كاملة، ولقي جملة من العلماء، وأخذ عنهم، وأجازه جماعة وافرة منهم، وكان الناس يعظمونه لسلفه وذاته، ويتبركون به، ودخل غرناطة غير ما مرة.

من روى عنه : روى عنه جماعة، منهم : ولدي، والقاضي أبو جعفر أحمد بن عبد الحق الخطيبي، وأبو بكر الطنجالي، وغيرهم.

مولده : في التاسع المحرم عام سبعة وثلاثين وستمائة.

وفاته : ليلة النصف من شعبان، عام واحد وعشرين وسبعمائة.

عبد الله ابن أبي بكر بن اليريا (كذا)[32]

يكنى أبا محمد، الكاتب المشهور، كتب لباديس بن حبوس أمير غرناطة.

حاله : كان من جملة الأدباء، وعلية الشعراء، ذكره ابن خميس[33] في تكملته لتاريخ ابن عسكر في أدباء مالقة، وأثنى عليه وأثبت له نظماً كثيراً ونثراً.

وفاته : توفي رحمه الله سنة أربعين وأربعمائة. ودفن بخضيض جبل فاره.

32) كذا في جميع النسخ.

33) لم نعثر على ترجمة في أعلام «مالقة».

ولم نجد إشارة إليه في «التبيان» وقد ورد اسمه كما أثبتناه، انظر ورقة 66 من مخطوطه العلامة أبي بكر التطواني.

عبد الرحمان ابن أبي... الفهري (كذا) الألبيـــري

سكن قرطبة، يكنى أبا المطرف.

حاله : كان أديباً، بليغاً، فحلاً من فحول الشعراء، غزير المادة واسع الثغر (كذا) في أساليب النظم، من أبصر الناس بالشعر وأشدهم انقيادا.....؟ وأسرعهم بديهة في إنشائه.

قل : شعر قديم، أو حديث.....[34]، وذكر أبو عمر أنه عمل بحضرته أربعين بيتا بديهة، عرية من الإعجام، أولها :

حلمـــك مـــــا حــــدُ حُـــــدودَهْ

وقال من قصيدة شهيرة :

رأت طـــــالعـــــا للشيب بين ذوائبٍ
فـــادت[35] بـإسراع الـدمـوع الـسـواكب

وقـــالت : أشيب ؟! قلت : صبح نهـــار
بت...... لـيــــل النـــــوائب

وكان من شعراء الدولة العامرية، وخرج إلى العراق، في أيام مطرف ابن عامر، بعد السبعين وثلاثمائة.

علي بن محمد الخطيب

الفقيه المقرئ بجامع «غرناطة»، أبو الحسن كنيته، أصله من طليطلة.

حاله : كان من خيار الناس، ومن فضلائهم، ومن أهل المعرفة منهم، عارفاً بإقراء كتاب الله العزيز، والرواية للحديث، أخذ الناس عنه، وكانت عنده مشاركة ومسارعة لقضاء الحوائج والمشي للإصلاح بين الناس، والإشفاق على المساكين، كثير الصدقة والسعي في فداء الأسارى والوسائط الجميلة في مهمات الأمور، ومشكلاتها، دخل رجل تاجر

34) بياض في الأصل في جميع النسخ يليه جملة لا رابط بينها وبين الكلام السابق واللاحق.

35) كذا.

غريب لدار الوضوء، يتوضأ، فنسي به وعاء في جملة مال، فتذكره، فرجع، فلم يصبه، فسقط مغشياً عليه، وهو يقول : مالي !، ووافق خروج الأستاذ أبي الحسن المذكور من الجامع، فسأل عنه. فأخبر بحاله، فجاء إلى أذنه، فقال : مالك عندي، تَرَكْتَه وديعة عندي، وإذا كان بعد صلاة العصر تأخذه، فقام الرجل كأنما نشط من عقال، ومشى الفقيه في حينه إلى شرق غرناطة...[36] بن مالك.

فقال له : إني اشتريت لك قصراً في الجنة بخمسمائة دينار، وأنا لضامن لك بذاك (فشكره وأخبره الخطيب بالقصة)[37] فدفع له المال في الفور، وذهب به إلى الرجل.

وكان الناس لا يتوقفون له في أمر ما.

وفاته : توفي بغرناطة، سنة عشرين وخمسمائة، وصلى عليه القاضي أبو القاسم بن داود، ودفن بمقبرة «البيرة»، وكانت جنازته حافلة، وتفجع الناس عليه، وأخلصوا الدعاء له.

وممن رثاه : أبو عبد الله محمد ابن أبي الخصال، بقوله :

عتاب، ويغنيني العتاب عن (الزمن ؟)
وشكوى كما تشكو الرياح إلى السفن
وما رضيت بعد (القطاه أبكه ؟)
فنحت، ولكن عالم الكون ممتحن[38]

علي بن محمد بن عبد.....[39] الخشيني

يكنى أبا الحسن.

حاله : كان نحوياً، ذاكراً للخلاف والنحو، أحفظ وقته بخلافهم : من بصري، وكوفي، من أهل المعرفة بكتاب «سيبويه» والواقفين على غوامضه ما وجد سبيلاً إلى ذلك، إلا إذا ....[40] سأل ذلك عن غيره، إذ لم يكن تصرفه كحفظه، قرأ بمالقة عند خروجه، وخرج إلى إشبيلية.

قال الأستاذ أبو جعفر ابن الزبير : وقرأت عليه إذ ذاك شيئاً من إيضاح الفارسي، ثم أخذت معه في الانتقال إلى «غرناطة»، فأجاب إلى ذلك، وقرأ بها إلى أن توفي.

وفاته : سنة ثمانين وستمائة.

عيسى بن عبد الله الأسدي[41]

أصله من وادي آش، يكنى أبا الاصبغ.

حاله : كان من جلة الفقهاء، وأكابر العلماء، حافظاً للرأي ذاكراً للمسائل[42] عارفاً بالنوازل، بصيراً بالأحكام مقدماً في معرفتها، كتب للقاضي أبي زيد الحشا، بطليطلة، ثم للقاضي أبي بكر بن منظور، وتولى الشورى مدة، ثم تولى القضاء بالعدوة، ثم بمدينة غرناطة، وذكره الإمام أبو الحسن علي بن باذش، فقال : كان من أهل الخصال الباهرة، والمعرفة التامة، يشارك في فنون من العلم.

قال ابن الصيرفي : كان من أهل العلم، والفهم، والتفهم، برز في العلم والورع، وصحة الدين، وكثرة الجود مع قلة الوجود، بارع الخط، فصيح الكتابة، حاضر الذهن، سريع الخاطر. له قريض جزل، وهمة في اقتناء الكتب وهيبة، وكان من تقدم عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس ...[43] قدمه عند صدوره من الزلاقة ... والأمير أبو يعقوب بن تاشفين عامله ...[44] إلى أن طولب عنده بسبب شدة الأحكام، فصرفه.

---

36) كلام سقط.

37) ما بين القوسين يبدو أنه كلام خارج عن السياق، ولعل محله في غير هذا الموضع.

38) البيتان في الأصل غير واضحين فاكتفينا برسمهما.

39) كذا....

40) كلام سقط.

41) «أبو الأصبغ عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي، أصله من جيان من البراجلة سكن قرطبة، وتفقه بها، سمع حاتما الطرابلسي، وتفقه بابن عتاب، ولازمه واختص به، أخذ عن ابن القطان، وسمع بجيان من الفقيه هشام بن سوار، وبغرناطة من يحيى بن زكرياء القليعي الفقيه. وله في الأحكام كتاب حسن سماه «الإعلام بنوازل الأحكام» ولي بقرطبة الشورى وكتابة حاكمها ابن جريس (كذا)...» مختصر ترتيب المدارك لابن حمادة. نقلا عن ملحق ترتيب المدارك ج. 182/8 ـ 183. تحقيق الأستاذ : سعيد أعراب.

42) في الأصل : ذاكر... حافظ...

43) يبدو أن كلاما سقط.

44) جملة لم نهتد إلى قراءتها.

مشيخته : روى عن مكي ابن أبي طالب، وأبي عبد الله بن عتاب، وتفقه به وانتفع به، وعن أبي عامر القطاني،وأبي مروان بن مالك، وابن الشماخ، وأبي زكرياء القلعي، وأبي شاكر، وأبي بكر ابن العربي، وأبي عامر (الكالف ؟).

تواليفه : له كتاب مشهور بـ «نوازل الأحكام».

وفاته : قال ابن الصيرفي : توفي القاضي عيسى بن عبد الله بغرناطة، يوم الخميس لعشر خلون من شوال، سنة ستة وثمانين وأربعمائة، ودفن يوم الجمعة، بعد صلاة العصر، بمقبرة باب «البيرة» وكانت جنازته مشهورة، حضرها أهل الحاضرة، وجل أهل البادية و(يعتمد مثل خلفها ؟)[45].

عائشة بنت عبد الواحد بن علي بن محمد ابن محمد بن علي بن محمد اللخمي[46]

أم صاحبنا الفقيه الصوفي أبي عبد الله الشقوري.

حالها : امرأة فاضلة، منقطعة القرين، شهيرة الفضل، معروفة الدين والنزاهة والهمة وحسن التلطف في علاج النساء ..... عن دين متين، وإيثار وشفقة ورحمة ومجاهدة، من المؤمنات الصالحات العاقلات، ذوات الفضل والعقل.

شعرها : أنشدني ولدها، من ذلك، قولها تخاطبه :

ارجع إلى مولاك لا تنس محاسنه
واسلك طريق العلا والمجد والشرف

واغسل ثيابك في بحر النقا سحرا
عساك تنجو به من لجة التلف

45) كذا بالأصل.

46) ترجمة لم ترد في النسخة الكتانية، وردت في مخطوطة العلامة أبي بكر التطواني ورقة : 100.

سعيد بن أحمد التجيبي[47]

من أهل غرناطة، يكنى أبا عثمان، ويعرف بالجرندي.

حاله : شيخ الفقهاء، وواسطة عقده، كتب الشروط، كان فقيهاً متبحراً في الفقه والأحكام، بصيراً بالشروط، معروف التحقيق والتثبت. مشاركاً في علوم من عربية وطب ولغة وعدد وفرائض وأدب. كل ذلك تحت سنن من لين الجانب، وصعب النفس[48] والاختصار في كل حال. ناب عن القضاة بـ «غرناطة» أحياناً. وولي القضاء بـ «المرية» منقبضاً مؤثراً للخمول ضرورة (كذا) لم يتزوج.

وفاته : يوم الخميس، رابع شوال، عام اثنين وعشرين وسبعمائة.

سيدة بنت عبد الغني بن علي العبدري

غرناطية، تكنى أم العلاء.

حالها : تخلفها أبوها في ديار الملك، يتيمة صغيرة، فنشأت بـ «مرسية» فتعلمت القرآن، برعت وجاد خطها، وعملت في ديار الملوك عمرها إلى أن أقعدتها عن ذلك زمانة ألزمتها بيتها نيفا عن ثلاثة أعوام، فخلفتها عن التعليم، بنتان لها. وكانت قد لقيت أبا زكرياء الدمشقي، وبه تعلمت القرآن، ثم انتقلت إلى فاس، ثم عادت إلى غرناطة، ولحقت بتونس، فعملت بقصرها، وكتبت «إحياء علوم الدين» من أصله، ولم تزل قائمة على التلاوة، محافظة على الأدعية والاذكار والسعي في الخيرات، والقيام على أعمال البر : من فك الرقاب وغير ذلك.

وفاتها : توفيت بمصر يوم الثلاثاء، لخمس خلون من محرم سنة سبع وأربعين وسبعمائة.

47) في النيل : سعد بن أحمد التجيبي... ص 123.

48) كذا. انظر ورقة 107 من مخطوطة العلامة أبي بكر التطواني، وورقة : 203 من مخطوط الخزانة الأحمدية السودية.

يعقوب بن عمر العبدري[49]

يكنى أبا عبد الله، شاطبي، إفريقي الاستيطان.

حاله : (كان)[50] رئيساً، حازماً يقظاً، ضابطاً لأطراف الرئاسة، ومعاني الحزم، مهيب السطوة، توصل إلى خدمة الأمير أبي زكرياء ابن أبي حفص، وقام بأمره، ثم انفرد له بضبط بجاية في خدمة حدث من ولده، فرسخت (عروقه، وثبت صنائعه، وكرم صهره)[51] واستفحل فيه أمره و(أثبت) كذا، في صرفه عنها طمعه ودام بها أمره إلى حين وفاته، ولم توجد له عورة، ولا أحدث[52] في تصرفه ثلمة، شجى في نحر أعدائه من بني زيان، متظاهراً (كذا) لحسن الطاعة، فشهر مكانه من الخدمة والبسالة[53] والضبط لما سده، وحسن الترتيب، وجبى مالاً عريضاً تخلفه من بعده.

حدثني من باشر أمره، قال : كان يتوقى ليلة التمام، والشمعة بين يديه، وكتب بخطه إنشاء ومراجعة، ما بين كتب إرسال .... وإبرام أمر، في بر أو بحر، ولما فلج كان بعد ببجاية يقول : لم .... عليه الموت حتى قبض على يديه...

دخوله غرناطة : على عهد ثالث الأمراء، من بني .... على غرض الرسالة، صحبة رجل من وجوه خدمة الدولة الحفصية يعرف بالحاج وهو شاب جميل الصورة، ظاهر المبرة، ولم ينشب أن .... بقصبة «الحجامة».

وفاته : عام تسعة وسبعمائة.

يحيى بن عمر الجياب البرجـــي

وليد الفقيه القاضي كاتب الدولة المرينية وصدرها أبي القاسم المتقدم ذكره. يكنى أبا زكرياء.

حاله : هذا الرجل من فضلاء معلمي كتاب الله تعالى، أولى الدين والفضل والنزاهة، والطهارة، حسن التعليم، مشهور النصح عند روايته، قائم على كتاب الله. لم يقع خلاف في فضله وصيانة دينه، مدة حياته، أقرأ القرآن بقصبة «غرناطة» وانتفع (به)، ولم يكن له داعية إلا حسن الذكر، ولا (حاجة ؟) إلا رحمة والديه[54]، نسيج وحده، خرج سلفه من «مرسية» فسكنوا «برجة» وبها ولد سنة أربع وستين وستمائة.

مشيخته : قرأ عن ابن عم أبيه : الشيخ الولي الكبير أبي عبد الله، وقاضي بلده : ابن أبي زكرياء. وغيرهم، ورحل إلى «المرية» بعد الثمانين وستمائة، فأقام بها نحو ثمانية أعوام. لازم الأستاذ ابن عبد النور، وكان يقول :

قرأت عليه «الجمل» و«الإيضاح» تفقهاً، ورحل إلى مالقة ولم يطل مقامه بها. ثم عاد إلى «برجة» فأقام بها، ولازم بغرناطة الأستاذ أبا جعفر ابن الزبير إلى أن توفي ابن الزبير، وقرأ على ابن مستقور، وابن الكماد والكواب وغيرهم.

مولده كما تقدم سنة أربع وستين وستمائة.

يحيى بن عروس التميمي

من أهل غرناطة، (يكنى) أبا زكرياء.

حاله :

قال القاضي أبو جعفر بن (مسغرة. كذا) : من أهل المعرفة بصناعة الطب والتقدم فيها، وكان عالي الهمة، نزيه النفس، كثير المشاركة، واختصه المقام الأعلى النصري، أعلى الله أمرهم لمعالجة ومداواة .....[55] وكان له دكان المسجد الأعظم بغرناطة، ثم انتقل إلى دكان غيره بقرب الجامع، يقصده فقهاء غرناطة ووزراؤها لمجالسته وسؤاله، فيوفي كل شخص منهم حقه.

---

49) الدرر الكامنة 435/4. ت : 1209 «يعقوب بن عمر العبدري : أبو عبد الرحمن، الشاطبي الأصل، الإفريقي، قال ابن الخطيب : قدم غرناطة رسولا صحبة الحاج فضل (كذا) من جهة صاحب إفريقية وهو جميل الصورة...»

50) في الأصل : رئيسا، حازما... وقد أضفنا «كان».

51) كذا.

52) في الأصل : حدث.

53) في بعض النسخ : البشاشة.

54) في الأصل... ولم يكن له داعية إلى حسن الذكر، ولا حاجة الرحمة إلى ولده... انظر ورقة 117 من مخطوط العلامة أبي بكر التطواني.

55) كلام ناقص.



يا بلادي يا شامة الأوطان ... غرة أنت في جبين الزمان

عيدك اليوم في لساني شعر ... عبقري لم تشده شفتان

زغرد الطير في خمائلك الخضـ ... ـر نشيدا معطر الألحان

فإذا الكون مهرجان وأعرا ... س وذكرى نهاية العدوان

هب شعبي يحطم القيد عن أيـ ... ـدي بنيه في ثورة البركان

يبذل الروح في سخاء ويروي ... مربض الأسد بالنجيع القاني

يوم هزت مشاعل النصر أيديـ ... ـه ودوى صداه في الآذان

وصحا بعد رقدة لم تكن مو ... تا كما ظن ناسجو الأكفان

بارك الله زحفه وخطاه ... وهو يمشي خلف المليك الباني

☆ ☆ ☆

نضحة الطهر من سلالة أطها ... ر شذاها يفوح من عدنان

دوحة لم تزل تظلل شعبا ... عربيا بيانع الأغصان

وجد الأمن في حماها وأمضى ... معها العمر في ظلال الأمان

وسقاها بالحب حتى تسامت ... شامخات العروش والتيجان

تتحدى الأحداث في كبرياء ... وتهد الصعاب بالإيمان

ثابتات الأصول كالأطلس الشا ... مخ باق على مدى الأزمان

كالثريا ملوكها الصيد في أفـ ... ـق المعالي وهاجة اللمعان

رضعوا في الصحراء خير لبان ... بين خضر النخيل والكثبان

وامتطوا صهوة العلى وتحلوا ... بمزايا تفيض كل لسان

قمم لم تزل تطل وتحدو ... موكب العز للغد المزدان

وعقود ولا عقود اللآلي ... لم تشاهد جمالها العينان

وتراث من عزة لم تشيد ... فوق من بايعوا بحد السنان !

دولة أسست على الحب مبنا ... ها وساست ببيعة الرضوان

حملت مشعل الهداية والخيـ ... ـر وحب الإنسان للإنسان

بارك الله دوحة وأصولا ... ورثت مجدها الفروع الدواني

فتلقاه العاهل الحسن الشهـ ... ـم فطابت بما تلقى الأماني

حبذا الوارث الأمين الذي سا ... ر على النهج بعدهم غير وان

وابن من حرر الثغور وأجلى ... عن ثراها جحافل الإسبان

قبس شع في مسيرة إسماعيـ ... ـل بان يجيء في إثر بان

لم يزل يرتقي بأمته الأو ... ج ويعلي شوامخ العمران

قد رأى العلم في رحابه مالم ... يره في أبهاء بغدان

فجر الماء في الحقول سيولا ... أخرجت كل برعم ريان

وغدا بالسدود كل جديب ... ممحل فاستحال كالبستان

واستعادت شبابها الأر ... ض فاختالت عروسا فواحة الأردان

طوقت شعبه أياديه فاعتز ... زفخورا وفي قيود امتنان

فهو إنسان كل عين تراه ... وهو ما يحتويه كل جنان

☆ ☆ ☆

ألبسته الصحراء تاجا فأضحى ... وله بعد فتحها تاجان

فك عنها القيود بالشعب يجتا ... ز إليها الحدود كالطوفان

وخلتها كتائب السلم تتلو ... في خشوع مقاطع القرآن

عيّى عن وصفها البليغ وذابت ... في محيطاتها فنون البيان

لم يسؤنا أذى الدخيل الذي و ... لى ولكن تنكر الجيران !

من وهبنـــاه حبنـــا ودمـــانـــا ومنحنـــــــاه دافئ الأحضـــــــان
لم نـذق من خصـومنـا بعض مـا ذقـ ـنـــاه ـ وأحسرتـــا ـ من الإخـوان !
أسرفـوا في الأذى ولسنـا ضعـــافـا في لقـــــاء ولا بشعب جبـــــان
ـمـزقتهم أبطـــالنـــا يـــوم أمغـــا لا وولـــوا بـــالعـــار في أنـــزران
غير أنـــا لن نـزرع الشـوك في الرو ض مكـــان الـورود والريحـــان !

☆ ☆ ☆

يـــا مليكي يهنيـــك شعب وفي مستهـــام في حبـــه متفـــاني
وسقى اللـــه روح كـــل شهيـــد بصبيب من الرضى هتـــــــان
أنت بـوأتـــه مكـــانـــا عليـــا فتغنى بـــذكره الخـــافقـــان
عربي تئن للقـــــدس مكلـــو مـــا وتـــأسو الجراح في لبنـــان
تنشـــد السلم في العراق وترثي أدعيـــــاء الإســـلام في إيران !
وأبـو العرب حيث كـــانوا يعـــاني من مـــآسي إخـوانـــه مـــا يعـــاني
أرقتـــه المخيمـــات وصرخـــا ت نســـــاء يغرقن في الأحـــزان
فـــامتطى الجـو منجـدا في إبـاء عربي ونخـــوة الشجعـــــان
هكـــذا أنت ملهم يتحـــدى كـــل خطب ورابـح في الرهـــان
فـاستمـع صرخـة الجيـوب وقـد مـ ـــدت إلينـا من سـاكنيهـا اليـدان
في اشتيـــاق لعـــودة وعنـــاق تتـــلاقى في عرســـه الضفتـــان
وابـق للضـــاد والعروبـــة حصنـــا ومـــلاذا من عـــاديـــات الـزمـــان
وليعش في ظـــلال عرشـــك شعب يتمنى أن يسلم الفرقـــــدان



للشاعر الأستاذ أحمد بلحاج الشهيدي

ذكراك عهد في القلوب مسطر — يفنى الزمان ونبعه متفجر

لا الدهر يحجبه ولا أحداثه — هيهات يخبو نوره أو يفتر

في كل آونة يزيد رواؤه — ألقا على أفق الدنا فينور

نفحاته علوية فإذا هفت — راح الندى بعبيرها يتعطر

عهد به تحيى القلوب على الصفا — وتشيد لحنا بالمحبة يزخر

الله ألهمه وحصن سره — كالذكر في السبع المثاني مسور

ميثاقه بين العوالم وحدة — أبدية يحدو بها ويبشر

وصروح عدل ما يزال شموخها — يعلو على همم الذين تجبروا

☆ ☆ ☆

يا أيها الملك الذي أضحت به — آمالنا الكبرى تبين وتزهر

ضحكت لنا في عهدكم أيامنا — وأعادنا الطرب القديم الهاجر

وتواكبت بين الربى أفراحنا — كالطير تشدو بالربيع وتفخر

ياخير من عقد اللواء بعزه — وتحصن الجيش الغيور الظافر

في شخصكم مزج التحرر بالهدى — والعدل في أسمى خلالك يظهر

فكأنما هو من محاسن فكركم — أو فكركم هو بعضه المتنور

رؤياك للحدث البعيد حقيقة — تجلو بها عمق الزمان وتسبر

☆ ☆ ☆

في كـل نـاحيـة تشيـد معـاهـدا ... ومصـــانعـــا للمنتجـــات تـــوفر

ومسيرة كـــالـــزحف إلا أنهـــا ... في حلـــــــــــة مخضرة تتبختر

وصلت بهـا الأجـزاء في صحرائنـا ... وتـــلاحمت شطـــآنهـــا والأبحر

وتعـانقت مثـل النخيـل رجـالهـا ... ونســـاؤهـــا بين الكتـــائب تخطر

طربت لهـــا الأعراب إلا عصبـــة ... مـــأجـورة في جرمهـــا تتستر

يـاويلهـا تـاهت بهـا أحـلامهـا ... حتى غـــــدت في مرتقى لا يعمر

مـا ضر وحـدتنـا ضـلالـة سعيهـا ... مـــا دام رائـــدنـــا الرجـــاء الأكبر

من مبلـغ الجيران عنـــا أننـــا ... نرعى الـــذمـام بشيمـــة لا تغـــدر ؟

وإذا ظلمنـــا ثـــار من أفـواجنـــا ... سرب البطـولـــة بـــالفـــداء يكبر

أمجـادنـا كـالشهب في عليـائهـا ... وتراثنـــا بين الخـــزائن جـــوهر

طرقت بنـا الأمصـار وهي منيعـة ... وارتـــاع من إقـــدامنـــا المتجبر

واستطلعت دول التـوسـع غربنـا ... فـــارتـــد رعبـــا تركهـــا والقيصر

ولـواؤنـا رغم الأعـاصر خـافـق ... مرح على آفـــاقـــه متـــوتر

تجتـاحـه الأحـداث حتى ينحني ... ويعـــود في ريعـــانـــه يتحرر

صـور الجـلال على تمـوج خفقـه ... والعـــز في أعطـــافـــه يتبلـــور

مـا مـات عفـوا من تشهـد بـاسمـه ... في جنـــة المـــأوى ثراه الأطهر

والنصر في فرســـانـنــا مرح الخطى ... والبر فينـــا عـــزة وتبصر

ومـآثر التـــاريـخ تحكي مثلمـا ... يحكي النـــدى عن جـودنـــا ويعبر

مرت بنـا الأحقـاب وهي عـزيـزة ... وتفتحت أفكـــارهـــا والأعصر

إنـا وقـد شرفت بنـا آمـالنـا ... نرد الســلام ونتقي مـــا نحـــذر

☆ ☆ ☆

يـــا رائـــد الشعب العظيم ورمـزه ... ومخطـــط الحكم الـــذي نتخير

ورجـاءنـا المـوعـود في طرق العلى ... وضميرنـــا الصـــافي الـــذي يتـــدبر

بشرى لعرش هـــذبتـــك أصولـــه ... حتى علـــوت على المكـــارم تفخر

وعلى مـدى الأحقـاب ظـل سنـاؤه ... كـــالكـوكب الســـاري ينير ويبهر

فـاهنـأ بـه عيـدا يهب على الربى ... وكـــأنـــه بين الخمـــائـــل عنبر

يهفو بماء الورد في أردانه ... غيث يسر به الربيع ويزهر

وانعم به كالزهر في أكمامه ... يندى به وجه الشباب وينضر

أضحكت ثغر النصر في ليل السرى ... وانصب من شفق المسيرة أحمر

عشرون عاما بعد ست قد خلت ... وشبابك الغالي يعاني ويصبر

قضيتها نزر الكرى متحديا ... لعظيم ما يبدو وما يتصور

لا يستقل بها المدى فكأنها ... أحلام فجر بالرجاء يبشر

لا راحة في راحتيك جنيتها ... كلا ولا طلب المعالي يقصر

فضية الأعياد إلا أنها ... ذهبية تحيى عليها الأعصر

ما ضر حلمك أن رأيت خطوبها ... كالموج يضرب في الصخور ويكسر

وبدا لك الإنسان في مأساته ... يرتد عن خلق الكرام ويدبر

يهتاجه الإعصار في نزعاته ... ويخوض في موج الشقاء ويبحر

فلتحى رمزا بل مثالا للعلى ... حتى ترى من شعبكم ما يبهر

ولتحي للتوحيد والعدل الذي ... تبنى به أسس الحياة وتزهر

واهنأ بعرش قد تحصن سره ... بإرادة الله التي لا تقهر

وإرادة الشعب الوفي بعهده ... ما دام للأحرار عهد يذكر

واسلم ودم لولي عهدكم الذي ... أيام عهده بالمآثر تزخر



تحية للعلماء

للأستاذ محمد العربي العلوي البكري

الله أكبر شمل العلم ينتظم ... مجددا في ربوع حفلها بكم

مكناسة برزت تهدي لقاءكم ... من أطيب الطيب - نفحا - نشره لكم

تشدو : مهللة في كل ثانية ... أمضيتموها هنا - يا مرحبا بكم

تاهت بمقدمكم إذ حل جمعكم ... بأرضها. فغدت. كأنها علم

تهفو إليها قلوب الناس قاطبة ... مستبشرين بنشر الوعي بينهم

☆☆☆

يا نخبة أخلصت لله طائعة ... في كل أمر به الإسلام يلتزم

ها أنتم في بلاد كان منشئها ... شهما. هماما تهابه الأمم

قد أسس المجد للأحفاد سادتنا ... ملوك مغربنا آل النبي. هم

فاستمسكوا بكتاب الله وانتهجوا ... نهج الأباة. وما كلت لهم همم

مذ أوجد الله هذا العرش في وطني ... والشعب متحد بالعز متسم

قد شيد العرش ملكا. ظل يحرسه ... شعب أمين وما زلت به قدم

دام الوفاء له في كل أزمنة ... من عهد إدريس لم تنقض له ذمم

إخواننا جددوا للدين سيرته ... فأنتم قدوة والجد دأبكم

فالله فضلكم والله أورثكم ... بعد النبيئين علما زانه القلم

قد جند الكفر من أشياعه فرقا ... تسللت لصفوف الدين تقتحم

حصون وحدتنا لذا، فواجبنا ... رد العدو على الأعقاب ينهزم

دس السموم في أطباق منمقة ... تغري بمنظرها كأنها دسم

لا تركنوا إخوتي فالله حملكم ... أمانة شرفت. من قلبه يهم

ما ضرنا أننا في كل واجهة ... نحارب البغي ما تنفك نصطدم

أحيوا الشعور بدين الله حسبكم ... إبلاغ نصحكم لمن به وهم

قد أبرز السيل آراء مقنعة ... كادت تشكك فالأفكار تحتدم

لكننا ـ وبحمد الله قد نشطت ... بالوعظ ألسنة للحق تحتكم

إذ قيض الله هذا الشهم مالكنا ... أحيا مجالسنا فالعلم شأنكم

قد خط منهجنا من فيض حكمته ... واستوثق العهد من أفراد جمعكم

☆ ☆ ☆

مولاي يا حسن إنا جنودكم ... لمحو زيف به الأعداء تتهم

لم نخش كيدا فقد كانت عنايتكم ... زادا لنا في مسار هديه بكم

فالله وفقكم والسعد عانقكم ... والشعب ساندكم فالجاه جاهكم

يا غارة الله عونا في الجهاد له ... فما توانى إذا التحرير يغتنم

قاد السياسة. والاطماع عاتية ... أنيابها كشرت وكلها نهم

فاستبسل الشعب في أحضان قائدنا ... ملبيا طائعا بالله يعتصم

حتى تحررت الصحراء وارتفعت ... في الجو رايتنا يعلو بها الهرم

أدعو لعاهلنا ـ والختم من جمعكم ـ ... بالنصر دوما. إذ الأهوال تزدحم

واحفظ إلهي ولي العهد مقترنا ... بالسعد مع إخوة والشمل منتظم

أعدها: أبو عمر الفاروق

الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة في المغرب

تنفيذا لأوامر سامية من رائد الوحدة الإسلامية أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني، نظمت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية على أرض المغرب أرض القمم، وبمدينة فاس عاصمة العلم، الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة، خلال الفترة الممتدة بين 22 ـ 26 رجب 1407 (23 ـ 27 مارس 1987). تحت شعار قول الله تعالى في كتابه العزيز: **﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين﴾**.

وحرصاً من الوزارة على ضمان نجاح هذه التظاهرة الفريدة في تاريخ الدعوة الإسلامية، فقد باشرت الإعداد لها قبل الدعوة إلى انعقادها، وتدارست في اجتماعات مطولة جوانب التهيئ وتيسير سبل نجاحها في أحسن الظروف، وهكذا وجهت الدعوة إلى صفوة من خطباء الجمعة داخل المغرب وخارجه، وخصوصا خطباء مساجد الحواضر التاريخية الكبرى في العالم الإسلامي، وكذا خطباء الجمعة في الدول التي بها أقليات إسلامية، فلبى الدعوة خطباء من مختلف قارات العالم، وفي مقدمتهم معالي وزير الحج والأوقاف في المملكة العربية السعودية، ووزير الشؤون الدينية في جمهورية غينيا، وخطباء الحرم المكي والمدني والقدس الشريف.

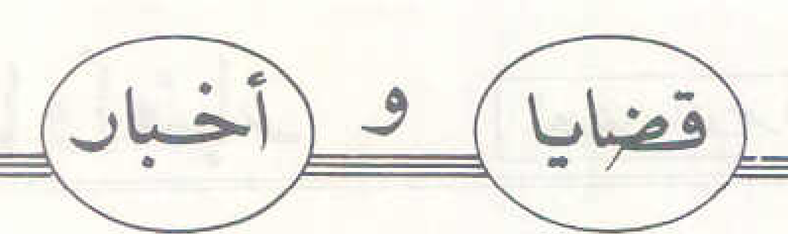
وبالإضافة إلى ما يربو عن ثلاث مئة خطيب من داخل المملكة، توافد على أرض المملكة خطباء يمثلون المملكة العربية السعودية، وغينيا، والعراق، وفلسطين، والإمارات العربية المتحدة، وتركيا، والكويت، ونيجيريا، وتونس، والأردن، وباكستان، وإفريقيا الوسطى، وساحل العاج، وأندونيسيا، والكابون، والولايات المتحدة الأمريكية، والنيجر، والسينغال، وغامبيا، وموريطانيا وألمانيا الاتحادية، والسودان، وسلطنة عمان، وبولونيا، وهولاندا، وإسبانيا، وبنغلاديش، والاتحاد السوفياتي، وبلجيكا، وقطر، ورومانيا، وفرنسا، وبروني، ومالي، وماليزيا، وبلغاريا.

وافتتح الملتقى برئاسة معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية السيد عبد الكبير العلوي المدغري.

وبعد الاستماع إلى آيات بينات من الذكر الحكيم تناول معالي الوزير الكلمة ليرحب بالوفود المشاركة وليعلن عن افتتاح الملتقى، ويجد القارئ الكريم نص خطاب الافتتاح في صدر هذا العدد.

ثم تتالى على منصة الملتقى رؤساء الوفود والمنظمات المشاركة في الملتقى، وهكذا استمع الحاضرون إلى كلمات:

- الأمين العام للمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم الأستاذ عبد الهادي بو طالب.
- الكاتب العام للمجالس العلمية الأستاذ محمد الحجوي الثعالبي.
- الأمين العام لرابطة علماء المغرب الأستاذ عبد الله كنون.
- الأمين العام لرابطة علماء المغرب والسنغال الأستاذ مولاي مصطفى العلوي.
- الكاتب العام لجمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية الأستاذ سعيد بوركبة.
- رئيس المجلس البلدي لمدينة فاس الدكتور عبد الرحيم بابا الفلالي.
- خطيب الحرم المكي الشيخ محمد بن السبيل.
- خطيب الحرم المدني الشيخ علي الحذيفي.
- خطيب القدس الشريف الشيخ عكرمة صبري.
- خطيب مسجد عقبة بن نافع بالقيروان الشيخ عبد الرحمن بن علي خليف.



بحوث

قدمت إلى الملتقى في موضوع خطبة الجمعة عدة بحوث علمية، تناولت بالدرس والتحليل أبعاد الخطبة وأهدافها، وسبل الرفع من مستواها حتى تلائم الظروف المستجدة التي تعيشها الأمة الإسلامية، وفيما يلي :
أسماء الأساتذة أصحاب البحوث وعناوين أبحاثهم :

ـ الأستاذ عبد الله كنون :

مواكبة خطبة الجمعة لتطورات العصر.

ـ الأستاذ الشيخ المكي الناصري :

دور خطبة الجمعة في توجيه المجتمع الإسلامي وتربيته.

ـ الأستاذ مولاي مصطفى العلوي :

يوم الجمعة وفضائلها وما أكرم الله به أمة محمد ﷺ في هذا اليوم من أسباب سعادتهم ونيل رضاه.

ـ الدكتور محمد يسف :

خطبة الجمعة

ـ الدكتور حمداتي شبيهنا ماء العينين :

خطبة الجمعة وقضايا العصر.

ـ الدكتور عباس الجراري :

خطبة الجمعة وقضايا الفكر الإسلامي.

ـ الدكتور محمد الكتاني :

منهجية الخطبة ودورها في التوجيه الإسلامي.

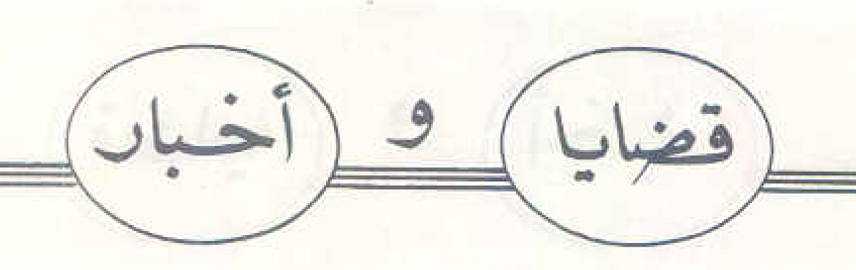
ـ الدكتور يوسف الكتاني :

خطيب الجمعة ودوره في التوعية الإسلامية وفي التوجيه والإرشاد.



- الدكتور عبد السلام الإدغيري : **مهمة خطيب الجمعة.**
- الدكتور عبد الوهاب التازي سعود : **خطبة الجمعة وأهميتها في تبليغ الرسالة الإسلامية.**
- الدكتور عبد السلام الهراس : **الجمعة وتوجيه المسلمين.**
- الدكتور إبراهيم بنصدّيق : **الخطابة ورجالاتها عبر التاريخ الإسلامي.**
- الدكتور محمد عبد الغفار الشريف : **الخطبة وأحكامها الفقهية.**

بعض جلسات الملتقى



ـ الشيخ لارباس ماء العينين :

خطبة الجمعة ودورها في توجيه المجتمع الإسلامي

مع ذكر البعض من أحكام الجمعة وما على الخطيب أن يتحلّى به.

ـ الأستاذ أحمد أفزاز :

خطبة الجمعة، واقع وآفاق.

ـ الأستاذ عبد السلام جبران المسفيوي :

في بيان الخطابة والخطيب مكانةً ووصفاً.

ـ الأستاذ محمد أبو الفضل :

الخطبة المنبرية وأهميتها في تبليغ الدعوة الإسلامية.

ـ الأستاذ مصطفى بوذروة :

الخطابة.

ـ الأستاذ عبد الغفور الناصر :

خطبة الجمعة ودورها في المجتمع الإسلامي.

ـ الأستاذ المقدم بوزيان :

دور الدعوة والتوجيه من خلال منبر الجمعة في الأمة الإسلامية

ـ الشيخ عبد الرحمان بن علي خليف :

الخطبة وأثرها في المجتمع.

ـ الأستاذ عبد الحي العمراني :

يوم الجمعة في حياة المسلم.

ـ الأستاذ المهدي القاسمي :

بحث حول خطبة الجمعة.

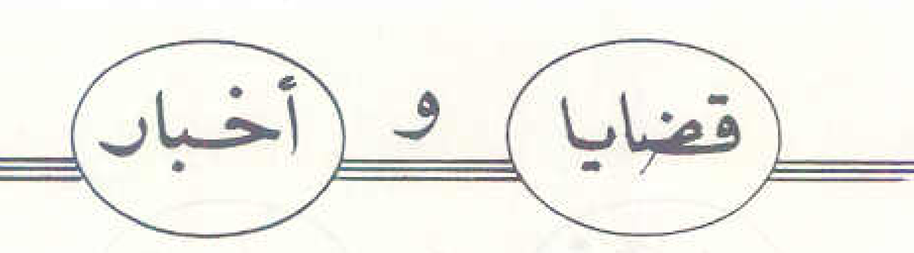
ـ الأستاذ ابراهيم الجمالي :

الخطبة وأثرها في المجتمع.

ـ الأستاذ إدريس عزوزي :

رسالة خطيب الجمعة ودوره في المجتمع.

ـــ وقد كانت هذه البحوث محطّ عناية المشاركين حيث أثريت بمناقشة وتدخلات السادة العلماء المشاركين.



تدشين مسجد يوسف بن تاشفين

بمناسبة انعقاد الملتقى الأول لخطباء الجمعة، أشرف وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بفاس بحضور عدد كبير من المشاركين في اشغال الملتقى الأول لخطباء الجمعة وجمهور من المؤمنين على تدشين مسجد يوسف بن تاشفين الذي شيده المحسنون بمساهمة من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية على مساحة 2500 متر مربع بحي الأطلس.

وقد كلف إنجاز هذه المعلمة الدينية الهامة التي أشرفت على إنجازها جمعية الهداية الإسلامية حوالي 350 مليون سنتيم.

وكان الحجر الأساسي للمسجد الذي خصص جانب منه لبناء كتاب قرآني كبير و8 دكاكين تخصص مداخيلها لصيانة وتسيير المسجد قد وضع في 2 فبراير 1983.

وبعد ازاحة الستار عن اللوحة التذكارية التي تحمل اسم المسجد وتاريخ الشروع في بنائه وتاريخ تدشينه أدى معالي الوزير والشخصيات المرافقة له صلاة العصر بالمسجد حيث أم الشيخ علي عبد الرحمن الحذيفي إمام المسجد النبوي بالمدينة المنورة المصلين.

وفي ختام الصلاة، ألقى الوزير كلمة أشاد فيها بهذا العمل الإسلامي الرائع الذي قامت به جمعية الهداية الإسلامية والذي يجسد روح التكافل والتضامن التي تطبع سلوك رعايا أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني.

معرض لكتب خطبة الجمعة

لمناسبة انعقاد الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة نظمت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية معرضاً لكتب خطبة الجمعة، اشتمل على نماذج من خطب المصطفى ﷺ، كما أوردتها كتب الحديث والسيرة النبوية المعتمدة، كما عرضت بعض المخطوطات والمطبوعات التي تمت بصلة إلى خطبة الجمعة، وقد دشن هذا المعرض معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية السيد عبد الكبير العلوي المدغري بحضور المشاركين في الملتقى.

حفلات تكريمية

أقيمت للمشاركين في الملتقى حفلات تكريمية نخص بالذكر منها مأدبة العشاء التي أقامها بمنزله معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية وقد كانت مناسبة لأعضاء الوفود لتبادل الرأي والمشورة، واستمع فيها الحاضرون إلى تلاوة آيات من الذكر الحكيم لمجودين من قراء الجمهوريات الإسلامية بالاتحاد السوفياتي.

كما أقام المجلس البلدي لمدينة فاس حفلة تكريم لأعضاء الوفود بنزل المرينيين.

تعاون مغربي سعودي

لمناسبة زيارة وزير الحج والأوقاف في المملكة العربية السعودية الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع على رأس الوفد الذي شارك في أعمال الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة، أجرى معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية مباحثات مع نظيره السعودي تناولت بحث مختلف أوجه التعاون المغربي السعودي، والسبل الكفيلة بتعميقه حتى يجسد عمق الروابط التي تربط بين العاهلين الكريمين أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني، وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز.

وقد أبرز معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية أثناء جلسة العمل التي عقدها مع زميله السعودي بمقر عمالة فاس عمق الروابط التي تربط بين المملكتين، وأشاد بالتعاون المثالي القائم بينهما في أكثر من مجال، وخاصة في ميدان الشؤون الإسلامية، ودعا إلى تعميق هذا التعاون ليشمل التنسيق في مجال طبع كتب التراث، وأبرز الجهود التي تبذلها وزارته في سبيل إحياء التراث الإسلامي طبقا لتوجيهات أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني الذي يولي الشؤون الإسلامية عناية خاصة.

ودعا إلى أن يتعزز التعاون القائم بين البلدين، ويشمل ميدان خدمة الكتاب العزيز والسنة المطهرة، وذلك بتشجيع التحفيظ، والمدارس التي تعنى بهذا الشأن.

كما اقترح تبادل زيارات العلماء والخطباء والوعاظ، وأبرز الإمكانيات الطيبة التي تتوفر عليها بلادنا، في ميدان تكوين الأطر المتخصصة، المتمثلة في المدارس العتيقة التي تخرج أفواجا من الطلبة لا يقل رصيدهم عن رصيد زملائهم المتخرجين من الكليات العصرية، وأشار إلى الكراسي العلمية التي تضطلع بدور رائد في نشر الثقافة الإسلامية على أوسع نطاق.

وفي الكلمة التي ألقاها وزير الحج والأوقاف السعودي الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع، شكر لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب سعيها المحمود في خدمة كتاب الله وسنة رسوله، وأعرب عن اغتباطه بالنتائج التي تحققت في هذا المجال، وأشار إلى متانة التعاون القائم بين المملكتين، وإلى تطابق وجهة نظرهما، والاتفاق في المنطلقات والأهداف.

وقد تمخض هذا اللقاء عن تشكيل لجنة مشتركة يعهد إليها بتنفيذ المقترحات، وتحقيق مزيد من التعاون والترابط يكون تجسيداً لطموح البلدين في ترسيخ وشائج المودة والقربى.

صلاة الجمعة بجامع القرويين

أدى خطباء العالم الإسلامي صلاة الجمعة بجامع القرويين، وقد أمهم خطيب الحرم المكي، الشيخ محمد بن سبيل الذي خصص الخطبة لأوضاع المسلمين في العالم، وواجبات علماء الإسلام في القيام بالدعوة إلى الله، وتبصير المؤمنين بواجب التمكين لدين الله.



خطيب الحرم المكي أثناء إلقائه خطبة الجمعة بجامع القرويين

توصيات وقرارات

انبثقت عن الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة في العالم لجان تدارست آراء واقتراحات المؤتمرين، بخصوص خطبة الجمعة واقعها الحالي وكيف ترقى إلى المستوى الذي يستجيب لمتطلبات العصر، كما تناولت بصفة عامة دراسة واقع المسلمين وما ينبغي القيام به لتجاوز الوضعية الحالية لتحقيق الوجود الحر الكريم للأمة الإسلامية.

كما تقرر إنشاء منظمة عالمية لخطباء الجمعة في العالم الإسلامي، وقد تكونت لجنة خاصة عهد إليها بإعداد مشروع إنشاء هذه المنظمة.

أما بقية اللجان فهي :

لجنة : الخطباء في الجمع والأعياد.
- لجنة المسجد والدعوة الإسلامية.
- لجنة القضايا الإسلامية.
- لجنة صياغة البيان الختامي.

وفيما يلي نصوص التوصيات :

توصيات لجنة الخطابة في الجمع والأعياد

إن لجنة الخطابة في الجمع والأعياد بعد دراستها للبحوث والدراسات والاقتراحات المقدمة للملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة، المنعقد بمدينة فاس.

واعتبارا لدور الخطبة في توجيه المسلم نحو القيم والمعاني السامية وإيضاح حقائق الإسلام وتصحيح السلبيات التي تظهر في المجتمع الإسلامي.

• الملتقى يوصي بجعل المسيرة الخضراء مثالاً يحتذى

- دعوة الأمة الإسلامية إلى الاهتداء بهدي الإسلام وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام في جهادها المتواصل باعتماد جانب القوة الروحية المعنوية القائمة على سلاح الايمان والقرآن، كمنطلق اساسي لاسترجاع الحقوق المهضومة، والوصول الى المكتسبات المشروعة، على غرار ما قام به المغرب من المسيرة الخضراء القرآنية التي استكمل بها وحدته الترابية، وحرر بها صحراءه المغربية بقيادة أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله، وكانت مستمدة من فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة المكرمة.

• الملتقى ضد الكيانات المصطنعة

- يستنكر الملتقى محاولة خلق كيانات صغيرة مصطنعة في الوطن الاسلامي من شأنها أن تضعف قوة المسلمين وتنال من وحدتهم واعتصامهم بحبل الله المتين.



وبناء على أن خطب الرسول ﷺ هي النموذج الرائع للخطبة الناجحة في تربية الإنسان وتقويم سلوكه وصنع المسلم القوي الأمين. لأجل ذلك فإن الملتقى يوصي بما يلي :

أولا : يوصي باستلهام روح الخطب النبوية في البحث عن أحسن الوسائل لمخاطبة الناس، وإقناعهم بالحق وتوجيههم إليه.

ثانيا : بتوظيف الخطبة توظيفا منهجيا، حتى تؤدي رسالتها في التوعية الإسلامية، وتكوين المسلم الصالح الملتزم بشريعة الله.

ثالثا : بالعمل على رفع مستوى الخطبة في مضمونها وأسلوبها ومقوماتها، باعتماد أصالة التوجيه، ووضوح الفكرة، وتقديمها في أسلوب مناسب لمقتضى الحال، مع التزام السهولة في التعبير، والوضوح في الأداء، وتجنب الإيجاز المخل، والتطويل الممل.

رابعا : ببناء الخطبة على المبادئ والأحكام المستمدة من الكتاب والسنة والإجماع.

خامسا : بمعالجة الخطبة للأمراض الاجتماعية والانحلال الخلقي والتفكك الأسري الذي يعرفه العالم المعاصر وتحذير المسلمين منها بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة.

سادسا : بتوجيه العناية في الخطبة إلى مشكلات الشباب وقضاياه الفكرية والخلقية، وتقديم الحلول الإسلامية الملائمة لها.

سابعا : بالتركيز في الخطبة على بعث روح الإخاء والمودة والتكافل والتضامن بين المسلمين، وتجنب ما يسيء إلى ذلك.

ثامنا : بإذكاء الخطبة للطاقة الروحية الإسلامية في قلوب المسلمين والاعتزاز بالدين، حتى يقيموا علاقاتهم الفردية والجماعية على أصول الإسلام، ومبادئه السمحة.

تاسعا : بتجنب الخطبة لكل ما هو من قبيل المسائل الخلافية التي تؤدي إلى بلبلة المسلمين والإضرار بوحدتهم.

عاشرا : بإسهام الخطبة في مواكبة قضايا الساعة ومشكلات الحضارة الحديثة، وتوضيح موقف الإسلام منها.

حادي عشر : بتحرير الخطبة وإلقائها بلسان عربي مبين في جميع البلاد الإسلامية حفاظا على طابعها الديني مع إضافة شرح يسبقها أو يلحقها في نفس الموضوع بلغة أهل البلد إن كانوا لا يتكلمون العربية.

التوصيات الخاصة بالخطيب

و بالنسبة للخطيب يوصي بما يلي :

أولا : بتكوين الخطيب التكوين الثقافي والخلقي اللازم، وتعريفه بالمناهج الإسلامية في بناء الفرد والأسرة والمجتمع، اعتمادا على الكتاب والسنة وما هو مقرر في الفقه الإسلامي وقواعده، وإطلاعه على القضايا التي يعيشها العالم المعاصر، مع مواجتها بأحكام الإسلام، وتكييفها طبقا لنظامه الخاص ومنهجه الصحيح.

ثانيا : بفتح معاهد لتخريج الخطباء والوعاظ والدعاة عبر العالم الإسلامي.

ثالثا : بتنظيم دورات تدريبية وتكميلية للقائمين بالخطبة في الوقت الراهن بغية رفع مستواهم العلمي ولا سيما في فقه الشريعة وفقه السيرة النبوية.

رابعا : بإدراج مادة الوعظ والدعوة الإسلامية في مناهج الدراسة بكليات الشريعة وأصول الدين والمعاهد العليا التي تخرج الأطر العاملة في هذا الميدان.

خامسا : بإعطاء الأولوية في تولي مهام الخطابة للراغبين فيها والمؤهلين لها من خريجي كليات الشريعة وأصول الدين ومعاهد الدعوة الإسلامية.

سادسا : بالعمل على تحسين وضعية الخطيب المادية تقديرا لمكانته وصيانة لكرامته وتشجيعا له على التفاني في أداء مهمته.

التوصيات العامة

بالنسبة للتوصيات العامة يوصي الملتقى بما يلي :

أولا : بدعوة الكتاب والمفكرين إلى الكتابة في موضوع منهجية الخطابة، وتشجيعهم على ذلك.

ثانيا : بجعل المناسبات الدينية التي يحل موعدها خلال السنة موضوعا لخطبة الجمعة، وفرصة للمزيد من التفقه في الدين والمسيرة النبوية.

ثالثا : بتخصيص أيام معينة في السنة يطرق فيها خطباء الجمعة موضوعا موحدا يهم العالم الإسلامي، كتحرير القدس وأفغانستان وغيرها.

رابعا : بإيقاف الحركة العادية في الدكاكين والمقاهي والتجمعات المجاورة لكل مسجد جامع عند النداء لصلاة الجمعة، للتمكن من السعي إليها، وعدم التشويش عليها.

خامسا : بتبادل الزيارات بين خطباء المساجد لتوثيق الصلات بينهم في ميدان الخطبة والدعوة الإسلامية.

سادسا : بتنظيم ملتقيات دورية لخطباء المساجد تعمل على توحيد مناهج الخطبة، ومساهمتها في توجيه المسلمين توجيها إسلاميا موحدا.

سابعا : بإنشاء منظمة عالمية لخطباء الجمعة في العالم تسهر على مواصلة ما بدأه الملتقى العالمي الأول فوق أرض المغرب.

توصيات لجنة المسجد والدعوة إلى الله

نظرا لأهمية المسجد في حياة المسلمين باعتباره قلب المجتمع النابض، كان أول عمل قام به المصطفى ﷺ بعد هجرته من مكة، بلد الله الحرام، إلى طيبة، موطن الإيواء والنصرة، هو بناء المسجد النبوي الشريف الذي أصبح منذ يومئذ محور النشاط المادي والوجداني، بكل مظاهره وأشكاله، عبادة ومعاملة، وسلوكا وأخلاقا، وعلما وسياسة وإدارة وقيادة للجهاد في سبيل الله.

ونظرا لما اعترى الأمة الإسلامية من تخلف أصبحت معه الحاجة ماسة إلى تجديد رسالة المسجد وبعث دوره من جديد، واعتبارا لكل ذلك فإن الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة المنعقد في مدينة فاس بالمغرب، ما بين فترة 22 ـ 26 رجب الفرد لعام 1407 هـ 23 ـ 27 مارس لسنة 1987 يوصي بما يلي :

• الملتقى يوصي بجعل المسيرة الخضراء مثالا يحتذى

- دعوة الأمة الإسلامية إلى الاهتداء بهدي الإسلام وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام في جهادها المتواصل باعتماد جانب القوة الروحية المعنوية القائمة على سلاح الايمان والقرآن، كمنطلق اساسي لاسترجاع الحقوق المهضومة، والوصول الى المكتسبات المشروعة، على غرار ما قام به المغرب من المسيرة الخضراء القرآنية التي استكمل بها وحدته الترابية، وحرر بها صحراءه المغربية بقيادة أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله، وكانت مستمدة من فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة المكرمة.

• الملتقى ضد الكيانات المصطنعة

- يستنكر الملتقى محاولة خلق كيانات صغيرة مصطنعة في الوطن الاسلامي من شأنها أن تضعف قوة المسلمين وتنال من وحدتهم واعتصامهم بحبل الله المتين.



أولا : اعتبار المسجد قاعدة تتمحور حولها أنماط النشاط الآتية.

أ - عبادة الله عز وجل بإقامة الشعائر الدينية بما فيها من صلاة وخطبة جمعة وذكر، وتلاوة قرآنية.

ب - تربية الجماهير المسلمة المؤمنة وتوعيتها بإلقاء الدروس والمحاضرات والندوات.

ج - تأسيس مكتبة في كل مسجد بالحاضرة والبادية، غايتها خدمة النشاط الثقافي، ومساعدة الخطباء والمدرسين والتلاميذ والطلبة وعامة الناس على تنمية مداركهم، وتوسيع آفاق معرفتهم حتى تسهم في توجيه الشباب بصفة خاصة توجيها إسلاميا صحيحا، على أن ينتقى لها الجيد والنافع من المصادر والمراجع الإسلامية.

ثانيا : توفير الحصانة للخطيب والإمام والمدرس واحترامهم بالنسبة لما يتصل بأداء مهامهم الدينية والعلمية المنوطة بهم تقديرا لمسؤولياتهم، وذلك لكي ترجع لهم مكانتهم التي يستحقونها بموجب قول الرسول ﷺ : أئمتكم شفعاؤكم فانظروا بمن تستشفعون.

ثالثا : من تمام العناية بالمسجد اختيار القائمين بشؤونه من مؤذن وإمام وخطيب بحيث يكونون من أهل الورع والتقوى والاستقامة فضلا عن العلم والدراية بشؤون الدين.

رابعا : تنزيه المسجد عن كل ما يخل بحرمته من نزاع وتشويش يفضيان إلى إفساد ذات البين بين المسلمين كالذي يحدث بين بعض الناس والطوائف والفئات باسم العلم والاختلاف الفقهي.

خامسا : إحداث الكراسي العلمية بالمساجد في الحواضر والبوادي، يسند أمرها إلى أهل الاطلاع والرسوخ من العلماء والفقهاء تيسيرا لنشر العلم وإسوة بما فعله أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة» وكذا حلقات للتوعية لفائدة عموم المسلمين.

سادسا : التنسيق بين الخطيب والمدرس حيث يكون المدرس مكملا للخطبة، مفصلا لما أجملته.

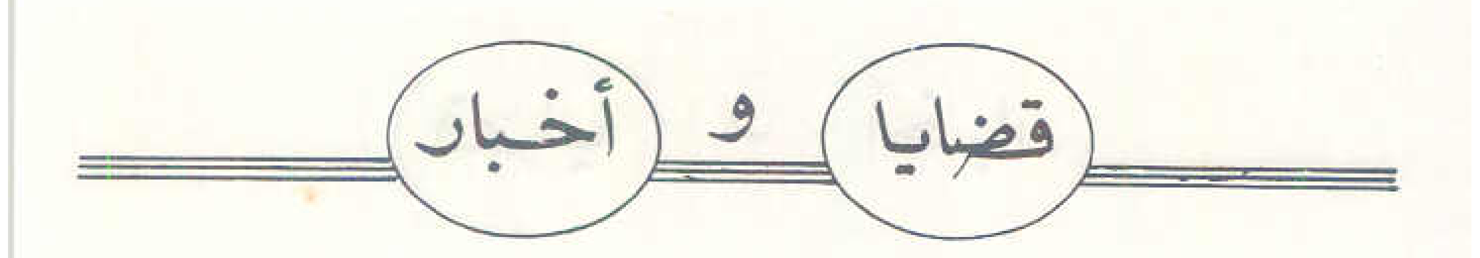
سابعا : تكوين الداعية والخطيب تكوينا علميا وفنيا مع الإلمام بقضايا العصر ومشاكله وذلك بإنشاء معاهد خاصة تابعة للجامعات الإسلامية تتخصص في هذا النوع من التكوين.

ثامنا : الحرص عند إرادة تأسيس كل مسجد على مراعاة المواصفات الشرعية لإقامته وتحديد سمت القبلة بكل دقة.

تاسعا : إنشاء كتاب قرآني في كل مسجد لتحفيظ القرآن الكريم وتجويده وترتيله.

عاشرا : اعتبار تحرير المسجد الأقصى دينا في عنق كل مؤمن لا تبرأ ذمته إلا بذلك، وبالدعم والمساندة للجهود التي يبذلها رئيس لجنة القدس جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله.

أحد عشر : العناية برسالة المسجد في ديار المهجر لفائدة الجاليات والأقليات الإسلامية، وتزويدها بالأئمة والخطباء والمعلمين حتى لا ينشأ أبناء المسلمين الموجودين في دار الغربة غرباء عن تعاليم دينهم الحنيف مع تنبيه الخطباء العاملين في هذا الحقل إلى تجنب الخلافات المذهبية واعتبار الجالية الإسلامية في المهجر جماعة واحدة سائرة على مذهب السنة والجماعة.



توصيات لجنة القضايا الإسلامية

اجتمعت لجنة القضايا الإسلامية المنبثقة عن الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة في المغرب المنعقد بفاس خلال أيام 22 ـ 27 رجب عام 1407 ـ الموافق 23 ـ 27 مارس 1987.

قدرست مختلف القضايا الإسلامية وأصدرت في شأنها التوصيات التالية :

القضية الفلسطينية

تستقطب القضية الفلسطينية اهتمام العالم الإسلامي كله، وعليه فإن الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة المنعقد في المغرب أيام 22 ـ 26 رجب 1407 / موافق 23 ـ 27 مارس 1987 يطالب المسلمين والفلسطينيين بالخصوص بالحذر التام مما يحاك لهذه القضية في الخفاء من مؤامرات وما تواجه به من تحديات، ويعلن ما يلي :

1) تأييده لحقوق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره والعودة إلى وطنه وإقامة دولته المستقلة على أرضه المحتلة والمغتصبة بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني كما تقرر ذلك في مؤتمرات القمة العربية والإسلامية، ويؤكد ضرورة الإجماع من الدول العربية والإسلامية على مساندة الشعب الفلسطيني في جهاده المقدس لتحرير بلاده وتخليصها من براثن الاستعمار بكل الوسائل المادية والمعنوية والتدخلات الجدية في المحافل الدولية والمنظمات العالمية، ونخص بالذكر القيام الجدي في صف واحد لموقف الاعتداءات الوحشية على المواطنين الفلسطينيين داخل الأراضي المحتلة من الصهاينة المجرمين والتعرض للمقدسات الإسلامية وخاصة المسجد الأقصى والمسجد الإبراهيمي وغيرهما، وفي هذا الصدد يحيي الملتقى الإخوان الفلسطينيين داخل فلسطين ويكبر ثباتهم وصمودهم في وجه الاعتداءات المتوالية عليهم التي تعبر عن تشبثهم بوطنهم وهويتهم العربية الإسلامية.

الحرب الإيرانية العراقية

يستنكر الملتقى ويضرع إلى الله من هذه الحرب الضروس المشتعلة بين دولتين إسلاميتين جارتين وهما إيران والعراق والتي أقرت عين العدو وكشفت وجه المسلمين في العالم وأضعفتهم ماديا ومعنويا، ويلح أشد الإلحاح على مواصلة الجهود والوساطات من كل الجهات المحبة للسلام والمؤسسات الإسلامية للتدخل والسعي الحميد في سبيل إقرار السلم، ويحذر من مسؤولية استمرار هذه الحرب بقطع النظر عن جميع الاعتبارات، هذا مع الاعتراف للعراق بالإعلان عن استعداده للسلام وإنهاء الحرب أكثر من مرة.

قضايا و أخبار

قضية أفغانستان

يندد الملتقى بالعدوان على الشعب الأفغاني المسلم ويطالب بانسحاب القوات الأجنبية من الأراضي الأفغانية وترك المواطنين الأفغانيين يحلون مشاكلهم بأنفسهم، ويعتبر التدخل في أفغانستان مناقضا للمواثيق والقوانين الدولية ما دامت هناك منظمة الأمم المتحدة والتي ما أقيمت إلا لمنع الاستطالة والعدوان، ويدعو فصائل المجاهدين إلى تمتين صلاتهم وتوحيد صفوفهم، ويهيب الملتقى بجميع المسلمين عموما أن يقفوا بجانب إخوانهم الأفغانيين وتأييدهم ومساعدتهم على إحراز النصر وإحراز الكيان.

الاقتتال في لبنان

يحز في نفوس المسلمين والعرب كافة ما يقع في لبنان الشقيق من الاقتتال الطائفي والعبث بمصالح الشعب اللبناني وتكسير وحدته وهدم كيانه انصياعا للمخططات الصهيونية والاستعمارية التي تدبر في الخفاء لتدمير الشرق العربي والقضاء على نهضته ومساعيه في تكوين دولة عربية قوية.

ولذلك فإن الملتقى يهيب بذوي الغيرة في لبنان وقادته الأحرار أن يعملوا على إنهاء هذه الحرب الداخلية وإنقاذ الوضع المنهار في القطر اللبناني العزيز الذي مكن للمعتدين أن يمتدوا في الأراضي اللبنانية ويتحكموا في مصيرها ويصبحوا طرفا متطفلا على أبنائها وينادي بوحدة لبنان ووقف الاعتداء على المخيمات الفلسطينية ويدعو إلى انسحاب جميع الجيوش الأجنبية من أرض لبنان.

إرثيريا

إن الملتقى يحيي نضال ايرثيريا المسلمة المجاهدة منذ عشرات السنين في سبيل حريتها واستقلالها ضد الاعتداء الإيثيوبي الصليبي الحاقد، ويحث الملتقى الدول الإسلامية على مد يد العون إليها ومساندة قضيتها بكل ما يلزم، إنقاذا لها من براثن هذا العدو الذي يضطهد المسلمين من مواطنيه ولا يقف عدوانه على الداخل بل يتعداه إلى الخارج في أرتيريا والصومال والقرن الإفريقي على العموم.

الأقليات الإسلامية

يساند الملتقى جميع الأقليات الإسلامية ويحيي شجاعتها في تشبثها بدينها وتمسكها بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويهيب بجميع قادة العالم الإسلامي إلى رعاية شؤون هذه الأقليات والاهتمام بأمورها وبذل المساعي الحميدة لتحسين أحوالها وتخفيف أي ضغط عليها وصيانة عقيدتها السمحة ومد العون والمدد الذي يمكنها من ممارسة شعائر دينها.

- الوقوف إلى جانب الدول الإسلامية التي ما زال الاستعمار جاثما على بعض المدن والجيوب من أراضيها، وتأييدها الكامل في حق المطالبة باسترجاع واستكمال سيادتها التامة عليها.

- **دعوة الأمة الإسلامية إلى الاهتداء بهدي الإسلام وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام في جهادها المتواصل باعتماد جانب القوة الروحية المعنوية القائمة على سلاح الإيمان والقرآن، كمنطلق أساسي لاسترجاع الحقوق المهضومة والوصول إلى المكتسبات المشروعة، على غرار ما قام به المغرب من المسيرة الخضراء القرآنية التي استكمل بها وحدته الترابية وحرر بها صحراءه المغربية بقيادة أمير المؤمنين جلالة الملك**



الحسن الثاني حفظه الله وكانت مستمدة من فتح الرسول ﷺ لمكة المكرمة.

- دعوة المسلمين إلى خلق مزيد من التكامل الاقتصادي بين الدول الإسلامية وجعل التعامل والنظام المالي في كافة مرافقه ومجالاته مطبوعا بالطابع الإسلامي الذي يرتضيه ديننا الحنيف.

- أخذ الحيطة والحذر من تسرب المذاهب الهدامة، ومن البعثات التبشيرية المضللة وإرسالياتها المدسوسة، ومن التيارات المنحرفة والمتغلفة بغلاف الدعوة إلى الإسلام، مثل البهائية والقاديانية وغيرهما من الدعوات الباطلة الهادفة إلى تضليل شباب الإسلام وتفريق كلمة المسلمين.

- الاهتمام بإعداد المرشدين والدعاة إلى الله إعدادا علميا متينا يقوم بالأساس على الثقافة الأصيلة، وقواعد اللغة العربية وآدابها وتزويدهم بثقافات إنسانية أخرى تكون عونا لهم على أداء رسالتهم على الوجه المطلوب داخل وطنهم وخارجه، وفي مستوى دحض شبهات التيارات الهدامة والوقوف في وجهها بسلاح العلم والمنطق والإيمان.

- حث وسائل الإعلام في مختلف البلاد الإسلامية على استشعار مسؤولياتها والقيام بواجبها في خدمة الإسلام والمسلمين، وترسيخ مبادئ ديننا الإسلامي الحكيم عقيدة وعبادة وسلوكا، وأن تتجنب وتتحاشى كل ما من شأنه أن يتعارض مع تلك المبادئ أو يسيء إليها حتى تتكامل مع المسجد والمدرسة والأسرة وتتعاون معها على تشييد صرح ذلك المجتمع الإسلامي الفاضل الذي يبني دينه ودنياه، ويشيد حضارته خلفا عن سلف، وتتحقق فيه تلك الوسطية والمثالية التي جعلنا الله بها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتومن بالله، وتزن أعمالها وسلوكها بالقسطاس المستقيم مما يضمن لها النصر والتمكين الذي وعد الله به عباده المومنين.

البيان الختامي

بمبادرة كريمة من أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده وفوق أرض المملكة المغربية انعقد الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة بمدينة فاس العاصمة العلمية ابتداء من يوم الإثنين 22 رجب 1407 هـ إلى يوم الجمعة 26 رجب 1407 هـ الموافق 23 مارس 27 منه 1987، تحت شعار قول الله تعالى : ﴿**ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين**﴾، من أجل دراسة خطبة الجمعة في ماضيها وحاضرها وآفاق مستقبلها باعتبارها وسيلة للتوعية الإسلامية والتفقيه في الدين ومعالجة مشاكل المسلمين.

وقد لبى دعوة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية لحضور الملتقى خطباء يمثلون الأقطار الإسلامية وغيرها من الأقطار التي توجد بها جاليات إسلامية وهي :

1) المملكة العربية السعودية.
2) غينيا.
3) العراق.
4) فلسطين.
5) الإمارات العربية المتحدة.
6) تركيا.
7) الكويت.
8) نيجريا.
9) تونس.
10) الأردن.
11) باكستان.

12) إفريقيا الوسطى.
13) ساحل العاج.
14) أندونسيا.
15) الكابون.
16) الولايات المتحدة الأمريكية.
17) النيجر.
18) السينغال.
19) غامبيا.
20) موريطانيا.
21) ألمانيا الاتحادية.
22) السودان.
23) الصين.
24) سلطنة عمان.
25) بولونيا.
26) هولندا.
27) إسبانيا.
28) بنغلاديش.
29) الاتحاد السوفياتي.
30) بلجيكا.
31) قطر.
32) رومانيا.
33) فرنسا.
34) بروني.
35) مالي.
36) ماليزيا.
37) بلغاريا.

وبعد افتتاح الملتقى بآيات بينات من كتاب الله العزيز ألقى وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية خطابا افتتاحيا حيًا فيه الوفود المشاركة والشخصيات المدعوة والعلماء والخطباء الأجلاء، وعبر عن سرور المملكة المغربية واعتزازها باحتضان هذا الملتقى، ثم أبرز مكانة خطبة الجمعة في الإسلام باعتبارها وسيلة من أهم وسائل الدعوة إلى الله وإرشاد الناس إلى مكارم هذا الدين ومحاسنه، ودعا إلى أن تكون خطبة الجمعة استمرارا لمنهج الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين والسلف الصالح من هذه الأمة، وأداة لتوحيد الكلمة وجمع الصف، ولسانا يغرس في الأمة ثقتها في نفسها، ويبشرها بالرضى والاطمئنان.

كما دعا إلى أن يكون العمل في مجال بحث الخطبة وتدارسها عملا جماعيا منظما للخروج بها من دائرة العمل الفردي إلى الشمولية العالمية التي يلتقي حولها الخطباء من مختلف الجهات والأقطار.

وتطرق إلى مهمة خطيب الجمعة وما ينبغي أن يتحلى به من مواصفات علمية وأخلاقية.

ثم استمع الحاضرون في هذه الجلسة إلى كلمات الوفود المشاركة والشخصيات العلمية.

ثم عقدت عدة جلسات استمع خلالها المؤتمرون إلى البحوث والدراسات التي قام بإعدادها جماعة من العلماء الأجلاء، وقد تضمنت مجموعة من التوجيهات الأساسية الكفيلة بوضع الخطبة في مسارها الصحيح من الدعوة إلى شريعة الله انطلاقا من خطب رسول الله ﷺ التي تعتبر النموذج الرائع للخطب الإسلامية في الدعوة للشريعة المحمدية.

وقد تدخل في المناقشة عدد من الأساتذة والعلماء فعبروا عن آرائهم في كيفية الرفع من مستوى خطب الجمعة وأسلوب الدعوة الإسلامية ومناقشة القضايا المعاصرة بفكر إسلامي قائم على العقل والإيمان وأصول وأحكام الشريعة الإسلامية، سواء فوق المنابر أو في الدروس التي تلقى بالمساجد، والمحاضرات بالنوادي وتجمعات الشباب الإسلامي بالمخيمات.

وتفرعت عن المؤتمر خمس لجان هي :

1) **لجنة الخطابة في الجمع والأعياد.**
2) **لجنة المسجد والدعوة إلى الله.**
3) **لجنة القضايا الإسلامية.**
4) **لجنة صياغة البيان الختامي.**
5) **لجنة إنشاء القانون الأساسي للمنظمة العالمية لخطباء المساجد في العالم.**

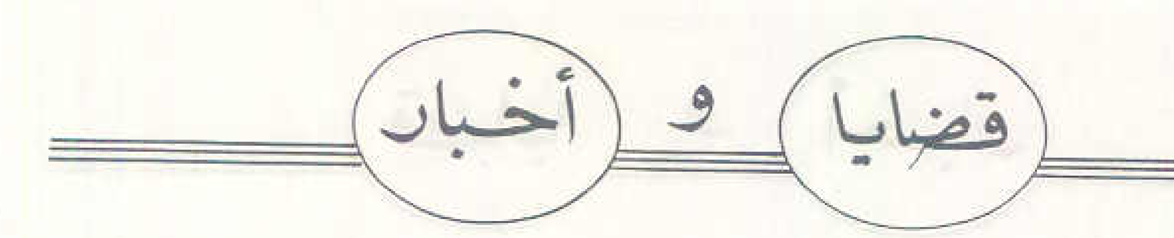
وقد تدارست اللجان المنبثقة عن الملتقى آراء واقتراحات المؤتمرين وكونت منها مجموعة من التوصيات تهم خطبة الجمعة في واقعها وآفاقها والدعوة الإسلامية بصفة عامة وحالة المسلمين في العالم الإسلامي وفي غيره من البلاد الأخرى.

وإن الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة ليعبر عن شكره وامتنانه لأمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني ملك المملكة المغربية على كريم رعايته وسابغ عطفه على هذا الملتقى، منوها بالجهود الخيرة الرائدة التي يبذلها في سبيل تضامن العالم الإسلامي وتوثيق عرى الأخوة بين شعوبه في ظل عقيدتهم السمحة وسنة نبيهم الغراء، ويبارك كل الجهود التي يبذلها أشقاء جلالته من ملوك وقادة العالم الإسلامي لتحقيق هذه الأهداف النبيلة والمقاصد الإسلامية المثلى.

وإن الملتقى العالمي الأول لخطباء الجمعة إذ يؤكد أن الأمة الإسلامية كما وصفها كتاب الله عز وجل هي خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتومن بالله، ليسجل ضمن بيانه الختامي هذا إجماع المؤتمرين حول ضرورة أخذ القضايا الإسلامية المصيرية التالية بعين الاعتبار :

أولا : أنه لابد من تنظيم الدعوة الإسلامية على أسس جديدة تواكب المستجدات التي جاء بها العصر الحديث، وأن على القائمين بها أن يستعملوا جميع الوسائل الإعلامية والمناهج العلمية التي تحقق تجديد أسلوب الدعوة إلى التمسك بالدين، وأن ينطلق هذا التجديد من تكوين الداعية والخطيب تكوينا إسلاميا صحيحا قائما على فهم كتاب الله ومعرفة سنة نبيه ﷺ مع التسلح بالإيمان قولا وعملا، وبالأخلاق سلوكا وتصرفا، وبالعلم والثقافة عدة فكرية لمواجهة المذاهب المادية والإلحادية وتبيين مزايا ومحاسن الشريعة الإسلامية، لا سيما وأن الفراغ الروحي الذي يشعر به الإنسان اليوم يفرض على المسلمين والمتفرغين للدعوة إلى الله استعمال المناهج والأساليب التي تقرب الإنسان إلى حقيقة الإيمان وتبصره بشريعة الإسلام التي لا يقبل سبحانه غيرها مصداقا لقوله تعالى : **﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾.**

ثانيا : إن واقع العالم الإسلامي الذي يشهد اليوم صحوة إسلامية تحتاج إلى التوجيه والترشيد، ويشهد صراعا ماديا وفكريا تدور رحاه فيما بين المسلمين أو فيما بينهم وبين غيرهم ممن يتربصون بالأمة الإسلامية الدوائر ليحث على التدبر والتبصر في الأمر، والعودة إلى مناهج الله والعمل على جمع كلمة المسلمين والاعتصام بحبل الله المتين الذي هو الضان لحماية الأمة الإسلامية من أخطار هذا الصراع وجعلها في مأمن من شروره، وذلك انطلاقا من أصول الإسلام وشريعته الحكيمة، التي تنص وتؤكد أن المسلم أخو المسلم في السراء والضراء، وأنه يجب الاهتمام بأحواله في الشدة والرخاء وحيثما كان، وأن دمه وعرضه وماله حرام كحرمة الشهر الحرام، وتوجب أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه مصداقا لقوله تعالى : **﴿إنما المؤمنون إخوة﴾**، وقول الرسول ﷺ : إن دماءكم



وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم : وقوله : «لا يومن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

ولأجل ذلك فإن الملتقى يدعو إلى حقن دماء المسلمين وصيانة طاقتهم التي تهدر من جراء الخلافات والنزاعات القائمة بينهم في بعض الجهات، والعمل على تسويتها بالطرق السلمية التي أرشدنا إليها ديننا الحنيف حتى يتحقق التآخي والتضامن على الخير، عملا بقوله سبحانه : **﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾** وقوله تعالى : **﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله﴾.**

ويناشد الملتقى قادة العالم الإسلامي وكافة المنظمات الدولية والمؤسسات أن يبذلوا الجهود الحثيثة الصادقة وأن يعملوا بكافة الوسائل لإيقاف الحرب المدمرة بين إيران والعراق والضغط على المعتدي لقبول السلام المشرف والعادل، ويحي موقف العراق الداعي للسلام باستمرار.

ثالثا : يذكر الملتقى المسلمين بأن بقاء المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين تحت الأسر الصهيوني يعتبر عملا عدوانيا على الإسلام والمسلمين، وأنه يجب عليهم مواجهته بكل ما لديهم من قوة وإيمان حتى تعود القدس إسلامية عربية محررة من غصب الصهاينة المفسدين ويعيش أهلها آمنين مطمئنين.

رابعا : يعلن الملتقى تقديره لكفاح المجاهدين الأفغان ووقوفه معهم حتى يعود حكم الإسلام إلى الشعب الأفغاني وأبنائه المؤمنين المخلصين.

خامسا : يناشد الملتقى جميع اللبنانيين مسلمين وغيرهم إلى الاحتكام للدين والحق والعقل والضمير الإنساني، وما يستوجبه من تسامح وتساكن بين أبناء البلد الواحد، ويشجب الحصار المفروض على المخيمات الفلسطينية والإبادة التي يتعرض لها أهلها باستمرار.

سادسا : يلتمس الملتقى من ملوك وأمراء ورؤساء الدول الإسلامية التدخل لدى رؤساء الدول التي توجد بها أقليات إسلامية قصد إيقاف ما تواجهه من الاضطهاد والحصار والمحاربة في عقيدتها وإيمانها وإغلاق مساجدها أو هدمها، وفرض تغيير هويتها وحالتها، والوقوف في وجه التمييز العنصري في التعامل مع هذه الأقليات حتى يعود الأمن إلى نفوس أبنائها والطمأنينة إلى عقيدة أهلها.

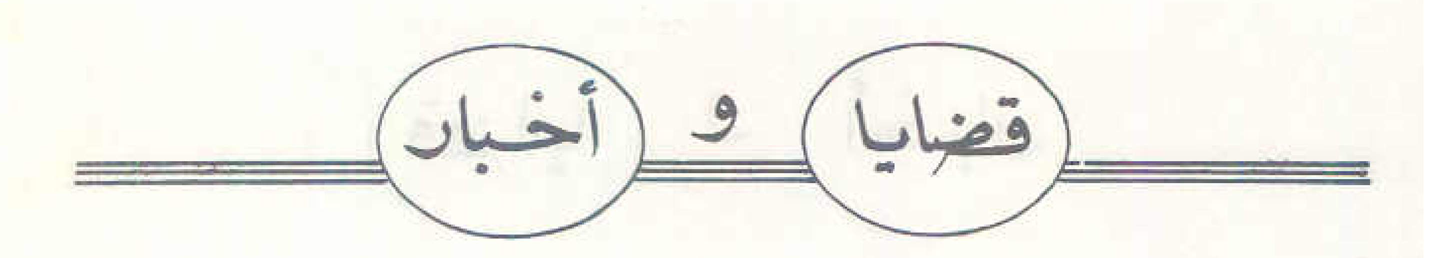
سابعا : يستنكر الملتقى محاولة خلق كيانات صغيرة مصطنعة في الوطن الإسلامي، من شأنها أن تضعف قوة المسلمين وتنال من وحدتهم واعتصامهم بحبل الله المتين.

ثامنا : يؤيد الملتقى الجهود المتواصلة والأعمال المتلاحقة التي ما فتئ جلالة الملك الحسن الثاني يبذلها من أجل السلام، وتمكين الشعب الفلسطيني من حقوقه المشروعة وخدمة قضايا الإسلام والمسلمين في كل مكان، وجمع كلمتهم على ما فيه خيرهم وصلاح أمر الدنيا والدين.

تاسعا : يوجه الملتقى بالغ شكره لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية على تنظيمها هذا الملتقى الكبير مع التنويه بحسن إدارته وتسييره.

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾.

صدق الله العظيم



مشروع القانون الأساسي لإنشاء المنظمة العالمية لخطباء الجمعة في مساجد العالم

في إطار العناية الفائقة التي يوليها أمير المؤمنين، ملك المغرب جلالة الحسن الثاني أيده الله ونصره للدعوة الإسلامية، ورعاية وتشجيع القائمين بها، والعاملين على ترسيخها في نفوس المومنين من علماء وخطباء وأئمة ومرشدين، أمر حفظه الله بعقد أول ملتقى عالمي لخطباء الجمعة في المغرب، وحضره صفوة من العلماء وخطباء الجمعة في مساجد العالم، وناشري هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ولما كانت خطبة الجمعة وصلاتها فريضة، وشعيرة كبرى من شعائر هذا الدين يحضرها الجم الغفير من المؤمنين في سائر مساجد الله وبيوته التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ووسيلة هامة يتمكن بها الدعاة إلى الله من أداء رسالتهم الإسلامية في هداية الناس إلى دين الله وإرشادهم إلى شريعته وصراطه المستقيم، فقد رأى العلماء الخطباء المشاركون في هذا الملتقى العظيم أن يغتنموا هذه الفرصة السانحة ويؤسسوا لهم منظمة تجمعهم، وتنسق عملهم الجليل، وفق المنهج الرباني الحكيم الوارد في قوله تعالى : ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين**﴾.

وقد تم بحمد الله وعونه، وحسن سداده وتوفيقه تأسيس منظمة عالمية لخطباء الجمعة من جميع الأقطار الإسلامية، ووضع لها القانون الأساسي الذي تمت المصادقة عليه، من جميع الوفود التي حضرت هذا الملتقى والمتضمن للأبواب والفصول الآتية :

الباب الأول : اسم المنظمة ومقرها

الفصل الأول : اسم المنظمة.

المنظمة العالمية لخطباء الجمعة في مساجد العالم.

الفصل الثاني : المقر.

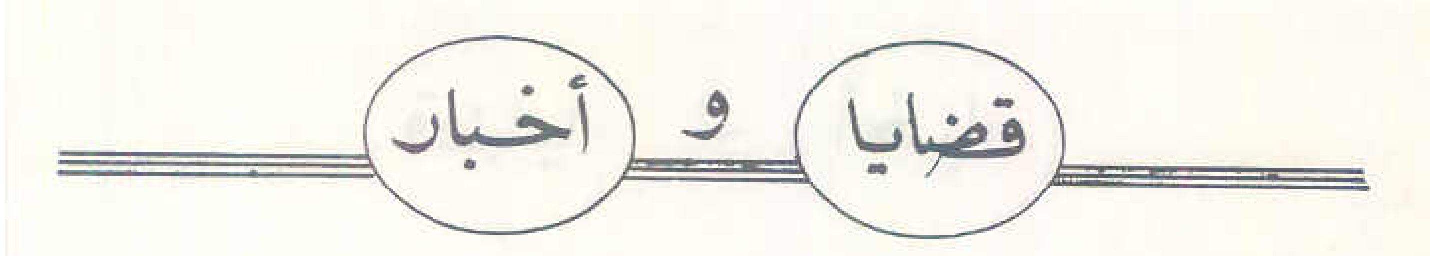
يكون مقر المنظمة العالمية لخطباء الجمعة في مساجد العالم **بالرباط عاصمة المملكة المغربية.**

الباب الثاني : أهداف المنظمة

1 - الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وإذكاء الروح الإسلامية ونشر تعاليم الدين الإسلامي.

2 - إعداد الخطيب مادة الخطبة، وفق الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح من العلماء.

3 - اختيار الموضوعات المناسبة الكفيلة برفع مستوى الخطابة والإرشاد في المساجد.



4 - توحيد الخطب المنبرية في المناسبات الدينية والقضايا الإسلامية في المساجد أينما كانت.

5 - اقتراح إنشاء معاهد خاصة بإعداد الأئمة والخطباء ومناهجها ومتابعة ذلك بالتعاون مع الجهات المختصة.

6 - تنظيم دورات تدريبية وتكميلية للخطباء، وتزويدهم بالمراجع مثل كتب التفسير والحديث وكتب الفقه المعتمدة. ومجلات المؤسسات الإسلامية.

7 - التعاون والتنسيق بين الخطباء في ميدان الخطبة والدعوة الإسلامية.

8 - التعاون وتوحيد الصف مع المنظمات والمؤسسات والجمعيات الإسلامية على نشر لغة القرآن ومحاربة الإلحاد والتنصير، وصد التيارات المعادية للإسلام.

الفصل الرابع : تأسيس فروع للمنظمة.

للمنظمة العالمية لخطباء المساجد أن تؤسس فروعا لها في مختلف الجهات التي تقام فيها صلاة الجمعة.

الفصل الخامس : عمل الفروع.

تعمل فروع المنظمة على تطبيق أهدافها والتزام مبادئها.

الباب الثالث : أعضاء المنظمة

الفصل السادس : تأليفها.

تتألف المنظمة من :

أعضاء مؤسسين.

أعضاء عاملين.

أعضاء شرفيين.

الفصل السابع : شروط العضوية وصفاتها.

يشترط في العضو العامل أن يكون.

- عالما بأحكام وتعاليم الشريعة الإسلامية، مشهودا له بكفاءته العلمية.

- خطيباً بأحد المساجد، داعيا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وفق الكتاب والسنة، والمأثور عن السلف الصالح من أئمة المسلمين.

- متمسكا بالقيم والمبادئ الإسلامية، معروفاً بالاتزان والوقار.

- مقتنعا بمبادئ المنظمة وأهدافها، ملتزماً بتطبيقها والعمل من أجلها.

الفصل الثامن : انتهاء العضوية.

تنتهى العضوية في المنظمة للأسباب الآتية :

- تقديم العضو استقالته بواسطة رسالة مضمونة إلى رئيس المنظمة.

- الإقالة في حالة ارتكاب العضو عملا منافيا لأهداف ومبادئ المنظمة مناقضاً لتعاليم الدين الحنيف.

- الوفاة.

الباب الرابع : تسيير المنظمة

الفصل التاسع :

يسير المنظمة لمدة ثلاث سنوات، جهازان هما :

- المجلس الأعلى للمنظمة.

- الأمانة العامة.

الفصل العاشر : تأليف المجلس وأعضاؤه.

يتألف المجلس الأعلى للمنظمة من :

- الأعضاء المؤسسين للمنظمة، ينتخبون من بينهم مكتبا يتكون على الشكل الآتي :

- رئيس.
- نواب للرئيس.
- أمين عام.
- أمين عام مساعد.
- مقرر عام.
- مقرر عام مساعد.
- عشرة مستشارين.

الفصل الحادي عشر : مهمة المجلس الأعلى للمنظمة.

- مهمة المجلس الأعلى للمنظمة هي التخطيط والتنظيم لسيرة الدعوة الإسلامية ومراقبة تنفيذ القرارات والتوصيات.

الفصل الثاني عشر : اختصاصاته.

يختص المجلس الأعلى بالبث في طلبات الانخراط وتكوين الفروع، وإقالة الأعضاء العاملين عند الاقتضاء، وتعديل القانون الأساسي، وتتخذ قراراته بأغلبية أصوات أعضائه، ويرجح جانب الرئيس عند التساوي.

الفصل الثالث عشر : اجتماع مكتب المجلس.

ينعقد مكتب المجلس الأعلى في دورة عادية كل سنة، وله أن يجتمع استثنائيا كلما دعت الضرورة إلى ذلك باقتراح من الرئيس وموافقة الأمين العام.

الفصل الرابع عشر : توقيع المحاضر والقرارات.

- يوقع الرئيس المقرر العام محاضر جلسات وقرارات المجلس الأعلى وهو الذي يدعو لانعقاد الاجتماعات العامة، ويدير جلساتها.

- في حالة غياب الرئيس أو حدوث عائق له، ينوب عنه نائبه.

الفصل الخامس عشر : الأمانة العامة.

- الأمانة العامة هي الجهاز التنفيذي للمجلس، وهي مسؤولة أمام المجلس الأعلى وتتخذ قراراتها بأغلبية الثلثين، وتجتمع مرة كل سنة، ولها أن تجتمع داخل هذه المدة باقتراح من الأمين العام.

الفصل السادس عشر : تكوين الأمانة العامة.

- تتكون الأمانة العامة من :
- أمين عام.
- نائب الأمين العام.
- أمين المال.
- نائب أمين المال.
- أمين المستندات والوثائق.

الفصل السابع عشر : مهمة الأمين العام.

- يسهر الأمين العام على التسيير الإداري للمنظمة، ويعمل على تطبيق أهدافها وأغراضها وعلى تنفيذ توصيات وقرارات المجلس الأعلى وتحضير جداول أعمال الاجتماعات وتوجيه استدعاآت الحضور، وتحرير المحاضر والمراسلات.

- إذا تغيب الأمين العام أو عاقه عائق قام مقامه نائبه.

الفصل الثامن عشر : مهمة أمين المال

- يتولى أمين المال المراقبة العامة لموارد المنظمة ويعمل على تحصيل الاشتراكات والمساعدات والهبات، ويسدد النفقات بموافقة رئيس المجلس الأعلى والأمين العام.

- يقدم التقرير المالي أمام الجمع العام والمجلس الأعلى والأمانة العامة كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

قضايا و أخبار

الفصل التاسع عشر : أمين المستندات.

- هو المسؤول عن حفظ وثائق ومستندات وكتب المنظمة، وتبقى في عهدته، ويسأل أمام الأمانة العامة والمجلس الأعلى عن كل ما يضيع منها وما ينشر.

الفصل العشرون : تقديم التقارير أمام الجمع العام.

- يقدم رئيس المجلس الأعلى وأمين المال تقارير مفصلة عن مهامهما أمام الجمع العام للمنظمة.

الباب الخامس : الجمع العام

الفصل الواحد والعشرون : تأليف الجمع العام.

- يتألف الجمع العام من سائر الأعضاء المؤسسين، والعاملين، وينعقد في دورة عادية مرة كل ثلاث سنوات.
- تعلن الأمانة العامة عن تاريخ وساعة انعقاد الجمع العام، وتتولى توجيه الاستدعاءات.

الفصل الثاني والعشرون : تحضير جدول الأعمال.

- يحضر الأمين العام جدول أعمال اجتماعات الجمع العام باستشارة مع الرئيس ويحق لكل عضو اقتراح نقط في هذا الجدول قبل انعقاد الجمع العام بوقت لا يقل عن شهر.

الفصل الثالث والعشرون : التوصيات والملتمسات.

بعد مناقشة النقط الواردة والمدرجة في جدول الأعمال، والتقريرين الأدبي والمالي والمصادقة عليهما يوافق الجمع العام على التوصيات والملتمسات الصادرة عن المنظمة.

الباب السادس : موارد المجلس

الفصل الرابع والعشرون : تكوين الموارد

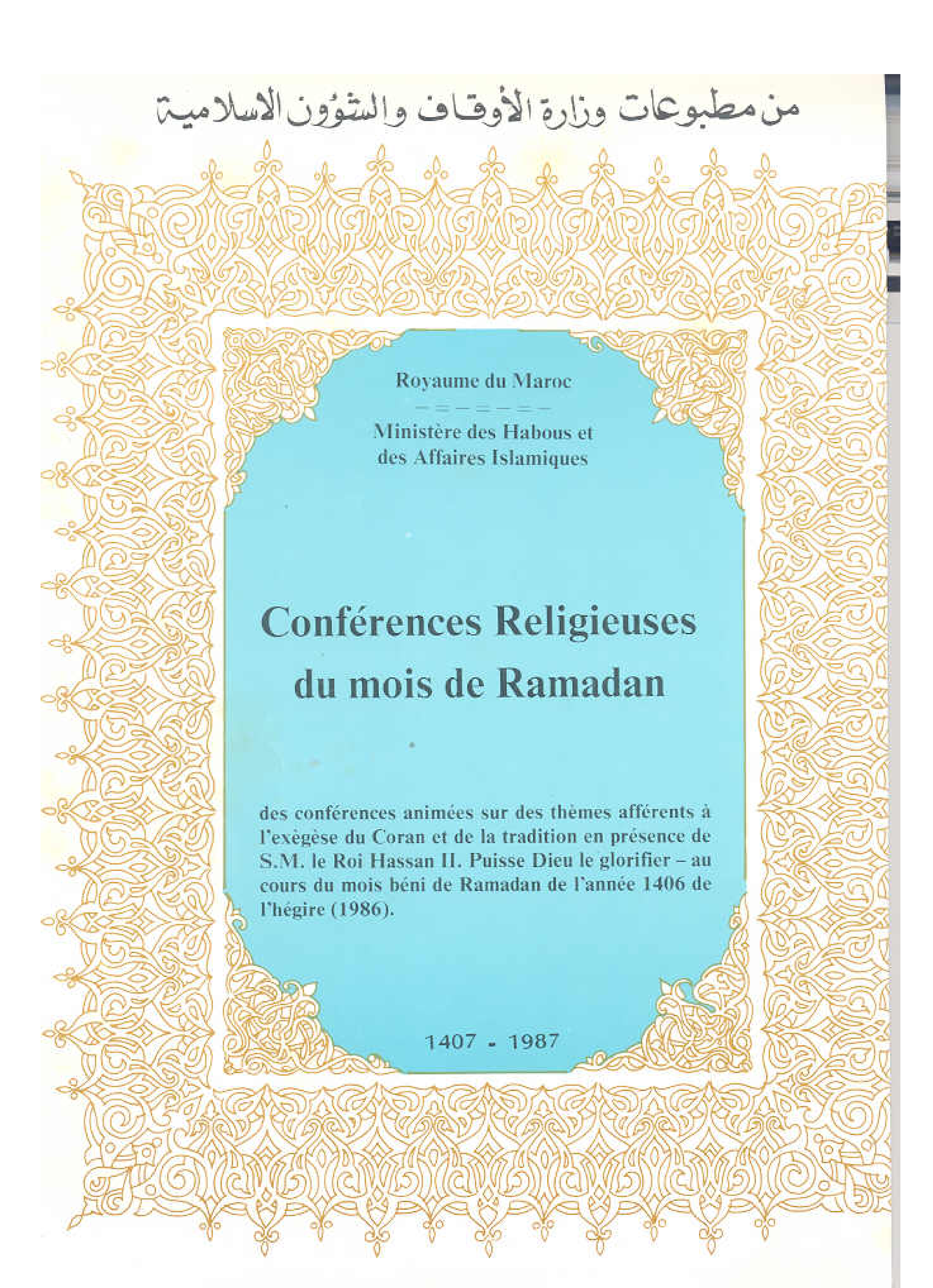
تتألف موارد المجلس من :

- اشتراكات الأعضاء.
- الإعانات والهبات والتبرعات.
- إعانة وزارات الأوقاف والشؤون الإسلامية ومختلف المنظمات والهيآت والإدارات الدينية.
- للمجلس أن يوسع دائرة موارده بالطرق المشروعة.

الفصل الخامس والعشرون :

يدخل هذا القانون حيز التطبيق بدءا من المصادقة عليه من طرف السلطات المختصة.

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3


من مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
Royaume du Maroc
Ministère des Habous et
des Affaires Islamiques
Conférences Religieuses
du mois de Ramadan
des conférences animées sur des thèmes afférents à l'exègèse du Coran et de la tradition en présence de S.M. le Roi Hassan II. Puisse Dieu le glorifier – au cours du mois béni de Ramadan de l'année 1406 de l'hégire (1986).
1407 - 1987



KINGDOM OF MOROCCO

MINISTRY OF WAQFS
AND ISLAMIC AFFAIRS

The Hassanian Lectures

Lectures on topics related to the exegesis of the Quran and the Tradition and delivered before H.M.King Hassan II over the holy month of Ramadan of 1406 A.H. (1986).